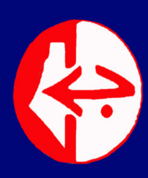
سلسلة الدراسات التثقيفية

٤

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات في الاشتراكية العلمية





سلسلة الدراسات التثقيفية

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات في الفلسفة

الكتاب الأول



دائرة الاعلام المركزي

طبعة اولى ١٩٨٥

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

سلسلة "موضوعات في الاشتراكية العلمية"، في خمسة اجزاء، ليست من نسخ الصوت الشيوعي، بل من نسخ آخرين، وقد عثر عليها اثناء بحثه في الإنترنت.

قامت مكتبة الشيوعيين العرب بـ "تطهير" شامل للسلسلة من افكار شيوعية الخائن خروشوف المزيفة، التي عادت على الحركة الشيوعية الثورية بالدمار ... وقد قمنا بذلك من خلال حذف بعض الفقرات، حذف بعض الصفحات، وإعادة صياغة بعض الجمل والعبارات ذات الصلة.

لذا أقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

المحتويات

الفصل الأول

الفلسفة وتحويل العالم تحويلا ثوريا
مكان الفلسفة في عقيدة الثوريين

ان العهد المعاصر ، الذي برز ، بالمعنى التاريخي العالمي ، بمثابة ربيع التجديد الثوري للعالم القديم ، قد دشن تاريخ البشرية الحقيقي,وطده ولايزال يوطده . وان عظمة العمليات الاجتماعية المعاصرة وتنوعها وتعقدها تثير حتما المسائل عن امكانية رسم السبيل الصحيح في خضم الاحداث الجارية ، وتحديد اسبابها ، وطابعها واتجاهها ونتائجها ، وكذلك المسائل من مكان ودور نشاط الناس في هذه العمليات . ان وضع المرحلة الثورية الانتقالية التاريخي نفسه يفرض على الناس فرضا ضرورة امتلاك مبادىء عملية للنشاط ونظام دقيق من النظرات الى العالم والى قوانين تطوره والى امكانيات وسبل المعرفة والتحويل .

العقيدة والفلسفة :

ان الناس يسترشدون بنظرات ومعتقدات معينة في علاقتهم بالعالم المحيط بهم ، في هذا اوذاك من وجوه النشاط ، في مسلكهم وفي نمط حياتهم . وهذه النظرات والمعتقدات تتكون بمقدار مايستوعب كل امرؤ التجربة الاجتماعية الانتاجية للاجيال السابقة ، بمقدار مايستوعب مهارات وعادات واساليب النشاط ، وعناصر المعرفة العلمية . ان العناصر الاساسية التي تتكون منها نظرة الانسان العامة الى العالم تضطلع بدور معين في حياته ثم ان مع عناصر المعارف العلمية توجه مهارات واساليب الانتاج المستوعبة الانسان علميا في اختيار واستعمال وسائل النشاط البشري . والمعتقدات والمبادىء والقواعد الاخلاقية تنظم سلوك الناس والعلاقات فيما بينهم ، وتشترط من العوامل النفسانية والانفعالية مزايا الانسان وسمات طبعه

ونشاطه الاجتماعي . وعليه :

يمكن تعريف العقيدة بانها مجمل المبادىء والنظرات والمعتقدات لدى الافراد والفئات الاجتماعية والطبقات ، الذي يحدد موقفهم من النشاط ، واتجاه النشاط ، والنشاط الاجتماعي .

قد ينشأ انطباع مفاده ان العقيدة هي دائما وفقط مزيج صرف من معتقدات الناس ومثلهم العليا الفلسفية والعلمية والسياسية والاخلاقية والدينية والجمالية . ان هذا التصور او الانطباع خاطىء ، لان عقيدة الناس ينطوي دائما ، رغم كل غنى الفوارق الفردية والعناصر المكونة الجزئية، وحدة معينة بين المضمون الاجتماعي والدور الاجتماعي . وهذه الوحدة بالذات بين المضمون الاجتماعي والدور الاجتماعي هي التي تتيح جمع وتصنيف جميع العقائد الفردية الموجودة باستغلال مختلف معايير الوحدة . ومن هذه المعايير ، الوحدة الطبقية التي تتيح التمييز بين العقيدة البرجوازية والعقيدة البروليتارية ، وكذلك مجمل نظرات الطبقات الاخرى والفئات الاجتماعية الاخرى . وفيها يتعلق بالاديان ودرجة تأثيرها ، يمكن التمييز بين العقائد الالحادية والدينية . ومن حيث الدور الاجتماعي السياسي في التطور الاجتماعي ، تنقسم العقائد الى عقائد تقدمية وعقائد رجعية .

ان تحليل العقائد حسب المعايير المذكورة آنفا يتسم باهمية كبيرة ، ويستعمل على نطاق واسع في الصراع الايديولوجي . ولكنه يمكن في الوقت نفسه تحليل العقائد على صعيد اوسع ينجم من الدور العقائدي الخاص الذي تضطلع به النظرات والمعتقدات الفلسفية . فان الفلسفة تقوم بدور خاص مفاده ، اولا ، انها تنظم مختلف عناصر العقيدة في نظام واحد ؛ وثانيا ، انها تحلل نظريا وتعمم مجمل معطيات الممارسة والعلم ؛ وثالثا ، انها تجيب عن مسألة الهدف من الوجود البشري ، وعن مسألة مكان ودور الانسان والبشرية ، وافقهما التاريخي .

ان هذا او ذاك من اوجه نشاط الناس من اوجه العلاقات فيما بينهم ، من اوجه سلوكهم ، هو في آخر المطاف صورة مجسدة لمبادىء فلسفية معينة . ان الفلسفة ، اذ تصف التصورات عن الوجود الطبيعي والاجتماعي وعن مكان الانسان ودوره ، انما تضع الاساس لكل نظام نظرات الانسان وتحدد نوعين اساسيين من العقائد : المادي والمثالي . وفي الحالة المعينة ، يشكل الاساس الفلسفي التي تتصنف حوله

مختلف عناصر العقيدة - ، ونعني به المادية الفلسفية او المثالية الفلسفية - اساس التقسيم . ان الوظيفة العقائدية للفلسفة وتأثير الفلسفة في توحيد الناس العملي لايمكن تقييمها بصورة صحيحة الا في حال توضيح مضمون ودور الاتجاهات الفلسفية الاساسية توضيحا عميقا .

ان الانظمة والمدارس الفلسفية العديدة تتضمن دائما ، رغم كل تنوعها واختلافها ، جوابا عن مسألة مكان الانسان في العالم ، مسألة العلاقة المتبادلة بين الوعي الذاتي ، والتفكير ، العقل وبين العالم الخارجي الموضوعي ، الوجود ، المادة. ان حل هذه المسألة الاساسية ، الاعم ، يحدد سلفا طابع كل نظام العقيدة ، ويقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين : الماديين والمثاليين . ان المادية تنطلق من اولية المادة ، من اسبقيتها ، من تبعية مشاعر الانسان وتصوراته ووعيه للعالم الخارجي المعاصر . ان المادية التاريخية ، اذ تعتبر الوعي بالامكانية المبدئية لمعرفة الظاهرات والعمليات الموضوعية . فان السعي الى تفسير العالم كما هو عليه في الواقع ، الى تفسير النشاط العملي تفسيرا علميا ، والصلة الوثيقة مع العلوم الطبيعية قد كانا على الدوام خاصتين مميزتين من خواص المادية .

وبديهي ان حجج المادية الفلسفية ونظراتها الملموسة تتغير مع مرّ التاريخ . ففي مختلف مراحل التاريخي البشري ، في المجتمعات الطبقية ، كانت الفلسفة تضم كل مجمل المعارف عن العالم والانسان . ان مادية العالم القديم ، - وهي اشهر مادية من حيث المصادر المتبقية ، - قد كانت ساذجة ، وكانت تعتبر اكثر الاجسام الطبيعية الملموسة انتشارا (النار ، الماء ، الهواء ، الارض)المبدأ الاول المادي . وباسم احد مؤسسي فلسفة الذرة الاغريقية ، سمى لينين الاتجاه المادي في تاريخ الفلسفة « بخط ديموكرتيس » .

ان مثل هذه الاشكال للمادية الساذجة قد تجلت بهذا القدر اوذاك في تاريخ العديد من الشعوب وحتى في تاريخ حضارات مندثرة ، كانت قائمة في درجات التطور البشرية الطبقية الاولى . وهذا العامل الاخير مهم من ناحيتين . اولا ، انه يبين الشرطية الاجتماعية التاريخية لنشوء الفلسفات وتطورها بوصفها اشكالا للوعي الاجتماعي ، ولنشوء وتطور التقاليد الفلسفية لدى كل شعب وقسطه الوافي في الثقافة الروحية العالمية . ثانيا ، انه يكشف البطلان العلمي للنظرات بشأن المركز

العالمي الوحيد الواحد للفلسفة والثقافة الروحية الذي يحاولون احيانا تصوير اوروبا والشرق الادنى والصين والهند وغيرها من البلدان والمناطق بصورته .

ان تقييم دور المادية القديمة العقائدي والاجتماعي لاينطوي على توضيح طابعه وحسب ، بل ايضا على توضيح انسجامه في دراسة الطبيعة والمجتمع ، ودرجة الفعالية ،والصلة بالممارسة ، وكذلك في التعبير عن مصالح فئات اجتماعية معينة . وبموجب هذه الطريقة ، لاتتكشف المحدودية التاريخية للبراهين على مادية العالم وحسب ، بل يتكشف كذلك انعدام انسجام المادية القديمة التي صارت مثالية في حال تفسير المجتمع والانسان . ان الماديين القدماء ، الذين كانوا يعربون على العموم عن مصالح الفئات الاجتماعية الديموقراطية الطليعية المرتبطة بالتجارة والحرية كانوا يمثلون الطبقات السائدة ولاسيما طبقة مالكي العبيد . ولهذا كان الماديون القدماء يعتبرون الانقسام الى عبيد ومالكي عبيد امرا خالدا وطبيعيا متطابقا مع جوهرهم الطبيعي المحتم . ومن الواضح ان الموضوعات الاجتماعية للمادية القديمة كانت تقدمية نسبيا من حيث التأثير في تحطيم العلاقات القبلية العشائرية الشائخة ، ولكنه لم يكن بوسعها ان تعكس تطلعات المظلومين الثورية . ثم ان العقيدة المادية الواعية قد اصبحت هي نفسها ، في ظل التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي ، امتيازا لقسم ضئيل من ديموقراطية مالكي العبيد التي كانت تعتبر العبيد ، من ذلك ، اشياء ، « ادوات ناطقة » . ينجم من هنا ان عاقبة التفسير المثالي لتاريخ المادية القديمة وطابعها التأملي وطبيعتها الطبقية لم يكن من الممكن ان تكون اداة روحية في يد المظلومين والمستثمرين ، وراية لثورة العبيد ؛ ولم يكن من الممكن بالاحرى ان تكون المثالية الفلسفية القديمة هذه الراية .

ان المذاهب الفلسفية قد انبثقت عن ظروف اولى المجتمعات الطبقية وبرزت كمقابل لاقتناع الناس المادي العضوي في الوجود الموضوعي للعالم الخارجي ، لهذا الاقتناع الذي واصلته وعمقته المادية الساذجة . وانطلاقا من اسبقية المبدأ الروحي (الفكر الهيولي ، العقل العالمي ، الوعي) واصلت المثالية بشكل نظري علمي المظهر الاوهام الميثولوجية الدينية القديمة ولاسيما منها مذهب الخلق الرباني للعالم . ولقد كانت الصلة مع الدين على الدوام خاصة مميزة من خصائص المثالية الفلسفية . « ان جميع المثاليين ، سواء منهم الفلسفيون ام الدينيون ، الشيوخ ام

الشباب ،يؤمنون بالوحي ، والالهام ، والمخلصين ، وصانعي العجائب ؛ وعلى درجة تحصيلهم فقط يتوقف ما اذا كان هذا الايمان سيرتدي شكلا فظ ، دينيا ، ام شكلا مستنيرا، فلسفيا . . . »[1]. واكثر مايميز الفلسفة القديمة ، انما هو نوع منها يسمى بالمثالية الموضوعية . فخلافا للمثالية الذاتية التي تعتبر العالم ومعرفته تابعين للوعي الفردي ، للذات (للفاعل) ، تنطلق المثالية الموضوعية من اولية (اسبقية) مبدأ روحي غير مادي من طراز الروح العامة ، والفكر المطلق ، وما الى ذلك .

ومن الامثلة على المثالية الموضوعية القديمة ، مدرسة الفيلسوف والفلكي وعالم الرياضيات الاغريقي فيثاغورس التي اعتبرت الاعداد الرياضية المبدأ الاول (الاسبق). اما اشهر نظام فلسفي للمثالية الموضوعية فقد وضعه الفيلسوف الاغريقي افلاطون الذي سمى لينين باسمه، كل خط المثالية في تاريخ الفلسفة . ومع انصرافنا الآن عن كل غنى مضمون هذا النظام الفلسفي، ينبغي لن ان نشير الى موضوعيته المركزية القائلة باولية الاشكال الهيولية للاشياء او « المثل » كما سمّاها افلاطون .

على الصعيد الاجتماعي والسياسي ، كانت مدرستا فيثاغورس وافلاطون الفلسفيتان تعبران عن مصالح اريستقراطية مالكي العبيد الرجعية . ان هذين المثالين يبينان ان المثالية تصوغ نظريا ، على العموم ، عقائد الطبقات والفئات الاجتماعية المحافظة والرجعية التي تعارض تحويل الحياة الاجتماعية ، والتي لها مصلحة لها في اعطاء صورة علمية عن وجود الطبيعة والمجتمع . ولقد كشفت المثالية ، حتى في اشكالها الاولى ، ازدراءها او انكارها للعمل الجسدي ، للنشاط الانتاجي ، لمعرفة العالم المحيط معرفة علمية ولتحويله .

ان الاستنتاجات الانتقادية بصدد دور المادية القديمة والمثالية القديمة العقائدي والاجتماعي لاينفي البتة اهميتها الاجتماعية التاريخية . واذا سكبنا بصيغة جديدة جملة انجلس المشهورة « لولا العبودية القديمة ، لما كانت الحضارة العصرية » ، امكننا ان نقول انه لولا الفلسفة القديمة ، لما كان التفكير النظري العصري . فان

---

(١) ماركس وانجلس . الايديولوجية الالمانية . الطبعة الروسية . المجلد ٣ ، ص ٥٣٦ .

فلسفة العالم القديم كانت تتضمن أجنّة الكثير من الانظمة والمدارس الفلسفية اللاحقة ولذا لاتزال دراستها عنصرا هاما من عناصر ثقافة الثوري الفلسفية .

ان التضاد بين المقدمات الاسسية والوظائف العقائدية والاجتماعية لكل من المثالية والمادية قد ادى الى قيام صراع فكري لم يتوقف حتى في ايامنا بين معسكرين ، بين حزبين في الفلسفة ، الى قيام صراع بين « خطى ديموكريتس وافلاطون » . وعليه نفهم بحزبية الفلسفة الانتساب الى احد المعسكرين ، الى احد الحزبين في الفلسفة ، علما بان هذا الانتساب ينجم في آخر المطاف عن اسباب اجتماعية طبقية ويعبر عن وظيفة اجتماعية محددة تاريخا . وبهذا المعنى بالذات قال لينين ان الفلسفة الحديثة حزبية كما منذ ٢٠٠٠ سنة .

وقد استمر الصراع بين المادية والمثالية في جو القرون الوسطى الروحي الخارق الوطأة والمشقة . ولكن السيطرة الاقطاعية الاكليريكية ، وانفلات الظلامية الدينية ، ومطاردات محاكم التفتيش الكاثوليكية ، وتحويل الفلسفة الى « خادمة للدين » ، عجزت عن تحطيم انصار ومريدي الحقيقة العلمية وقوة العقل البشري . وهذان الاتجاهان في الفلسفة انعكسا في ذلك الزمن في الصراع بين الاسمية (او المذهب الاسمي الذي يؤكد اولية الاشياء وثانوية المفاهيم) والواقعية (المذهب الواقعي الذي يؤكد اولية المفاهيم الواقعية ، اسماء الاشياء) ، ان النظام السكولاستي (الكلامي) للمثالية الموضوعية الذي وضعه توما الأكويني - او التومية - (والذي اعلن منذ عام ١٨٧٩ « الفلسفة الحقيقية الوحيدة للكاثوليكية ») هو اشهر انظمة المثالية الموضوعية . وقد تجلى تطرف الكنيسة الكاثوليكية في نزعتها المحافظة في اعترافها بمذهب توما الاكويني مذهبها الفلسفي الرسمي بعد مرور ستة قرون على وفاة توما الاكويني تم رسمه قديسا في عام ١٣٢٣ .

اما فيما يتعلق بالعقائد الثورية الى هذا الحد اوذاك في مرحلة القرون الوسطى ، فقد كانوا يقتلون ويبيدون ممثليها بلا رحمة ولاشفقة . وفي تلك الاحوال ، لم تحصل عقيدة الثوريين على اساس وتعليل نظري فلسفي ، وكان الانكار الانتقادي للاشكال الايديولوجية الدينية السائدة هو العنصر المهيمن عندهم . وبالفعل كانت عقائد المصلحين والثوريين العمليين طوبوية ومحافظة وكانت الهرطقات الدينية لاتستهدف القضاء على الدين بوجه عام ، بل كانت تستهدف مجرد اصلاحه ،

تحسينه ؛ وكان النضال ضد الظلم الاجتماعي يدور، على العموم تحت راية العودة الى المجتمع القديم الى «حالة الناس الطبيعية»، التي انتهكتها وشوهتها، حسبما زعم، الانظمة الاجتماعية القائمة. وكانت الهرطقات الفلاحية الشعبية في القرون الوسطى غلافا اجتماعيا وراية فكرية للحروب الفلاحية ضد الاقطاعية ، وقد كانت البرامج السياسية لبعض من هذه الحركات الفلاحية قريبة من الشيوعية الطوبوية السوائية .

اما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اي عندما تكون الشكل الثاني تاريخيا للمادية ، فان الفلسفة قد اضطلعت بدور عقائدي واجتماعي آخر . فان مقتضيات تطوير القوى المنتجة قد دفعت المعرفة العلمية للطبيعة دفعة قوية ، واسهمت في نشوء العلوم الملموسة عن الطبيعة وفي نموها السريع : الميكانيك ، الفيزياء ، الكيمياء . كذلك اقتضى قيام وتطور اسلوب الانتاج الاشتراكي في احشاء الاقطاعية التحليل والتعليل النظري . ان البرجوازية الناهضة الفتية ، بوصفها حاملة اسلوب الانتاج الرأسمالي ، قد سارت في طليعة الحركة الشعبية المعادية للاقطاعية وبرزت كزعيمة للثورات البرجوازية والثورات البرجوازية الديموقراطية . وقد غدا تغيير شكل المادية ومضمون قضايا الفلسفة المثالية جوابا عن هذه المقتضيات الاجتماعية الجديدة . كانت مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر مادية ميكانيكية تفسر العالم والانسان بالمقارنة مع قوانين ونظريات الميكانيك الكلاسيكي . ان اللوحة الميكانيكية عن العالم كانت تتطابق ، رغم طابعها الوحيد الجانب ، مع المستوى التاريخي للمعرفة العلمية ، وكانت سلاحا ماضيا في النضال ضد السيادة الاقطاعية الاكليريكية . وكانت المادية الميكانيكية وثيقة الارتباط بالعلوم الطبيعية ، وكانت تعتمد على التجربة العلمية ، على تعليم الشعب وتنويره . وبهذا المعنى ، كانت اكثر فعالية من المادية القديمة رغم انها كانت تتميز هي ايضا على العموم بالطابع التأملي .

ان الماديين الاوروبيين من القرنين السابع عشر والثامن عشر قد فسروا العالم الطبيعي تفسيرا ماديا على درجة كافية من الانسجام ، ولكن مفهومهم عن العمليات التاريخية والمجتمع والانسان بقي مثاليا . فان المنورين الموسوعيين الفرنسيين الذين ظفروا بشهرة عالمية ، مثلا ، كانوا يعتقدون ان « الآراء تحكم العالم » ؛ ولهذا ربطوا التقدم التاريخي بتنوير الشعب ، ولم يربطوه بتحويل المجتمع

تحويلا ثوريا . وكانت مادية القرن السابع عشر والثامن عشر تشكل ، من حيث دورها الاجتماعي ، تعليلا فلسفيا للعقيدة الثورية ، وللطبقة الاستثمارية البرجوازية الصاعدة ، وكانت تتجاوب مع مقتضيات التقدم في زمنها . ولكن برجوازية البلدان الاوروبية ، ماان اقامت سيادتها السياسية ، حتى تخلت بعد فترة وجيزة نسبيا عن رايتها الفلسفية المادية . واخذت مختلف صيغ العقائد المثالية الدينية تتناسب اكثر فاكثر مع مصالح سيادتها الطبقية في الميدان الاقتصادي والسياسي والروحي .

ومن الطريف ان نشير الى ان مدارس المثالية الذاتية ومايسمى بالثنائية[1] قد تطورت اوسع التطور كنقيض للمادية وتبعا لطابع العلاقات القائمة على الملكية الخاصة . ان نظام هيغل المثالي الموضوعي هو ذروة تطور المثالية البرجوازية في القرن التاسع عشر . وفي الازمنة الحديثة ، اعرب ممثلو المثالية البرجوازية ، على العموم ، عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية المحافظة ، او الرجعية ، او التي ولى زمانها . ولكنه تنبغي الاشارة في الوقت نفسه الى ان بعض المثاليين ممن طرحوا وحلوا المسائل الفلسفية المتعلقة بعملية المعرفة واشكال المعرفة ونشاط الوعي الانساني ، قد اسهموا بالتالي في تعميق وتطوير التفكير النظري .

ان الصلة بين الفلسفة وعقيدة الديموقراطية الثورية تتسم باهمية خاصة . فان الديموقراطية الثورية بوصفها ظاهرة اجتماعية ، تنبع من الاحوال الخاصة للبلدان التي تخلفت بحكم جملة من الاسباب عن الدرجات المناسبة للتطور التاريخي في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين . وبهذا المعنى ، تتسم الديموقراطية الثورية بطابع عالمي رغم ان ظهورها في بعض البلدان لايتطابق من حيث التسلسل التاريخي مع ظهورها في بلدان اخرى . ان الديموقراطية ، بوصفها تيارا فكريا سياسيا ، هي حلقة انتقالية خاصة من الحركات الاجتماعية السائرة برئاسة البرجوازية الطامحة الى السلطة ، الى الحركة التحريرية الاشتراكية ، البروليتارية .

---

(١) الثنائية (أو الاثنينية) : ـ مذهب فلسفي يعتبر المبدأ المادي والمبدأ الروحي متساويين في الحقوق . وفلسفة ديكارت وفلسفة كانط هما ابرز مثالين على الثنائية بوصفهما محاولتين للتوفيق بين المادية والمثالية .

ان الاسس الفلسفية لعقيدة الديموقراطية الثورية تتوقف سواء على ظروف العصور التاريخية المعنية ام على التقاليد الفلسفية والثورية عند هذا الشعب او ذاك . وفي اغلب الاحوال ، كانت نظرات الديموقراطيين الثوريين الفلسفية غير متجانسة ومنسجمة ، وكانت تجتمع عناصر في منتهى الاختلاف والتناقض . ومع ذلك ، ادى النشاط الثوري ، وحالة النضال الثوري ذاتها الى ظهور السعي لدى اغلبية الديموقراطيين الثوريين وراء معرفة العلمية ، والى ظهور الموقف الانتقادي من المفاهيم المثالية والاكليركية السائدة . ومن الامثلة على ذلك ، التطور الفلسفي للديموقراطي الثوري المشهور وزعيم حركة التحرر الوطني في كوبا في القرن التاسع عشر ، خوسيه مارتيه .

وفي القرن التاسع عشر ، تجلى الاتجاه المادي باسطع شكل في فلسفة الديموقراطيين الثوريين الروس ، ابتداء من هرتسين حتى تشيرنيشيفسكي . فان السمات التي تميزت بها فلسفتهم لم تقتصر على فهم الطبيعة فهما ماديا ، بل شملت كذلك محاولة النظر نظرة طبقية الى الظاهرات الاجتماعية . وللمرة الاولى ، خضعت الفلسفة المادية في عقيدتهم ، عن وعي وادراك لمصالح الطبقة المظلومة ، لمصالح الثورة الفلاحية التي كرسوا حياتهم لتعليلها وتطويرها . وقد قدر ماركس وانجلس ولينين رفيع التقدير آراء الديموقراطيين الثوريين الروس النظرية ونشاطهم ، علما بان هؤلاء تركوا اثرا ملحوظا في تطوير الفكر النظري وفي التقاليد الفلسفية للمادة وفي الممارسة الثورية . ولكن الديموقراطيين الثوريين الروس لم يتغلبوا على الفهم المثالي للتطور الاجتماعي ، ولهذا كانت نظراتهم وآمالهم في ثورة فلاحية في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث كانت الرأسمالية قد تطورت ، عبارة عن احد اشكال الطوبوية الاجتماعية .

ان استعراضا موجزا للاشكال التاريخية للمادية والمثالية على الصعيد الذي يهمنا ، اي صعيد الصلة بين الفلسفة والممارسة الثورية ، يتيح استخلاص بعض الاستنتاجات الهامة . اولا ، ان المادية الفلسفية بجميع اشكالها قد اسهمت دائما ، رغم المحدودية التاريخية للمعارف الملموسة عن العالم الخارجي والانسان ، في معرفة العالم معرفة علمية وفي رسم لوحة علمية عن العالم . فان العناصر العرفانية العلمية التي تنطوي عليها المادية قد اتاحت بها ان يبرز بوصفها اساس عقيدة اكثر الطبقات

والفئـات الاجتـماعيـة تقدما بالنسبة لزمنها . ولكن المادية السابقة لماركس لم تستطع ، بحكم عدم انسجـامهـا وتمـاسكهـا الفلسفي ، وبحكم مثـاليتهـا التاريخية وبحكم طابعهـا التأمـلي ، وكذلك بحكم الظروف التاريخية ، ان تكون تعليلا علميا فلسفيا لثورة الجماهير المظلومة والمستثمرة .

ثانيا . كشفت المثالية الفلسفية فساد اتجاهها العقائدي والاجتماعي . فان الصور المثـاليـة الـدينيـة عن العالم قد اسهمت في توطيد الضلالات المزمنة ، واعاقت تطور عنـاصـر المعـرفـة العلمية ، وعززت السيطرة الفكرية والسياسية للقوى الرجعية من الطبقـات الاستثـماريـة . وقـد برز تأثـير المثـالية على الاخص في مذاهب ومفاهيم التطور الاجتماعي التاريخي ، وطـور تقـاليد الفهـم المثالي للتاريخ ، لا عند المثاليين انفسهم وعنـد ايـديولوجيي الطبقات السائدة انفسهم وحسب ، بل ايضا عند ممثلي المـاديـة السـابقـة لماركس . ان سيطرة المثالية التاريخية قد استتبعت عيوبا جذرية في الاتجـاه الاجتـماعي ـ الطوبوية ، القضاء والقدر ، الارادية ، التأملية . وفي اواسط القرن التاسع عشر ، اصبحت هذه المحدوديات والقيود التاريخية للفلسفة السابقة ، وتخلف وظيفتها العقائدية والاجتماعية عن المقتضيات الاجتماعية واضحة واولية الى حد انهـا تطلبت انقـلابـا جذريـا في التصورات السابقة . كذلك احتاجت الوظيفة المنهاجية للفلسفة الى تغييرات جذرية .

دور الفلسفة العرفاني والمنهاجي في نشاط الناس

ان توضيح المفاهيم والمبادىء الفلسفية هو خطوة هامة تعمق فهم وظائف الفلسفة ومكـانهـا ودورهـا في عقيـدة الثـوريين ونشـاطهم . وفي هذه المفاهيم الخاصة المسماة بالمقولات الفلسفية ، يتركز المضمون النظري الاساس للانظمة الفلسفية ايا كانت .

كذلك ينبغي التمييز بين مقولات الفلسفة وبين المفاهيم العادية ومقولات العلوم الخـاصـة على السـواء ، رغم انهـا احيـانا بالكلمات ذاتها . ففي المفاهيم العادية ، يعمم النـاس بعض خواص مجمـوعة معينة من الاشياء او الظاهرات التي يستوعبونها ويعـرفـونهـا . ومن الامثلة على هذا الضـرب من المفاهيم ، مفاهيم « الشجرة » ،

«البيت» ، «الطاولة» وغيرها . وبفضل دراسة العلوم الملموسة للخواص والصلات الهامة لاشياء معينة ، ولهذه اوتلك من ميادين النشاط ، دراسة اكثر تعمقا ، دراسة مختصة ، تتكون المفاهيم العلمية . وهذه المفاهيم الاساسية ، العامة بالنسبة للعلم معنى تسمى مقولات هذا العلم .

لكل علم مقولاته . وفي مقولات العلوم الملموسة تنعكس بصورة معممة خصائص التنظيم والحالة والصلة والتغير الملازمة لمختلف ميادين او مجموعات اشياء الطبيعة والمجتمع . مثلا . مقولات الميكانيك ـ الكتلةوالطاقة ؛ مقولات البيولوجيا ـ الخلية ، العضوية ، الوراثة ؛ مقولات السيبرنتيك ـ الاعلام ، البرمجة ، الصلة العكسية ؛ مقولات الاقتصاد السياسي ـ القيمة ، التبادل ، تجديد الانتاج .

ان كلا من المقولات الفلسفية ـ خلافا لمقولات العلوم الملموسة ـ هي واسعة الى اقصى حد من حيث حجم المفهوم العلمي الذي تتعمم فيه الجوانب والصلات الجوهرية الملازمة لكل شيء ولكل عملية من عمليات الواقع . مثلا ، يمكننا ان نتصور كل شيء وكل ظاهرة وكل عملية بصورة مجموعة معينة من اقسام مكونة تشكل مضمونها ، وان نعطيها وصفا كميا معينا . وهذا يعني ان المقولتين الفلسفيتين « المضمون » و« الكمية » تعكسان امرا مشتركا موجودا فعلا وملازما لجميع اشياء وظاهرات الواقع الموضوعي .

ان الفلسفة المادية قد اعطت حلا علميا لقضية اصل المقولات . فكما كتب لينين ، « يواجه الانسان شبكة ظاهرات الطبيعة . الانسان الغريزي ، المتوحش ، لايفرز نفسه عن الطبيعة . الانسان الواعي يفرز مقولات ، وهر ، درجات الفرز ، ان درجات معرفة العالم ، العقد في الشبكة ، التي تساعد في معرفتها وفي امتلاكها »(١) . في هذا الرأي ، اشار لينين الى الاساس الموضوعي لنشوء وتطور وتكون المقولات ، والى طابعها التاريخي والى دورها في عملية المعرفة ، واعرب عن الفكرة القائلة ان المقولات تنبثق وتتطور على اساس تعميم تجربة معرفة وتحويل العالم ، على اساس الممارسة الاجتماعية التاريخية ، على اساس تطور الانتاج والعلوم الخاصة والفلسفة .

---

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٨١ ـ ٨٢ .

ان المادية والمثالية تفسران بصورة متضادة منشأ ومضمون المقولات . فان المثالية تتسم بسمة عامة قوامها الزعم ان المقولات لاتعكس العالم الموضوعي . فان هيغل ، مثلا ، قد فهم المقولات على انها تجلّ للفكرة المطلقة ، للعقل العام . والمثاليون الذاتيون يرون في المقولات نتاج نشاط التفكير البشري بدون اي صلة مع العالم الفعلي . فان البرغماتيين (العمليين) ، مثلا ، يعتبرون جميع المفاهيم مفاهيم ذاتية وغير محددة ، يصنعها الانسان ويستغلها لاجل بلوغ اهدافه . وهناك عدد لابأس به من المثاليين يعتقدون ان المقولات هي نتيجة اتفاق ، نتيجة اتفاق اعتباطي بين الناس بصدد مضمونها ومغزاها . ان المفهوم المثالي للمقولات يرتكز على واقع انها موجودة في رأس الانسان فقط .

ان كل مقولة موضوعية من حيث مضمونها بوصفها انعكاسا للعالم الخارجي ، وذاتية من حيث شكلها . ان مضمون المقولات ـ جوانب وصلات عامة معينة موجودة في العلم الموضوعي ، خارج الوعي الاجتماعي . ان ذاتية المقولات تفهم بمعنى الشكل المنطقي ، المجرد ، لعكس الواقع ، الملازم فقط للذات (الفاعل » ، وللانسان ، وللانسانية . وكل تعميم هو تجريد عن جوانب وخواص ما ، جزئية . ولكن التجريد العلمي لايعني الانفصال عن الواقع ، بل على العكس ؛ فان التجريد العلمي ، المعبر عنه بالمقولات ، يكشف بمزيد من العمق الواقع وجوانبه الداخلية ، الجوهرية ، الاكثر تخفيا .

ومن هنا ينجم ان اهم السمات التي تميز المقولات الفلسفية هي شمولية وموضوعية مضمونها . ان قضايا منشأ المقولات الفلسفية ومضمونها وشموليتها تشغل مكان الصدارة في الصراع بين المادية والمثالية منذ قرون وقرون . ان سبب هذا الصراع يكمن في الوظيفة الخاصة للمقولات الفلسفية . ان مقولات العلوم الخاصة تدرس الصلات الملموسة في ميدان معين من ميادين النشاط ، وتتسم بجانب من الاهمية ، بصورة رئيسية ، لاجل معرفة الميدان المعنى الضيق نسبيا . اما المقولات الفلسفية ، فانها تشكل ، بفضل عموميتها ، المقدمات المنطلقية لاجل دراسة وتفسير جميع ميادين النشاط . وبدون استعمال المقولات الفلسفية ، يستحيل البحث العلمي المعاصر . ذلك ان مقولات المنطق الدياليكتيكي الفلسفية ، كما بين لينين ، مترابطة فيما بينها بصورة لا انفصام لعراها،متحركة ، تنتقل احداها الى الاخرى ،

وتتحلى بمرونة عامة شاملة . « ان هذه المرونة ، المطبقة بصورة ذاتية ، تعنى الاختيارية والسفسطائية . والمرونة ، المطبقة بصورة موضوعية ، انها تعكس جميع الجوانب العملية المادية ووحدة هذه العملية ، هي انعكاس صحيح لتطور العالم تطورا ابديا »(١).

ان كل معرفة علمية للفرد ، وكل عمل اجتماعي له ، وحتى سلوكه الاجتماعي انما تضبطها بصورة عفوية او واعية هذه او تلك من المبادىء العقائدية . ونحن نفهم بمبادىء العلم او بمقتضياته الاساسية موضوعات منطلقية ومحددة تنعكس وتعمم فيها اهم وابرز جوانب نشاط الناس العرفاني والعملي في ميدان معين من ميادين العالم الموضوعي . وقد اشار انجلس الى ان المبادىء هي نتيجة البحث النهائية وانها لاتكون صحيحة الابقدر ماتتطابق مع الطبيعة والتاريخ . وهذا يعني ان المبادىء ليست مجمل قواعد اعتباطية ، بل انعكاس للموضوعي في المعرفة والتفكير ، وحاصل واستنتاج من نشاط البشرية العرفاني والعملي .

ان المبادىء الفلسفية هي مجمل اعم المقدمات المنطلقية والافكار الهادية الاساسية التي تصف فهم العالم وموقف الانسان منه في المستوى المعنى للمعرفة وللممارسة التاريخية . وفي عداد هذه المبادىء الفلسفية ، ترد المبادىء المدروسة سابقا ـ مبدأ اولية المادي ، ومبدأ حزبية الفلسفية ، وجملة اخرى من المبادىء . ان حل المسألة الاساسية في الفلسفة حلا متضادا يحدد سلفا تضاد المبادىء الفلسفية للمادية والمثالية كما يحدد سلفا تضاد وظيفتهما العرفانية والمنهاجية .

ان المبادىء والمقولات الفلسفية المصنفة تمارس تأثيرا متنوع الوجوه على نشاط الناس . ففي وحدة النظرة الفلسفية الى العالم والطبيعة والمجتمع والتفكير والمعرفة ، كما سبق وقلنا ، تتجلى الوظيفة العقائدية للفلسفة وفي الاسباب الطبقية الاجتماعية لهذا الضرب او ذاك من الفلسفة ، وفي تغيرات مضمونها التاريخية ، ولاسيما في تأثيرها على التطور الاجتماعي ، تتجلى الوظيفة الاجتماعية للفلسفة . وفي المذهب الفلسفي بصدد التفكير والمعرفة ، وفي قوانينهما واشكالهما ، تتجلى

---

(١) لينين . الدفاتير الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٩٩ .

الوظيفة العرفانية للفلسفة .

ان قضايا عملية المعرفة تشغل في نشاط الناس درجة من الاهمية بحيث ان تفسيرها الفلسفي بصور مختلفة يؤثر كذلك في جميع الوظائف الاخرى للفلسفة . وفضلا عن ذلك ، يتيح الفهم العلمي لعملية المعرفة كشف اسباب النظرات المشوهة الى العالم ، بما فيها الجذور العرفانية للمثالية ذاتها . ولنلاحظ انه مامن انسان مصون عن الضلالات وحتى عن الاخطاء المثالية . فان تعقد عملية المعرفة ، ونقص معارفنا التاريخي ومحدوديتها التاريخية ، واجتماع الضلالات والتصورات الخاطئة الى الحقائق العلمية ، - كل هذا يجعل من الممكن فهم العالم فهما مشوها . ولكنه لايجوز الخلط بين الضلالات الجزئية وحتى الاخطاء المثالية التي يقترفها انسان بمفرده وبين نظام موضوع من الفلسفة المثالية . . . » ان المثالية الفلسفية هي وحيدة الجانب ، مضخمة . . . تطوير (نفخ ، تضخيم) احد خطوط جوانب ، حدود المعرفة الى مطلق مفصول عن المادة ، عن الطبيعة ، مؤله »[1] . ان الامكانيات العرفانية لتطوير مثل هذه النظرات الوحيدة الجانب الى نظام من الفلسفة المثالية تتحول الى واقع حين تتطابق مع المصالح الطبقية الانانية لفئات اجتماعية معينة وتحظى بدعمها ومساندتها . ومن هنا تنبع ضرورة التحليل الملموس لهذه او تلك من انواع واشكال المثالية التي يلازمها اجتماع من الجذور الطبقية الاجتماعية والجذور العرفانية .

ان فعالية وتأثير المقولات الفلسفية في نشاط الناس العرفاني والعملي يتوقفان سواء على تفسير مضمونها ام على جمعها في منهج فلسفي معين . ونحن نفهم بالمنهج الفلسفي اسلوبا خاصا وطرائق للمعرفة تتيح لنا ان نكشف عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير والنشاط الاجتماعي باكثر ما يكون من الكمال والشمول والعمق ، وان نحدد بالتالي الاعمال الضرورية لاجل بلوغ الاهداف المنشودة .

لقد قال الفيلسوف المادي البريطاني الكبير فرنسيس باكون في حينه ان المنهج (او الطريقة) انما هو مشعل ينير السبيل امام السائر في الظلمة . واذا واصلنا هذا التشبيه ، امكننا ان نؤكد ان المنهج الفلسفي العلمي في الظروف المعاصرة هو

---

(1) لينين . الدفاتر الفلسفية . المؤلفات . الطبعة الرابعة . المجلد ٣٨ . ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

مصبـاح كشـاف لا ينضب معين نوره وانبثـاقـه جبـارة لاجـل البحـوث العلميـة ولاجـل النشـاط التحـويـلي الثـوري . ولكن انبثـاقه سبقه طريق تاريخي طويل من البحوث والضلالات الفلسفية .

فحتى في الفلسفـة القـديمة ، نجد اجنة المنهجين المتضادين : الدياليكتيك (او الجـدليـة) والميتـا فيزياء . فجوابا عن مسألة حالة العالم المحيط ، اكد الدياليكتيك العفـوي ان كل شيء يجري وكـل شيء يتغـير . امـا الميـافيـزيـائيـون الاقدمون ، فانهم ، على العكس ، قد استعظموا سكون الوجود وعدم تغيره وانعدام حركته . وفي القـرنـين السـابـع عشـر والثـامن عشر ، انبثقت الميتافيزياء كطريقة (او منهج) للمعـرفـة في العلوم الطبيعية ، عندما كانت المادية العلمية تتراكم ، كانت الدراسة تتنـاول مختلف الاشيـاء والـوقـائـع . ان الطريقة الميتافيزيائية مشروعة ، ومشروطة تاريخيا بالنسبة لمرحلة التجميع هذه في تطوير العلوم الطبيعية . ولكن سرعان ماشرح ما يلازمهـا من محدوديـة وطـابـع وحيـد الجـانب يحولان دون تطـور المعـرفة العلمية لاحقـا . فان الميتـافيـزيـاء تعجز عن تفسير الواقع تفسيرا علميا لانها تعزل الاشياء والظـاهـرات بعضهـا عن بعض ، وتـدرسهـا في معزل عن الصلة المشتركة والحركة المشـتركـة والتطـور المشـترك ، وتحصـر التغـيرات في مجرد الـزيادة الكمية وفي مجرد النقص الكمي .

امـا الـديـاليكتيك (الجدلية) ، بوصفه طريقة (او منهجا) فلسفية ، فقد تطور بالارتبـاط مع مقتضيـات التقـدم الاجتـماعي ، بوصفـه مذهبـا عن الصلة المشتركة والتطـور المشـترك للعالم الموضوعي والتفكير . « ... فليس هناك بالنسبة للفلسفة الـديـاليكتيكيـة ، شيء نهائي ، مطلق ، مقدس . انها ترى حتمية الانهيار في كل شيء ، ولايـوجـد شيء يستطيـع الصمـود في وجههـا الا المجـرى المستمـر للنشـوء والزوال ، للصعود اللامتناهي من ادنى الى اعلى »[١] .

ان الفكرة المركزية في الدياليكتيك ـ فكرة التغير اللامتناهي والتطور اللامتناهي ـ قد شقت الطـريق لنفسهـا مجتمعـة الى مختلف الانظمـة الفلسفيـة المادية والمثالية .

---

(١) انجلس . لودفيـغ فورباخ ونهـايـة الفلسفـة الكـلاسيكية الالمانية . دار التقدم . موسكو . ١٩٦٧ . ص ١٠ .

ولهـذا نجـد في تاريـخ التفكـير النظـري تركيبات مختلفة للنظرية الفلسفية والطريقة الفلسفيـة : المـاديـة الميتـافيـزيـائيـة والمثـاليـة الميتـافيـزيـائية ، الدياليكتيك المثالي والدياليكتيك المادي[1] . مثلا : ان مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر لم تكن ميكـانيكيـة وحسب ، بل ايضـا ميتـافيـزيائية من حيث طريقتها . فان نظام هيغل الفلسفي يتميز بجمع المثالية الى الطريقة الدياليكتيكية اوفي واوسع نحو .

ولاريب في ان فكـرة الـديـاليكتيـك المـركـزية ـ فكرة التغير اللامتناهي والتطور اللامتناهي ـ هي الانجع من حيث المبدأ لاجل توجيه نشاط الناس العملي ؛ ولكن هذه الفكـرة في اطـار نظـام هيغـل الفلـسفي المثـالي النـاجـز قد اقتصرت على تحرك المفـاهيـم الـذاتي ، ولم يكن بوسعهـا ان تكـون دليلا في الممارسة الاجتماعية التاريخية وبالاحرى في تحويل العالم تحويلا ثوريا . اما الطريقة الدياليكتيكية، فانها لم تصبح اداة جبـارة لمعـرفـة العـالم معـرفة علمية ولتحويله تحويلا ثوريا الابجمعها مع المادية الفلسفية المنسجمة المتماسكة. ان هذا الجمع بين المادية والديابيكتيك ـ ، وبالتالي تغيـير وظيفتهـا العـرفـانيـة والمنهـاجيـة تغيـيرا جذريـا ـ ، قد تحقق بنشؤ الفلسفة الماركسية ـ اللينينية .



---

(١) تجدر الاشارة الى ان المقصود بالميتافيزياء حتى اواخر القرن الثامن عشر ، واحياناً في الفلسفة المعاصرة غير الماركسية ، المذاهب الفلسفية التي تدرس على العموم قضايا المبدأ غير المادي ، قضايا ما يزعم انـه موجـود خارج حدود العـالم الفيـزيائي (الطبيعي) . وفي الفلسـفة المعاصرة ، توصف الميتافزياء بانها طريقة منافية للدياليكتيك .

الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ـ
الاساس النظري للنشاط التحويلي الثوري

المقدمات التاريخية
لنشوء الفلسفة الماركسية ـ اللينينية

ان دراسة المقدمات التاريخية ، ونعني بها المقدمات الاجتماعية والاقتصادية والنظرية والعلوم الطبيعية ـ لنشوء الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ودراسة مراحل تطورها تكشف نظريتها الاجتماعية ، واهم خصائص مضمونها ووظيفتها ، وتتيح ، فضلا عن ذلك ، تقديم البرهان على وهن وبطلان الذرائع والحجج المستعملة لنقد وانكار وتشويه الفلسفة الماركسية ـ اللينينية سواء في الصراع الايديولوجي الماضي ام الحاضر . وبين العديد من التزييفات تبرز المحاولات لاعتبار الفلسفة الماركسية ـ اللينينية والفلسفة الهيغلية او « المادية الاقتصادية » شيئا واحدا ، اويبرز ، على العكس ، الزعم القائل بوجود انتهاك للتتابع في التفكير النظري ، بوجود انقطاع من ثقافة الغرب الروحية . وهناك صيغة مضادة شكلا للتزييف المعاصر تعبر عنها الموضوعة القائلة ان الماركسية ـ اللينينية وفلسفتها ـ ظاهرة « اوروبية » صرف ، « المانية » صرف او ظاهرة « روسية » صرف ، ان المحاولات التي يبذلها الانتهازيون واعداء الشيوعية في الظرف الراهن لتشويه المضمون الاممي للمذهب الماركسي ـ اللينيني هي اعتراف اضطراري بقوة جاذبيته وبتعاظم تأثيره في العملية الثورية العالمية .

وبالفعل ، كان نشوء وتطور الفلسفة الماركسية ـ اللينينية جوابا عن المقتضيات الاجتماعية الفعلية لعهود ملموسة من التاريخ العالمي ، وتحليلا جديدا وتعميما لتجربة النضال الطبقي ولاسمى المنجزات التي حققتها البشرية في ميدان المعرفة العلمية والتفكير الفلسفي .

المقـدمـات الاجتـاعيـة والاقتصـاديـة . ان تولـد الرأسمالية قد دفع البلدان الاوروبيـة في النصف الاول من القـرن التـاسـع الى الخطـوط الامـامية من التقدم التـاريخي . ثم ان نمـو الصنـاعـة الكبـيرة قد رافقـه تحطيم العـلاقـات الاجتماعية الشـائخـة تحطيـما ثوريـا ، وتحـول الطبقات القديمة ، وظهور طبقتين جديدتين هما البرجوازية والبر وليتاريا . وحتى في اولى الازمات الأقتصادية ولاسيما في النضالات السيـاسيـة التي قامت بها الـبر وليتـاريـا في بريطانيا وفرنسا والمانيا في العقدين الرابع والخـامس من القـرن التـاسـع عشـر ، تبدى التناحر بين البرجوازية والبر وليتاريا ، والتضاد المستحكم بين مصالحهما وحاجاتهما . وبفضل الانتقال من اشكال النضال الطبقي العفـويـة والفجـة (غير الناضجة) الى تقديم المطالب الطبقية السياسية ، وتحـولت الـبر وليتـاريا الى قوة ثورية متميزة ، مستقلة . وظهرت اولى الاجنة المادية والاجتماعية والسياسية للشروط والظروف اللازمة من اجل الاطاحة بالمجتمع القائم على تناحر الطبقات . وتبدت في الوقت نفسه ضرورة ادراك دور البر وليتاريا العالمي التاريخي وضرورة اعطاء تعليل فلسفي واقتصادي لرسالتها الاشتراكية .

ان الحـاجـة التـاريخيـة الى تعليـل نظـري لمكـان ودور البر وليتاريا بوصفها طبقة مظلومة مضطهدة كانت مقدمة جوهرية لنشوء الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، ولكنها لم تكن المقدمة الوحيدة ، ذلك ان حاجات الطبقات المظلومة واحلامها وبحوثها عن نظام اجتماعي مثالي قد انعكست فيما مضى في طوبويات اجتماعية مختلفة . ان العاقبة المباشرة لتأثير المثالية التاريخية في النظريات الاجتماعية الطوبوية لم تنحصر في فهم التطـور الاجتـاعي فهـما مشوها ، بل قامت كذلك في فهم سبل وأفاق التحويلات الاجتـاعيـة فهـما غير صحيـح ، وخلافا لهذا الضرب من الطوبويات الاجتماعية ، تكونت الاسس النظرية لعقيدة البر وليتاريا من اسمى منجزات المعرفة العلمية والفلسفية .

مقدمات العلوم الطبيعية . قبل القرن التاسع عشر ، كان تطور العلوم الطبيعية الملموسة يتجلى على الاغلب في جمع ووصف وتصنيف العديد من وقائع وظاهرات الطبيعـة وخـواصهـا . ومن جراء دراسـة الـوقائع العلمية دراسة منعزلة ، نشأت في العلوم الطبيعيـة ميكـانيكية ومتيافيزيائية للعالم الموضوعي بمجمله . فهكذا ، نشأت

نظرة تزعم ان العالم يتألف من اجزاء مستقلة ، معزول بعضها عن بعض - « مملكة المعادن » ، « مملكة النباتات » ، « مملكة الحيوانات » ، « مملكة الانسان » . ان هذا الاستعظام لانعزال اقسام الطبيعة وسكونها وعدم تغيرها لم يعد يتطابق سواء مع المادة العلمية المكدسة من الوقائع ، ام مع ممارسة الانسان الاجتماعية والانتاجية .

ان النظرة الميتافيزيائية الى العالم قد قوضتها على الاخص الاكتشافات العظيمة في ميدان العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر . نفس العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، قادت بحوث العلماء في عدد من البلدان الاوروبية الى اكتشاف الخلية التي تشكل اساس بنية العضويات النباتية والحيوانية على السواء ، الامر الذي اثبت وحدة العالم العضوي وقوانين تطوره المشتركة ، العامة . وفي مستهل العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، تم تعليل القانون الاساس الذي يقول بدوام وتحول الطاقة ، والذي يؤكد استحالة القضاء على المادة وانتقال مختلف اشكال حركتها بعضها الى بعض . واخيرا ، نشر العالم البريطاني شارل داروين في عام ١٩٥٨ نظريته القائلة بتطور العضويات التدريبي والتي ختمت بحوث سابقيه العديدين العلمية . ان نظرية التطور التدريجي قد كشفت الصفة الطبيعية لاصل جميع العضويات النباتية والحيوانية الموجودة ولتغيرها الدائم وتطورها الدائم ، كما كشفت الاصل الطبيعي للانسان ، نشوء الطبيعي من عالم الحيوانات .

ومن هنا ينجم ان الاكتشافات العظيمة في ميادين العلوم الطبيعية ، بكشفها الطابع الدياليكتيكي لعمليات الطبيعة الحية والطبيعة الجامدة ، والقوانين الطبيعية لوجودهما وتطورهما ، انما قضت على اللوحة الميتافيزيائية القديمة المرسومة عن العالم ، وعللت طابعه المادي والدياليكتيكي . ولذا تطلبت منجزات العلوم الطبيعية تحويل العلوم الطبيعية وتحويل الارآء النظرية والفلسفية السائدة وتغييرها بصورة جذرية .

المقدمات الفلسفيه النظرية . ان مقدمات الاسس النظرية للعقيدة الثورية للبروليتاريا . هياهـ نى التاريخ العالمي للمعرفة الاجتماعية والفلسفية ولمعرفة العلوم الطبيعية . وبهذا المعنى ، تشبعت العقيدة البروليتارية باسمى منجزات الثقافة الروحية العالمية ، وانبثقت بوصفها تتمة فورية ومباشرة لمذاهب اعاظم ممثلي الفلسفة

والاقتصاد السياسي والاشتراكية . وقد برز نظامي هيغل وفورباخ الفلسفياذ كمحصلة وذروة ونهاية للفلسفة في المجتمعات الطبقية التناحرية .

لقد قام هيغل في نظامه الفلسفي بمحاولة عبقرية لكشف الطابع الدياليكتيكي المشترك العام للطبقة والمجتمع والتفكير . ومن وجهة النظر هذه ، ليس العالم والانسان مع وعيه غير اطوار مختلفة من تطور وشكل وجود الفكر المطلق الموضوعي . فان المبدأ الاولى الخالد للعالم ، حسب هيغل ، ويمثله طور وجود الفكر المطلق قبل الطبيعة ، يمثله شكله « الصافي » ، المنطقي . وفي طور معين من التطور ، يتحول الفكر المطلق الى ضده ، الى نقيضه ، الى « وجود آخر » ، الى طبيعة . ثم ان الحركة حركة الطبيعة وتطورها يؤديان بدورهما الى نشوء الانسان والى نشوء شكل جديد « للوجود الآخر » ـ هو الوعي ، الروح البشرية . ان تطور الوعي يبلغ اعلى الدرجات في نظام هيغل على وجه الضبط ، لانه حسبما يزعم ، يعبر عن الوعي الذاتي للفكر المطلق .

في هذا العرض الموجز ، تبرز السمات الاساسية لفلسفة هيغل . ان اهم مزايا هذه الفلسفة انما هي فكرتها الخصبة المركزية بشأن التطور الدياليكتيكي بوصفه حركة تلقائية تشكل التناقضات الداخلية اساسها ، جذر كل حركة وقابلية للحياة . ان هذه الفكرة قد عممت النتائج التقدمية للمعرفة السابقة في ميدان العلوم الطبيعية وميدان الفلسفة . وهي تنطوي على حدس عبقري بدياليكتيك الاشياء ، رغم ان التعبير عن هذا الدياليكتيك ارتدى شكل دياليكتيك المفاهيم . وفي الوقت نفسه ادى خصب فكرة التطور ، الذاتي بالنسبة للعلم والممارسة الى تقويض نظام فلسفة هيغل المثالي ، المحافظ ، تقويضا شديدا . فان هيغل لم يستطع ان يتغلب على التناقض المستعصى الناشيء بين كل نظام متكامل للمثالية الفلسفية وبين فكرة التطور اللامتناهي . وهذا التناقض انما يعبر عنه ، اولا ، ما يتطور (الفكر « الخاص » ام المادة) ، وثانيا ، نتيجة التطور ، لان التطور عند هيغل ينتهي بصورة منطقية بالمعرفة الذاتية للفكر المطلق ، بتأكيد اكتمال وثبات (عدم تغير) كل ما هو موجود سواء في الطبيعة ام في المجتمع والتفكير . ومن الواضح ان دياليكتيك هيغل الذي ينحصر في شكل الحركة الداخلية للفكر المطلق ، لم يكن بوسعه ان يكون طريقة دياليكتيكية حقيقية للمعرفة العلمية ولنشاط الناس التحويلي .

ان تناقض فلسفة هيغل الداخلي ، الذي يفصح عن ازمة التفكير النظري في المجتمع البرجوازي في تلك المرحلة ، قد حدد سلفا الصراع المديد بين التيارات المادية والمثالية حول نظرات هيغل .

وقد كان الفيلسوف المادي الالماني فوربخ من اوائل الذين انتقدوا مثالية هيغل الموضوعية انتقادا اساسيا مفصلا . فقد اوضح عن حق وصواب ان نظام هيغل هو دين معبر عنه في تجريدات فلسفية ، وان الفكر المطلق هو تعبير آخر عن الاله ؛ الذي هو جزء من الطبيعة ذاتها . وقد عارض فورباخ هيغل بموضوعات مادية عن اولية الوجود المادي ودوره المحدد ، ودرس وحل مسألة الوعي بوصفه انعكاسا للعالم المادي ومن المواقع المادي انتقد فورباخ عن حق وصواب المثالية والعجزية(اللا أدرية) على الحد من امكانيات الانسان العرفانية او على انكارها ، كما انتقد المادية المبتذلة التي حصرت تفكير الانسان ونفسيته في الظاهرات البدنية . وعليه تقوم مأثرة فورباخ التاريخية في بعث مبادىء المادية في النضال ضد الهيغلية وسائر اشكال المثالية .

الا ان فورباخ ، رغم بعثه هذه المبادىء، كرر المحدودية التاريخية للمادية السابقة . فان ماديته كانت من حيث الطريقة ميتافيزيائية وتأملية ، وكانت تأتلف من الفهم المثالي للعملية التاريخية التي كان فورباخ يعتبر العقل قوتها المحركة . وبما ان فورباخ رأى الى الانسان خارج علاقاته الاجتماعية ، خارج التطور التاريخي ، ولم يفهم دور النشاط العملي الاجتماعي التاريخي ، فقد اضفى على المثالية طابعا انترويولوجيا (متعلقا بعلم السلالات البشرية) . ان اهم خطأ اقترفه فورباخ ، هو الطابع الوحيد الجانب لانتقاده فلسفة هيغل ، التي لم ير جانبها الايجابي ، دياليكتيكها ونبذها كشيء لا يصلح للاستعمال .

ان محدودية فلسفة فورباخ المادية وطابعها الوحيد الجانب انما تغلب عليهما مؤسسا المادية الدياليكتيكية والتاريخية .

* * *

نشوء الفلسفة الماركسية ـ اللينينية واهم خصائصها

ان كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وفريدريك انجلس (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) هما اللذان نفذا استجابة لمتطلبات التاريخ العالمي الاجتماعية القائلة بوضع عقيدة ثورية علمية حقاً . فان ماركس وانجلس قد عارضا النظم القائمة منذ اولى خطواتهما في حلبة الحياة المستقلة ، وقطعا كل صلة بتقاليد عائلتيهما البرجوازيتين الدينية المحافظة . وكان اشتراكهما العملي في الحركات الثورية في الاربعينيات اهم سبب لتطور نظراتهما السياسية والفلسفية . . ومنذ بداية نشاطهما تغلبا من مواقع الديمقراطية الثورية على ليبيرالية الديمقراطيين البرجوازيين الصغار (وفي ذلك الوقت كانوا يسمون في ألمانيا بالهيغليين الشباب) . كان الهيغليون الشباب ثوريي الجمل والتعابير ، وكانوا يعتبرون تغيرات الوعي اساساً لتغيرات الواقع . وكانت مثاليتهم التاريخية في ظروف الوضع الثوري في الاربعينات عقبة في النضال العملي ضد النظام القائم .

كانت الممارسة الثورية تتطلب بقوة خاصة جواباً نظرياً عن المسائل المتعلقة بكنة الانسان على العموم وبكنة الانسان في المجتمع البرجوازي على الخصوص ، وبمكانة ودوره في العملية التاريخية . وقد تطلب اعداد الجواب عن هذه المسائل من ماركس وانجلس اعادة النظر بعين نقدية الى المثالية والميتافيزياء السائدتين في النظرات الى المجتمع والانسان ووعيه ، والتغلب عليهما ، ولهذا يشكل وضع الديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ اهم مضمون في مؤلفات ماركس وانجلس الاولى . ففي كتاب « العائلة المقدسة » (عام ١٨٤٥) ، انتقدا بالتفصيل طوبوية الهيغليين الشباب ومحافظتهم ومثاليتهم التاريخية ، وكشفا جذور المثالية ، واعطيا تقييماً موجزاً لمختلف النظم المثالية والمادية وللصراع فيما بينها في تاريخ الفلسفة . وفي الوقت احتوى هذا الكتاب استنتاجاً مادياً عن دور الجماهير الشعبية الحاسم في التاريخ ، وبوصفها المنتجة المباشرة للخيرات المادية . وفي كتاب « الايديولوجية الالمانية » (١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) كشفا الاسس المادية العلمية التاريخية ، ونشوء وتطور مختلف اشكال الايديولوجية . ان تكوين الاسس المبدئية للعقيدة الجديدة ينتهي بتأليف « بيان الحزب الشيوعي » (١٨٤٨) الذي يعرض في وحدة لا انفصام لعراها الاقسام المكونة الثلاثة للماركسية : الفلسفة الالمانية

الدياليكتيكيه والتاريخية) ، والاقتصاد السياسي ، ونظرية الشيوعية العلمية .

ان الاقسام المكونة الرئيسية للعقيدة الثورية الماركسية لم تكن البتة مواصلة للافكار الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية السابقة . وقد اشار لينين في مؤلفه « مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة » الى الفرق الجذري بين مذهب ماركس ونظرات الاقتصاديين البرجوازيين والاشتراكيين البارزين في تلك الزمن فان الاقتصاديين البرجوازيين بذلوا جهدهم لكي يفسروا طبيعة العمل والطبقات الاجتماعية ، ولكنهم لم يمكنوا من تبيان شرطية وجودها الاقتصادية الفعلية ، وآفاق النضال الطبقي ومكانه في التاريخ . واحتج الاشتراكيون عن حق وصواب على المظالم الاجتماعية ، وانتقدوا الرأسمالية انتقاداً حاداً ، وتقدموا بمشاريع مجتمع اشتراكي عادل . ولكن مشاريعهم الاشتراكية بقيت طوبويات اجتماعية ، احلاماً مثالية ، لانها كانت منفصلة عن الضرورة الاقتصادية وعن نضال البروليتاريا الطبقي .

خلافاً لوجود المصادر النظرية منعزلة بعضها عن بعض ، تقوم الاقسام المكونة للماركسية في وحدة لا انفصام لعراها ، وتشكل المعتقدات والمثل الاشتراكية والنشاط الثوري التحويلي . ان الصلة المتبادلة والوحدة الداخلية العميقة بين الاقسام المكونة الرئيسية للعقيدة الثورية الماركسية تشترطها اهم خصائص اساسها الفلسفي النظري .

وحدة المادية والدياليكتيك : ان التفاعل المتبادل والوحدة التي لا تنفصم عراها بين النظرات المادية والنظرات الدياليكتيكية هما من اهم خصائص مذهب ماركس الفلسفي . ان المادية الفلسفية المنسجمة ، المتماسكة ، والاعتراف باولية المادة وبالشرطية المادية لجميع الظاهرات الموجودة ، ينطويان حتماً على النظرة الدياليكيتيكية الى الصلة المتبادلة بينها ، والي التغير والتطور . وان الدياليكتيك الماركسي بوصفه علماً فلسفياً ينطلق من الاعتراف بوحدة العالم المادية ، وبموضوعية اشكال الوجود وخصائص المادة وقوانين حركتها ونطورها . ثم ان الاعتراف بالتطور الدياليكتيكي الموضوعي للعالم المادي والمعرفة والتفكير ، بهذا التطور المستقل عن ارادة الناس ووعيهم يشترط في الوقت نفسه انسجامية وعلمية مادية ماركس الفلسفية .

ان ظهـور المـادية الـديـاليكتيكيـة كان بمثـابـة انتصـار مفعم بروح النقد على المحـدوديـة الميتـافيـزيـائيـة التي كانت تلازم المـذاهب المـادية الماضية والدياليكتيك المثالي . ثم ان الوحدة التي لا تنفصم عراها بين المادية والدياليكتيك تشكل كذلك احـد التنـاقضـات الجـذريـة بين الفلسفـة الماركسية ـ اللينينية والفلسفة البرجوازية المعـاصـرة . وتحتـوي المطبـوعات الفلسفية غير الماركسية كثرة من الاشكال لتفسير الدياليكتيك . وبينها يغدو الانكار السافر للدياليكتيك على العموم ظاهرة نادرة . والاعـتراف او شبـه الاعـتراف بالدياليكتيك قولاً وتشويهه فعلاً بمختلف الاساليب هما اوسـع انتشـاراً في ايـامنـا . وفي هذا المجـال ، كانت تعـاريف الـدياليكتيك في المـوسـوعـات والقـواميس الفلسفيـة الـواسعة الانتشار في العالم غير الاشتراكي هي الابرز . فان هذه المطبوعات تفسـر الدياليكتيك على العموم بانه « فن المحاكمة » ، « علم المنطق » ، « علم يدرس المحاكمات وقوانيها » ، وما الى ذلك (١)

ان بطـلان هذه الـتـعـاريـف يتـلخص في الانـكـار الاعـتـبـاطـي لديـالـيـكـتـيـك العـالم المـوضوعي وفي اضفاء صفة الاطلاق على منطق التفكير . ان التفسير المثالي للديـاليكتيـك لا يؤثـر في مضمـونـه وحسب ، بل ايضـاً في طرائق تدريس منـاهج الفلسفة في البلدان غير الاشتراكية . ومما له دلالته ان مناهج الفلسفة تقسم اعتباطاً الى تعاليم معزولة بعضها عن بعض عن قضايا الوجود وقوانينه (الاونتولوجيا ـ علم الوجود) وعن قضايا المعرفة « العرفانية) ، وعن قوانين واشكال التفكير (المنطق ، والمنطق الشكـلي بصـورة رئيسية) . وتعتبر التعاليم عن القيم (الاكسولوجيا ـ علم القيم ـ ويشمل الاخلاق والدين وعلم الجمال) منهاجاً خاصاً مستقلاً ، الامر الذي ينعكس في الوسائل التعليمية الفلسفية الصادرة في بلدان العالم غير الاشتراكي .

ان اغلبيـة التفسـيرات المثـاليـة المعـاصـرة للدياليكتيك موجهة بنحو او آخر ضد المـاديـة الـديـاليكتيكيـة . وظهور كثرة من هذه المفاهيم التي لا يشاطرها احياناً غير حلقـة مـن مؤيـدي هذا المؤلف اوذاك ، يبـين بطـلانـهـا العلمي وعقمها . ان

---

(١) راجعوا ، مثلاً ، الموسوعة العالمية « نوكوس » ، برشلونة . عام ١٩٦٥ . المجلد ٢ ، ص ٢٢٠٤ .

القاموس الموسوعي « يليه » . باريس . عام ١٩٦٩ ، المجلد ٣ ، ص ١٨٢١ وغيرها .

اغلبية هؤلاء المؤلفين ، اذ ينكرون الدياليكتيك المستقل عن الوجود البشري ، يحصرونه في التجربة الفكرية والثورية - في الصلة المتبادلة العقلانية او النفسانية بين المعرفة والفعل . ذلك هو المعنى المثالي لما يسمى « بالدياليكتيك التاريخي » للوجودي الفرنسي الشهير جان بول سارتر ، و« الدياليكتيك الذاتي الوسطي » لموريس مرلو بونتي ، و« الدياليكتيك ما فوق التجريبي » لجورج غورفيتش ، و« الدياليكتيك الفاجع » لفال وايبوليت .

وفضلاً عن التفسيرات المثالية الذاتية للدياليكتيك ، نجد كذلك في المطبوعات البرجوازية المعاصرة مفاهيم مثالية موضوعية . فان الفلاسفة الكلاسيكيين المعاصرين ، ومنهم ، مثلاً التومي (نسبة الى القدس توما الاكويني) الجديد الفرنسي اندري ماركس ، ينشرون مفهوم « الدياليكتيك الانتولوجي » (« الامنتولوجيا - علم الكائنات وحقيقتها) . ان مغزى هذا المفهوم يتلخص في كون جميع علاقات وتغيرات الوجود والانسان (اللذين هما من منح الرب ، بالطبع) تخضع لقانون التناسق وتسلسل المقامات ، ولهذا لا يمكن تركيبهما الا في الرب . وفضلاً عن عرض مفاهيمهم المثالية عن الدياليكتيك ، يلجأون كذلك في الصراع الايديولوجي الى تزييف المادية الدياليكتيكية على المكشوف ، ولا سيما الى تشبيهها كلياً بالهيغلية واعتبارهما شيئاً واحداً . ولكن ماركس وانجلس ، خلافاً لهيغل ، قد استخلصا المفاهيم والقوانين الدياليكتيكية ، لا من المجال المجرد ، المثالي ، بل من تحليل ظاهرات وعمليات العالم المادي . وقد صاغا الدياليكتيك المادي ، بتعميم تاريخ تطور النشاط العملي البشري والمعرفة العلمية . ثم اكد لينين ان ماركس وانجلس قد قاما بخطوة عبقرية الى الامام في تاريخ الفكر الثوري ، قوامها تطبيق الدياليكتيك المادي على الاقتصاد السياسي والتاريخ والعلوم الطبيعية والفلسفية ، وعلى سياسة وستراتيجية الطبقة العاملة .

وبتحليل الواقع تحليلاً عميقاً ، يبين الدياليكتيك الماركسي الطابع العابر ، الزائل لكل ما هو موجود ، بما في ذلك اشكال الحياة . وقد كتب ماركس يقول ، : « ان الدياليكتيك لا يثير ، بصورته العقلانية ، في البرجوازية ومذهبيها - الايديولوجيين غير الحقد والرعب ، لانه ينطوي في الوقت نفسه ، بوصفه فهماً ايجابياً عما هو موجود ، على فهم افكاره ، على فهم هلاكه المحتوم . . وهو لا

ينحني امـام اي شيء ، وهـو من حيث جوهـره بالـذات نقدي وثـوري »[1] . وبـالـديـاليكتيـك المـادي الـذي يشكـل روح المـاركسيـة الثوري ، ترتبط الفلسفة الماركسية ـ اللينينية مع خصائصها الهامة .

التشـارط المتبـادل بين المـادية الـديـاليكتيكية والمادية التاريخية : ان شمـول مبـادىء المـادية الدياليكتيكية للعمليات الاجتماعية التاريخية هو خاصة عامة اخرى تميز الفلسفة الماركسية ـ اللينينية بصورة جذرية عن الانظمة الفلسفية السابقة والحـاليـة . وان اكتشاف الفهم المادي للتاريخ يشكل ، مع غض سرّ القيمة الزائدة في ظل الرأسمالية ، مأثرة ماركس العلمية العظيمة . فللمرة الاولى في تاريخ التفكير النظري ، جرى تفسير الحياة الاجتماعية وكل تاريخ البشرية باسباب وعلاقات مادية بيعيـة . ان حاجـات النـاس المـاديـة وظـروفهم المـادية هي التي تحدد وعيهم واتجاه تشـابهم . وعلى نقيض المثـاليـة التـاريخيـة السائدة من قبل ، اقامت مادية ماركس التاريخية للمرة الاولى علم الاجتماع (السوسيولوجيا) على اساس علمي .

ان اهميـة المـاديـة التـاريخيـة لاجـل معـرفـة المجتمـع معـرفـة علميـة وتحـويله ثوريـ تتسم بدرجة من العظمة بحيث ان موضوعاتها الاساسية وكذلك مكانتها ودورها هي موضـع صراع ايـديـولـوجي حاد . ان اعتبـار المـاديـة التـاريخيـة وما يسمى « المادة الاقتصادية » شيئاً واحداً هو اقدم الاختلافات المعادية للماركسية واوسعها انتشاراً . ولكن حصـر الظـاهرات الاجتماعية ولا سيما الحياة الروحية بصورة مبتذلة في الانتاج مبـاشرة ، في الاقتصاد مباشرة ، انما انتقده ماركس وانجلس ولينين على الدوام بلا رحمة ولا هوادة . وهناك ضرب آخر من الاخطاء في تفسير مكان ودور المادية التاريخية في الفلسفـة المـاركسيـة ـ اللينينيـة . اولاً ، لا يجوز تصـويـر نشوء وتكـون الفلسفة المـاركسيـة على ان المادة الدياليكتيكية قد انشئت في البدء ، ثم جرى تطبيقها على التاريخ الاجتماعي . اما في الواقع ، كما سبق وقلنا ، فان نظرات ماركس وانجلس الفلسفيـة قد تكـونت بتأثـير المـمارسـة الثـورية المباشرة ، ولهذا جاء في المرتبة الاولى

---

(١) كارل ماركس . مقـدمـة الطبعـة الثـانيـة لكتـاب « رأس المـال » . كارل ماركس وفريديرك انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية . المجلد ٢٣ . ص ٢٢ .

قضايا التطور الاجتماعي ومكان الانسان ودوره فيه . ولهذا صاغ ماركس وانجلس الموضوعات الاساسية في المادية الفلسفية والديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ على صلة مترابطة بعضها ببعض بصورة لا انفصام لعراها . وهناك خطأ آخر احدث عهداً تجلى في المزاعم بشأن « عدم ضرورة » المادية التاريخية نظراً لتطور العلوم الطبيعية الجبار ، ولا سيما منها علم الاجتماع (السوسيولوجيا) الملموس . فان هذا التفسير يحصر الفلسفة الماركسية ـ اللينينية في المادية الديالكتيكية ، ويضع شتى ضروب النظريات السوسيولوجية مكان المادية التاريخية . ومن الواضح ان هذا البتر لا ينكر دور المادية التاريخية المنهاجي لجميع العلوم الاجتماعية وحسب ، بل يؤدي كذلك الى تسويه الخصائص الاخرى للفلسفة الماركسية ـ اللينينية والى تشويه موضوعها ووظائفها .

وحدة النظرية الفلسفية والممارسة الثورية : ومن اهم خصائص الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، خاصة اخرى تميزها بصورة جوهرية عن سائر الانظمة الفلسفية ، هي وحدتها المبدئية مع نشاط الناس الثوري . فان المثالية التاريخية التي كانت سائدة عند الماديين السابقين لماركس قد اشترطت تأملية الفلسفة السابقة ، اشترطت القطيعة بين تفسير العالم وتغييره . ومما اسهم في ذلك ، الفهم الضيق للممارسة للنشاط العلمي الذي اقتصر على التجربة الشخصية ، على الاختبار العلمي . ان التأملية والفهم الضيق للنشاط العلمي لم يلاحظهما ماركس (في « موضوعات عن فورباخ » ، مثلاً) وحسب ، بل تم التغلب عليهما عن طريق النظرية الديالكتيكية المادية بشأن نشاط الناس المادي التحويلي . وقد كان ماركس اول من ادخل مفهوم النشاط العملي الاجتماعي التاريخي بوصفه مجمل نشاط اناس يخضعون الطبيعة ويحولونها ، ويخلقون الثقافة المادية والروحية ، ويغيرون وجودهم الاجتماعي وانفسهم بالذات . وليست الاختلاقات النظرية المجردة ، ولا حركة التفكير ، بل نشاط الناس الثوري التحويلي مع ما يلازمهم من وعي هو الذي اصبح مركز فلسفة ماركس ، ومهمتها الكبرى ، فضلاً عن تفسير العالم تفسيراً علمياً ، تقوم في تعليل السبل لتحويل العلاقات الاجتماعية تحويلاً علمياً ، وللقضاء على اللامساواة الاجتماعية وعلى الاستعباد الاجتماعي .

وان ماركس ، الذي اكد الوحدة التي لا تنفصم عراها بين فلسفته وبين النشاط العملي الثوري (الممارسة الثورية) ، قد سمى الشيوعيين ، حتى في اولى مؤلفاته ، بالماديين العمليين . وغير مرة اشارت وثائق المؤتمرات العالمية للاحزاب الشيوعية والعمالية الى طابع الفلسفة الماركسية ـ اللينينية الفعال والهادف والى تقليلها العلمي لستراتيجية الشيوعيين وتكتيكهم . فاذا لم ينطلق الشيوعيون في نشاطهم من الديالكتيك والمادية ، فقد يؤدي ذلك الى نشوء الذاتية ووحدة الجانب ، الى الانفصال عن الواقع ، عن الممارسة ، الى فقدان القدرة على تحليل العمليات الاجتماعية تحليلاً شاملاً وعميقاً ، الى انحرافات تجريدية وعقائدية جامدة ، الى اخطاء في السياسة . وفي الوقت نفسه ، قد تتحول الفلسفة ذاتها ، اذا لم تكن على صلة بالممارسة الثورية والسياسة الثورية ، اذا لم تكن بينها وبين نشاط الناس الاجتماعي التحويلي صلة وثيقة للغاية ، الى تجريد مكتبي لا حياة فيه .

ان الصلة الوثيقة التي لا انفصام لعراها بين الفلسفة والممارسة الثورية لا تضفي على الفلسفة ابعاد فعالاً وهادفاً وحسب ، بل تضفي عليها كذلك ايضاً خلافاً . وهذه الخاصة الهامة تنبع من جوهر الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، الدعوة الى تعميم الاهم من بين احدث معطيات المعرفة الاجتماعية والعلوم الطبيعية ومعطيات النشاط العملي الاجتماعي التاريخي . وهذا العامل يشترط تطور الفلسفة الماركسية ـ اللينينية بلا انقطاع ، وتعميق وتوسيع مضمومن مبادئها وقوانينها ومقولاتها التاريخي ، الملموس . ان نشاط الطبقة العاملة الثوري التحويلي هوينبوع هام لتطوير جميع موضوعات المذهب الفلسفي تطويراً خلاقاً ولصياغتها صياغة ملموسة واضحة .

ان نشاط لينين في الحقل النظري ، وكذلك الموضوعات النظرية الجديدة المصاغة في وثائق الاحزاب الشيوعية والعمالية الشقيقة وفي وثائق مؤتمراتها العالمية هي مثال على تطوير المادية الديالكتيكية والتاريخية تطويراً خلاقاً . ان المرحلة اللينينية في تطوير الفلسفة الماركسية قد بدأت تخوم في القرنين التاسع عشر والعشرين. ان دفاع لينين عن المادية الفلسفية والديالكتيك المادي والفهم المادي للتاريخ ، وتعليله لها وتطويره لها ، هي لعلى درجة من . الأهمية والشمول . وبحيث انها تتجلى عن كامل الحق والجواب في مفهوم الفلسفة الماركسية ـ اللينينية . وللمناسبة نلاحظ ان قضية المرحلة اللينينية في تطوير فلسفة الماركسية في موضع شتى اصناف الاختلافات

والتشويهات الانتهازية والمعادية للشيوعية : ان بطلان هذه التزييفات يثبتها بأعم شكل عاملان : اولا ، ان نشوء المرحلة اللينينية في الفلسفة الماركسية كانت له اسبابه الموضوعية ، ومجموعته من المقدمات الاجتماعية الاقتصادية والمقدمات النظرية الفلسفية والمقدمات من العلوم الطبيعية ، التي سنعرفها فيما بعد . ثانياً ، تتلخص موضوعة المزيفين الرئيسية في زعم ان اللينينية قد « شاخت » ، وانها انتهت بوفاة لينين . ان هذه الموضوعة باطلة لانها تحصر مرحلة في تطور التفكير النظري في تواريخ حياة ووفاة المفكر نفسه . ولكن ليست المواعيد التاريخية المتسلسلة هي التي تشكل المعيار العملي لتقسيم مراحل نشوء الفلسفة الماركسية ـ اللينينية وصيرورتها وتطورها ، بل ان عهوداً تاريخية معينة تنعكس قوانينها الموضوعية في التفكير النظري هي التي تشكل هذا المعيار . وبديهي انه يجب ان يؤخذ بالحسبان في هذه الحال استقلال الفلسفة النسبي ، والمنطق الداخلي لتطورها الذاتي .

ومن وجهة النظر هذه ، تتطابق مرحلة نشوء نظرات ماركس وانجلس الفلسفية ، من حيث الاساس ، مع انتهاء عهد البرجوازية الصاعدة التاريخي في التاريخ العالمي ، ويتطابق وضع وتعميق الاقسام المكونة للماركسية مع عهد الطغمة المالية ومع الانتقال الى المرحلة الاحتكارية من تطور الرأسمالية . اما فيما يخص المرحلة اللينينية في الفلسفة الماركسية ، فانها تفصح عن القوانين والميول الاساسية للعمليات التاريخية ولنضال البروليتاريا الطبقي . في عهدين تاريخيين ـ في عهد الامبريالية وفي العهد التاريخي المعاصر . ومن هنا ينجم عن اللينينية على العموم ، والمرحلة اللينينية في الفلسفة على الخصوص ، هما تطوير خلاق للماركسية في الظروف التاريخية المعاصرة .

الحزبية الشيوعية والموضوعية العلمية للفلسفة الماركسية ـ اللينينية :

ان طابع الفلسفة الماركسية ـ اللينينية الفعال والخلاق والثوري النقاد يتجلى في حزبيتها الشيوعية وموضوعيتها العلمية . فان الفهم المادي الديالكتيكي للعمليات الاجتماعية قد اتاح استيضاح قوانينها وميولها كما اتاح استيضاح تلك القوة الاجتماعية المدعوة الى تحرير المجتمع من العبودية والاستثمار . ان الطبقة العاملة ، بفضل مكانها الموضوعي في انتاج الخيرات المادية ، لا تبرز بوصفها القوة المنتجة الرئيسية

وحسب . فان حاجاتها والمصالح الطبقية تتطابق كذلك مع ضرورة التطور التقدمي الاقتصادي وتزداد تطابقاً بقدر ما يكتسب الانتاج طابعاً اجتماعياً . ومن هنا تنبع مصلحة الطبقة العاملة على الدوام في التقدم الاقتصادي والاجتماعي وينبع تحولها الى القوة الاجتماعية الرئيسية القادرة على تحويل المجتمع . ولهذا كان من الطبيعي ان يكون مؤسسا الماركسية قد وضعا مذهبهما مباشرة في خدمة الطبقة العاملة واخذا قصداً وعمداً وعلى المكشوف جانب الدفاع عن مصالحها ، وان يكونا قد اصبحا ، لا : نظريي الحركة البروليتارية وحسب ، بل أيضا من مناضليها العمليين . ان الماركسية ، بقضائها على الروح الاريستقراطية للفلسفة السابقة التي لم تكن ، على العموم ، الا في منال النخبة المختارة والمتعلمين ، قد برزت للمرة الاولى في التاريخ بوصفها فلسفة الجماهير الكادحة . « وبما ان الفلسفة تجد في البروليتاريا سلاحها المادي ، كذلك تجد البروليتاريا في الفلسفة سلاحاها الروحي . . »(×) .

ان العملية المنسجمة ، والاعتماد الدائب على منجزات العلم وعلى الدراسات والبحوث ، والتحليل ، والتنبوء العلمي والتعليل العلمي لستراتيجية وتكتيك النضال الطبقي ـ ان كل هذا لا يتناقض مع مبدأ الحزبية الكفاحية . ان حزبية الفلسفة الماركسية ـ اللينينية والفلسفة على العموم ليست غير تعبيراً مكثفاً عن وظيفتها الايديولوجية . وهي كذلك بالنسبة للفلسفة الماركسية ـ اللينينية بوصفها الاساس النظري للعقيدة الاشتراكية للطبقة العاملة ، ولهذا ليس عبثاً يتعرض تطابق الحزبية والعلمية في العقيدة الماركسية ـ اللينينة للبروليتاريا لمثل هذه الحملات الضارية من الانتهازيين ومن اعداء الشيوعية . فهم يحاولون ان يعارضوا هذين الجانبين احدهما عن الآخر وان يفصلوا احدهما عن الآخر بشتى الذرائع .

ان مبدأ الحزبية ، مبدأ الدفاع السافر والواعي عن مصالح الطبقة العاملة ، يتعرض لاكبر الحملات من جانب الانتهازيين واعداء الشيوعية . وفي هذا المجال ، يتقدمون بموضوعة مزيفة مفادها ان الحزبية والنزعة الايديولوجية تعنيان الذاتية الطبقية والاعتباط ، ومعارضة مصالح الطبقة العاملة مصالح « الكل »

(×) كارل ماركس . « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل » . المقدمة . ماركس وانجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية . المجلد الاول ، ص ٤٢٨ .

الاجتماعي الموهومة . وهناك بين الانتهازيين واعداء الشيوعية المعاصرين من يزعمون ، على العكس ، ان ما يسمى « بالعلم الصافي » هو لا طبقي ، لا حزبي ، ولهذا فان الفلسفة الماركسية - اللينينية ، انما تدخل في تناقض مع الايديولوجية ، واما تعني خيانتها .

ان مبدأ الحزبين الذي طوره لينين بصورة خاصة يتضمن معنى فلسفياً واسعاً . فهو لا يحدد الموقع في النضال بين الحزبين ، بين الخطين في الفلسفة - المادية والمثالية - وحسب ، ففي كل علم وكل شكل للوعي الاجتماعي ، يتسم بمضمون ملموس خاص . وكل ميل وحيد الجانب نحو العملية « اللاحزبية » او كل فصل للايديولوجية ، للحزبية ، عن العلم ، يؤدي في آخر المطاف الى المثالية والميتافيزياء في العقيدة ، الى الانتهازية اليمينية او اليسارية في السياسة .

وان حدة الصراع الايديولوجي حول اهم خصائص الفلسفة الماركسية - اللينينية ، وكذلك مقتضيات النشاط العملي الثوري المتنامية تؤكد على ضرورة استيعاب النظرية الثورية المعاصرة بصورة عميقة وشاملة . وتبين التجربة انه لا يمكن ان يكون المرء ثورياً واعياً ونشيطاً اذا ابدى اي ازدراء بالنظرية الثورية ، واذا ابدى اقل خمول او اقل اهمال حيال المسائل الفكرية النظرية .

ويجب ان لا تنحصر دراسة الفلسفة الماركسية - اللينينية في مجرد الاطلاع على مفاهيمها الاساسية ، على مبادئها وقوانينها النظرية الاساسية ، فان الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو تعلم اداء المهام التي تبرز في سياق ممارسة الاحزاب الثورية ، تعلم ادائها على اساس المبادىء الفلسفية العلمية . ان امكانية حل المسائل التي تنبثق في جميع مجالات النشاط البشري ، وحلها بمساعدة الفلسفة الماركسية - اللينينية ، انما تظهر بفضل خواص موضوع هذه الفلسفة ووظيفتها . ان القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة وعلاقات الوعي بالعالم الخارجي ومكان ودور الانسان فيه ، ان كل هذا هو موضوع دراسة الفلسفة الماركسية - اللينينية . ثم ان خصائص الموضوع تحدد مضمون الفلسفة الماركسية - اللينينية الجديد ومجمل وظائفها . فان الفلسفة السابقة كانت تتميز ببعض المحدودية ، والعزلة ، والتناقض الداخلي بين مختلف الوظائف في الفلسفة ذاتها . ولكن الفلسفة الماركسية - اللينينية تختلف اختلافاً جذرياً عن سائر المذاهب

الفلسفيـة بامـر آخر ايضاً ، هو ان وظائفها الانتولوجية (الانتولوجيا ـ علم الكائنات وحقيقتهـا) والعـرفانية والعقائدية والمنهاجية والاجتماعية هي في وحدة داخلية تامة . وهذه الوحدة هي التي تشترط اهم خصائص الفلسفة الماركسية ـ اللينينية جميعها ، وتشترط على الاخص اهميتها لا بوصفها منهاجية المعرفة العلمية وحسب ، بل ايضاً بوصفها المنهاجية العلمية المعاصرة للنشاط التحويلي الثوري .



الفصل الثاني

مادية العالم بوصفها مبدأ التعليل العلمي للممارسة

ان الوصف الموجز المعروض في الفصل الاول عن التغيرات التاريخية في الاسس النظرية للعقيدة الثورية لا يقتصر على تصور عام عن الفوارق الجذرية بين المادية الديالكتيكية والتاريخية وبين سائر التيارات الفلسفية. بل بالعكس، فان هذا التصور العام لا يشكل سوى مقدمة لاجل التعمق في دراسة وظائف الفلسفة الماركسية اللينينية، واهم خصائصها، مبادئها، ومقولاتها وقوانينها. فلكل من مبادىء العلم الفلسفي، خلافا لمبادىء العلوم الطبيعية والاجتماعية الخاصة، طابع شمولي كما قيل سابقاً. ان شمولية المبادىء الفلسفية لا تفهم فقط بمعنى انها تشمل جميع ميادين النشاط. فهناك ايضا : هو واقع ان المبادىء الفلسفية التي تعكس شيئا مشتركا في العالم المحيط بالانسان، وتتطلب تطابقا بين اهداف نشاط الناس التحويلي وبين الحركة الطبيعية للعالم الخارجي. وبهذا المعنى يقوم التعليل الفلسفي الاعمق للممارسة الثورية في مبدأ مادية العالم وقوانينه.

مفهوم المادة

ان مفهوم المادة والموقف منها يشكلان المحك والقاسم بالنسبة للتيارات

الفلسفية العديدة، الماضية منها والمعاصرة. فان مختلف التيارات المثالية تعكس او تشوه في آخر المطاف وجود المادة. فان المثاليين الموضوعيين، مثلا، يعتبرون المادة نتيجة لتطور الفكر (افلاطون، هيغل)، او نتيجة لخلق رباني (التومية وسائر الانظمة الفلسفية الدينية). والمثاليون الآخرون، اما ينكرون صراحة وجود المادة (الفيلسوف الانجليزي بركلي)، واما يصورونها بصورة مجمل من الاحساسات البشرية (فلسفة ماخ الوضيعة).

امـا الماديون السابقون لماركس، فقد كانوا يعترفون بالمادة كواقع موضوعي، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يصورونها عن خطأ بصورة اشكال او خصائص مادية ملموسة ما. كان الماديون القدماء يحصرون المادة في اكثر الظاهرات او الاشياء انتشارا، في مجمـل من « العناصر الاولية ». ومنذ زمن ديموكريتس حتى زمن فورباخ ضمنا، كان المـاديون يعتبرون المادة مجملا من دقائق لا تنقسم ولا تتغير (الذرات) وتؤلف جميع الأشياء الموجودة في العالم.

ان التصور السائد في المانية ما قبل الماركسية عن الدقائق التي لا تتغير ولا تنقسم ابـدا والتي تؤلف « المـادة الاولى » وتتحـرك في المكان بموجب قوانين الميكـانيك، كان تصـورا ميتافيزيائيا وميكانيكيا. وفي اللوحة الميكانيكية عن العالم، كانت المادة (الدقائق الاولية التي لا تنقسم) تقابلها وتعارضها اشياء مادية ملمـوسـة، هذا اولا؛ وثانيا، كانت المادة تظهر بصورة الشيء وبصورة خواص الاجسام الكبرى (عدم تغير الكتلة الميكانيكية، الوزن، الكثافة، وما الى ذلك)؛ ثالثا، كان ابدية المادة وعدم خلقها ينجمان بطريقة ميتافيزيائية من عدم التغـير الموهوم للدقائق الاولى المادية الذرات، وعليه كان « التصور عن عدم « تغير الطبيعة المطلق »، على حد قول انجلس، مركز لوحة العالم التي رسمهـا الفـلاسفـة المـاديون علماء الـطبيعـة في ذلـك الزمن. الا ان اللوحة الميتـافيزيائية والميكـانيكية عن العـالم قد دمرها، من الناحية النظرية، وضع المفهـوم المـادي الـدياليكتيكي للمادة، ودمـرتهـا، من النـاحية العملية،

الاكتشافات الاساسية في العلوم الطبيعية على تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين.

التعريف اللينيني للمادة واهميته

خلافا للتصورات السابقة، ابان مؤسسو الفلسفة الماركسية ـ اللينينية، في المقام الاول، مفهوم « المادية » باوسع معاني الكلمة، اي بصورة تشمل الكثرة اللامتناهية من الاشياء والظاهرات والعمليات الموجودة موضوعيا. ومن هنا ينجم ان المادة ليست هذا الشيء او ذاك، هذا الجسم الفيزيائي او ذاك، بل كل تنوع التشكلات المادية الملموسة التي تتغير وتتفاعل.

ان المفهوم المادي الدياليكتيكي للمادة قد جمع التعاليم الفلسفية عن الوجود (الانتولوجيا) والتعاليم عن المعرفة (العرفانية او المعرفية). ثم ان الضرورة التاريخية القاضية بتغيير شكل المادية العلمية الطبيعية، والحاجة في المقام الاول الى تعريف اكثر عمقا وسعة للمادة قد اشتدتا كثيرا بالارتباط مع ازمة الاسس الفلسفية للعلوم الطبيعية ومع نشوء المثالية « الفيزيائية ».

ذلك ان العوامل العلمية الجديدة (إكتشاف اشعة رنتغن، النشاط الاشعاعي وانشطار العناصر الثقيلة من طراز الاورانيوم، واكتشاف الالكترونات الداخلة في قوام الذرة، وتبعية كتلة الالكترون لسرعة حركته) قد دمرت اللوحة الفلسفية والميكانيكية والعلمية الطبيعية السابقة عن العالم. ان الفيزيائيين الذين كانوا يقفون من قبل في مواقف المادية العفوية، العلمية الطبيعية، قد خلصوا الى استنتاج فلسفي خاطىء يزعم ان « المادة قد زالت ». وبرأيهم ان مكان الاساس الاولي المادي للعالم، كما كان من المعتقد سابقا، تشغله الحركة، الطاقة الصافية، لان الانشطار الاشعاعي للاورانيوم، حسب زعمهم يدل على تحول الشيء الى طاقة. ومن هنا نبع على الاثر بالطبع، استنتاج خاطىء آخر بافلاس المادية عموما.

وقـد ابانْ لينين بصورة باهرة في مؤلفه « المادية ومذهب النقد التجريبي » البـطلان العلمي للمثـالية « الفيزيائية » التي رأت النور بالارتباط مع فلسفة مذهب النقد التجريبي ومع التحريفية الفلسفية في صفوف الماركسيين. فان لينـين، بدفاعه في كتابه هذا عن الموضوعات الاساسية للمادية الدياليكتيكية والتـاريخية، وبتـطويره اياهـا، لم يكشف الصلة المتبادلة بين الفلسفة والعلوم الـطبيعية في القـرن العشرين وآفـاقهـا وحسب، بل كشف كذلـك الاهمية المتعاظمة للاسس النظرية للعقيدة الثورية.

وكما تنبأ لينين، لا يمكن التغلب على المثالية « الفيزيائية » والازمة في تطور العلوم الـطبيعية الا بفضـل المفهـوم المـادي الدياليكتيكي عن العالم، الذي يشكل المفهوم الماركسي عن المادة نقطة انطلاقه. وبالفعل كشف العلم وسوف يكشف خواص العالم المادي واشكاله وقوانينه غير المعروفة سابقا، ولكن التي لا تبرر ابـدا الاستنتـاج الخاطىء القائل « بزوال المادة ». وبرأي لينين ان هذا الاستنتاج لا يعني غير زوال الحد التاريخي لمعارفنا الذي سيمضي دائما الى اعمق فأعمق مغيرا تصوراتنا عن بعض خواص المادة التي كانت تبدو من قبل مغلقة، ثابتة غير متغيرة، ولكنها في الواقع ملازمة فقط لبعض حالات المادة او لبعض التشكـلات المـادية. وليس بمقـدور اي معطيات علمية عديدة ان تدحض المادية الدياليكتيكية لان « الخاصة » الوحيدة للمادة التي ترتبط المادية الفلسفية بالاعتراف بها هي خاصة كونها دافعا موضوعيا، خاصة وجودها خارج وعينا[١]. وهذا الفهم الفلسفي للمادة لا يمكنه ان يشيخ، بل بالعكس، يؤكد صحته على الدوام تزايد عمق المعارف العلمية عن مختلف انواع وخواص المادة، عن هذه او تلك من الاجسـام الفيزيائية الملمـوسة، عن هذه او تلك من بنيات التشكلات المادية.

---

(١) لينين. المادية والمذهب النقدي التجريبي. المؤلفات. الطبعة الرابعة. المجلد ١٤. ص٢٤٧

وفضلا عن ذلك، اكدت العلوم الطبيعية في القرن العشرين نبؤة لينين الفلسفية بصدد استحالة نضوب المادة عمقا، بصدد استحالة نضوب الالكترون. فان لانهائية المادة واستحالة نضوب اشكالها تؤكدهما الفيزياء المعاصرة باكتشاف واستخدام عدد متزايد ابدا من الدقائق الاولية. (والاصح القول ـ الاساسية) للمادة، ومن حالاتها وتفاعلاتها المتبادلة، وتحولات بعضها الى بعض، فيكتشف بالتالي الدياليكتيك الموضوعي للعالم الصغير، هذا الدياليكتيك المتميز بوحدة الخواص الجسيمية والموجية. فقد تبين، مثلا، ان الخواص الجسيمية تهيمن في بعض حالات ونماذج التفاعلات المتبادلة في التشكلات المادية الاولية، بينما تهيمن الخواص الموجية في بعضها الآخر. ان دراسة فيزياء العالم المتغير على الارض تساعد كذلك في توضيح طبيعة المواضيع الكونية التي لا تزال صعبة البلوغ (الكواكب، النجوم، المجرات). وفي المستوى الراهن من المعارف، تميز العلوم الطبيعية ثلاثة انواع من المادة : الجسيمات، (دقائق المادة)، مضادات الدقائق (ولها خواص تضاد خواص الدقائق الارضية الطبيعية)، ومختلف الحقول الفيزيائية (الذرة، الكهرمغناطيس، الجاذبي، الخ).

ان تطورات العلوم الطبيعية المعاصرة عن انواع وخواص المادة تؤكد بشكل مقنع صحة التعريف الذي اعطاه لينين عن المادة : « المادة مقولة فلسفية لاجل تعيين واقع موضوعي يعطي للانسان في احساساته، وتستنسخه احساساتنا وتصوره وتعكسه، مع وجوده بصورة مستقلة عنها »[1]. ان هذا التعريف يربط بصورة لا انفصام لعراها، اولا، مكان المادة بوصفها جوهر (جذر) العالم الخارجي بالنسبة للانسان، وثانيا العلاقة بين المادة وادراك الناس. ان المادة بوصفها جوهراً (جذرا) تفهم بمعنى انها بالنسبة لجميع الاشكال المادية المتنوعة وحدتها العامة، المشتركة؛ والمادة هي في الوقت نفسه

---

(١) المرجع ذاته. ص١١٧.

حاملة الخواص الملموسة والعلاقات المادية، هي اساسها. مثلا، التركيبات الكيماوية المعقدة ـ الحوامض النوكليينية ـ الموجودة في الخلية الحية هي الحامل المادي لخواص الوراثة في العضويات الحية. اما في الحياة الاجتماعية، فان الناس، الفئات (او الشرائح) الاجتماعية، الطبقات، هي الحاملات الماديات لهذه او تلك من الظاهرات الاجتماعية (مثلا، اصناف الانتاج الاقتصادي). وعليه كانت المادة ذلك الامر المشترك الذي يشكل اساس ووحدة جميع الاجسام والظاهرات والعلاقات والعمليات الموجودة بصورة مستقلة عن الادراك البشري.

ان مفهوم الواقع الموضوعي في التعريف اللينيني للمادة يشمل جميع اشكال وجود المادة وجميع خواصها، والعلاقات والعمليات المادية، وهو يستعمل في المقام الاول بالمعنى العرفاني. وهنا يشار الى اولية المادة واستقلالها عن الادراك، وقدرتها على التأثير في اعضاء الحواس وعلى الانعكاس في احساسات الانسان. ان هذا التعريف يناهض المثالية الذاتية والموضوعية التي تشوه دور الاحساسات البشرية ومضمونها الفعلي، تشوه العالم الذاتي، الروحي ومضمونه الفعلي. وفضلا عن ذلك يناهض هذا التعريف، بافصاحه عن فكرة القدرة على معرفة المادة، ايا من انواع العجزية (اللادرية ـ التيارات الفلسفية التي تنكر او تقلص امكانيات المعرفة البشرية).

ايجازا لما قلناه، تجدر الاشارة الى الاهمية الهائلة التي يتسم بها المفهوم المادي الدياليكتيكي عن العالم لاجل تطوير التفكير النظري ولاجل نشاط الناس التحويلي الثوري اولا، ان هذا المفهوم قد طهر المادية الفلسفية من الميكانيكية والميتافيزياء، واضفى عليها شكلا عصريا مناسبا للمستوى الذي بلغته المعرفة العلمية والممارسة الاجتماعية التاريخية. ثانيا، اسهم في تذليل المثالية « الفيزيائية »، وفي خروج العلوم من الازمة العقائدية والمنهجية، وفي توطيد الاتحاد بين الفلسفة والعلم، وكشف اتجاه البحوث وآفاق تعميق المعرفة العلمية، ثالثا، ان ما هو هام بخاصة، هو ان المفهوم المادي الدياليكتيكي عن

العالم قد اتاح كشف مادية اشكال الحياة الاجتماعية ونشاط الناس، كشف الاسس المادية لادراكهم.

ان تعبير « المادي » لا يطبق على العالم الطبيعي الخارجي بكليته وحسب، بل يطبق ايضا على الاجسام المادية الملموسة، وخواصها وعملياتها التي توجد خارج ادراك الناس وبصورة مستقلة عنه. وبهذا المعنى على وجه الضبط، يمكن التحدث عن مادية تلك الظاهرات والعلاقات والعمليات الاجتماعية التي تتكون وتوجد بصورة مستقلة عن ادراك الناس. ان شبه وفرق المادي في الطبيعة والمجتمع قد خلقا امكانية اعطاء تفسير علمي عن حاجات الناس واهدافهم ونتائج نشاطهم الواعي. وهذا التفسير يصاغ بقدر دراسة اعم خواص واشكال وجود المادة، والقوانين الموضوعية لحركتها.

الخواص والاشكال العام لوجود المادة

ان المادة، ـ علاوة على خاصتها الشمولية بان تكون واقعا نشيطا بالنسبة للادراك ـ تملك جملة من الخواص الجذرية الاخرى الملازمة لجميع الاشياء والظاهرات المادية. وبينها تجدر الاشارة، في المقام الاول، الى خواص واشكال لوجود المادة يستحيل، بدون تصورها الابتدائي، الاولي، الفهم العلمي والتعليل العلمي للنشاط التحويلي الثوري، اي على وجه الضبط، فهم الصلة والعلاقة والحركة والتطور، والقانون الموضوعي والضرورة.

الصلة المتبادلة بوصفها شكل الوجود. بين جميع الاشياء والظاهرات الموجودة او بين جوانبها الداخلية، توجد دائما هذه العلاقات او تلك. ان مفهوم العلاقة يطبق في المعرفة وفي الممارسة، اما لاجل تعريف تفرد، انفراد، عزلة هذه الظاهرات او تلك، واما لاجل تعريف درجة الصلة فيما بينها. فان العالم المادي اللامتناهي يتألف من كثرة لا متناهية من تشكلات واجسام وعمليات مادية نهائية هي، مع وجودها كفلاديات، على هذه العلاقة او تلك من الاجسام

والعمليات الاخرى. وفي العلاقات بين الاشياء يتكشف، يتجلى اساسها الداخل العميق (الكون، الطبيعة)، وصفاتها وخواصها الملموسة

كذلك تفهم بالصلة علاقة يتوقف تغير احد الاشياء او تغير جوانبه على تغيرات الاشياء الاخرى. وقد لاحظ انجلس في مؤلفه « دياليكتيك الطبيعة » ان الصلة المتبادلة بين مختلف حركات مختلف الاجسام هي اول ما تقع عليه العين عند النظر الى المادة المتحركة. ان الوحدة المادية لجميع الاشياء والعمليات الموجودة بوصفها حلقات واشكال وخواص مادة واحدة هي اساس الصلة المتبادلة. وبهذا المعنى كانت الصلة المتبادلة الشكل العام لوجود المادة المتحركة.

ان مفهوم الصلة المتبادلة الموضوعية قد تكون تاريخيا بوصفه واحدا من اوسع تعميمات نتائج المعرفة العلمية والممارسة الاجتماعية. وفيه يتكشف النشاط الداخلي الملازم للمادة، وقدرة التشكلات المادية واقسامها المكونة على التفاعل فيما بينها، الامر الذي يؤدي بالضرورة الى احداث تغييرات فيها. وفي الطبيعة تتحقق الصلة المتبادلة بالتفاعل بين الاجسام الفيزيائية (الطبيعية)، بالتطور من المادة غير العضوية الى المادة العضوية، بنشوء العضويات الحية، بالتفاعل فيما بينها وبالتفاعل بينها وبين اجسام الطبيعة الحية، بتغيرات العضويات الحية تبعا لبيئة اقامتها. وفي الحياة الاجتماعية، تتجلى الصلة المتبادلة الموضوعية قبل كل شيء في تعاقب تطور الانتاج الفعلي. وهي تتجلى كذلك في كون جميع جوانب حياة المجتمع، بوصفه عضوية اجتماعية معقدة واحدة، تتفاعل فيما بينها. مثلا، توجد صلات وعلاقات متنوعة العمليات الاقتصادية والسياسية، بين الظاهرات السياسية والايديولوجية، بين ثقافة المجتمع المادية وثقافته الروحية، بين مختلف اشكال الايديولوجية، والخ . .

في سياق التطور التاريخي، تتكون صلات وعلاقات اجتماعية جديدة. ففي عصرنا، مثلا، انبثقت اشكال جديدة للصلة كالعلاقة بين النظام الاشتراكي العالمي والنظام الرأسمالي العالمي، وكالعلاقات في داخل النظام الاشتراكي

العالمي والعلاقات مع البلدان الجديدة التي ظفرت باستقلالها السياسي بنتيجة انهيار نظام الامبريالية الاستعماري.

ان الصلة المتبادلة الموضوعية لا توجد في الطبيعة والمجتمع وحسب، بل توجد ايضا في التفكير. وبما ان احساسات الناس ومفاهيمهم، مثلها مثلا الاشياء والظاهرات التي هي انعكاس لها، توجد على صلة متبادلة، فلا يمكن ولا يجوز اخذ بعضها بمعزل عن بعض. ان الدياليكتيك، كما اشار انجلس في مؤلفه « ضد دوهرينغ » يأخذ الاشياء وانعكاسها الفكري في صلتها المتبادلة، في تشابكها، في حركتها، في نشوئها وزوالها. وفضلا عن ذلك، يجب ان تتطابق المفاهيم العلمية والسياسية والنظرية مع الظاهرات الفعلية ومع العمليات الاجتماعية الفعلية، وان تعكس مضمونها الموضوعي، ومن جهة اخرى، يتطلب تغير الاشياء والظاهرات وعلاقاتها تغيير وتدقيق مضمون المفاهيم.

خلافا للمفهوم العلمي، المادي، عن الصلة المتبادلة في العالم المحيط بنا، تعتبر المثالية والدين الصلة بين الاشياء والظاهرات تعبيرا عن علاقتها العامة مع قوة مثالية، مع العالم الآخر، مع الفكر العالمي، مع العقل العالمي، مع الرب. هكذا بالضبط يفهم الفلاسفة الكاثوليك الصلة المتبادلة، ويرون اساسها في « العقل الرباني العالمي » الواحد الذي يفرض، حسب زعمهم، « التناسق العام ». ان هذا الضرب من التصورات المثالية الدينية، القديمة والعصرية، تشوه المفهوم العملي عن الصلة المتبادلة بوصفها الشكل العام للوجود.

وبفضل التحليل العلمي، يمكن ان تنقسم الصلات الفعلية، من حيث طبعها وعمقها ودرجة وحدتها وتعقدها، الى اقسام. وهنا تجب مراعاة عاملين عاملين. اولا، ان لكل نوع من الصلات المتبادلة حاملا ماديا ملموسا، بمستويات بنيوية معينة للمادة، مثلا، الذرات والهيئات او الخلايا والعضوية، حسب الصلات والعلاقات الكيماوية والبيولوجية. ان فصل الصلات الفعلية

عن حامـلاتهـا المـادية يعيق المعـرفـة العلمية للبنيات المادية، ويؤدي في آخر المـطاف الى المثـالية. ان الصـلات تتسم على الـدوام بطابع تاريخي ملموس ومتعدد الجوانب، فتظهر اما كعلاقات بين الاشياء، واما كعلاقات بين الاشياء وخواصها، واما، اخيرا، كعلاقات بين خواص الاشياء والظاهرات الطبيعية والاجتماعية. ثانيا، ان الصلة المتبادلة بين اشياء وظاهرات العالم المادي تشكل المقدمة ونقطة الانطلاق لفهم الحركة التطور.

الحـركـة كاسلوب لوجود المادة. ان الصلة المتبادلة، اذ تحدد الخصائص البنيوية لاي تشكـل مادي كان ولـوجـوده بالذات، تؤدي بالضرورة الى تغير متبادل في العناصر البنيوية لهذا الشكل، الى حركته. ان تشابك تفاعلات لا عد لها بين الاشياء والـظاهرات الفعلية ككل يشترط العملية العالمية الواحدة للحركة والتطور.

وقد كتب انجلس يقول ان « كل الطبيعة التي في منالنا تشكل نظاما ما، صلة اجمـالية ما بين الاجسـام، علما باننا نفهم هنا بكلمة الجسم كل الواقع المادي . . . وفي واقع ان هذه الاجسام هي على صلة متبادلة، يقوم واقع انها تؤثر بعضها في بعض، وهذا الفعل المتبادل بين بعضها بعضا هو بالضبط الحركة »[1].

وبفضل التفاعل والتشارط في العالم المحيط بنا، يتغير كل شيء وينتقل من حالة الى اخرى، رغم ان هذه التغيرات التي لا عد لها مختلفة من حيث طابعها وانجاحها. بعضها يفصح عن الانتقال من البسيط الى المعقد، من الادنى الى الاعلى، ويبرز كحركة في خط صاعد، كحركة تدريجية الى الامام. وبعضها الآخر، على العكس، يؤدي الى تبسيط وتفسخ الاشياء المادية المعقدة، ويمثل حركة هابطة، الى الوراء.

---

(١) انجلس. ضد دوهرينغ. ماركس وانجلس. المؤلفات . الطبعة الروسية. المجلد ٢ ص٣٩٢.

احياناً كثيرة، يستعملون مفهومي «الحركة» و «التطور» بالمعنى ذاته وبالفعل، يتضمن هذان المفهومان كثرة كثيرة من العناصر المشتركة. ومع ذلك، لا يتطابق مفهوم « الحركة » مع مفهوم « التطور »، وذلك، قبل كل شيء، من حيث الحجم؛ فهو اوسع بكثير. فبالحركة يفهم التغير على العموم، بصرف النظر عن الطابع والاتجاه والنتيجة. فالحركة تشمل ايا من التغيرات في التشكلات المادية وايا من تحولات بعضها الى بعض، وهي بهذا المعنى عامة ومطلقة وابدية، غير مخلوقة، وغير قابلة للزوال.

وبقصد المعرفة العلمية، تجمع تغيرات وتحولات المواضيع المادية التي لا عد لها في بعض الاشكال الاساسية كحركة المادة. اما اساس تقسيم انواع الحركة المادية، فهو مستويات بنيوية معينة للمادة وانواع من التفاعل فاعلة في هذه المستويات. ففي الطبيعة غير الحية، مثلا، تنبثق في المستوى البنيوي للدقائق الاولية والحقول الفيزيائية وفي مستوى الذرات اشكال فيزيائية مختلفة للحركة (داخل الذرة، الشكل الكهرمغناطيسي، الشكل الحراري)، وفي مستوى الجزيئات الداخلة في قوام مختلف الاشياء، تنبثق تغيرات كيماوية، وفي المستوى البنيوي لجزيئات الشيء الحي، والخلية والعضويات المتعددة الخلايا، تحدث تغيرات وتحولات بيولوجية، واخيرا، في مستوى مختلف الوحدات والبنيات الاجتماعية تحدث تغيرات متعددة متنوعة في المجتمع. وفضلا عن ذلك، تختلط جميع الاجسام الفيزيائية في المكان مشكلة الشكل الميكانيكي لحركة المادة.

ان كلا من اشكال حركة المادة يرتبط باشكال اخرى، ويملك في الوقت نفسه خواص تلازمه هو وحده. وان الانتقال من بعض المستويات البنيوية الى غيرها (اتحاد الدقائق الاولية في ذرات، والذرات في جزيئات) يشترط انتقال شكل للحركة الى آخر. وهذا يعني انه يقوم في اساس المادة ذاته المقدمات لاجل ظهور اشكال للحركة اعقد واعلى. وهذه الصلة التوالدية تتيح توضيح العلاقة الدياليكتيكية بين الاشكال العليا والاشكال الدنيا لحركة المادة. فان

شكلا اعلى للحركة، مثلا الشكل البيولوجي، يتضمن، في صورته المحولة، الاشكال الدنيا، وفي الحالة المعنية هنا، الشكلين الفيزيائي والكيماوي لحركة المادة. ان البنيات الفيزيائية الكيماوية في العمليات البيولوجية تظهر بوصفها حاملة مادية للخواص والعمليات البيولوجية. ولكنه من الخطأ الفادح حصر خصائص وظواهر الظاهرات البيولوجية في الشكل الفيزيائي او الكيماوي او الميكانيكي للحركة.

وعليه يحتوي الفهم الديالكتيكي للعلاقات المتبادلة بين اشكال حركة المادة على تصور الصلة المتابدلة بين هذه الاشكال، ويشير في الوقت نفسه الى استحالة حصر الاشكال العليا في الاشكال الدنيا. ان هذا الفهم يتيح دحض مختلف ضروب الاختلافات الميتافيزيائية والمثالية، المتعلقة باشكال حركة المادة. ان المفاهيم المثالية تعارض، اكثر ما تعارض، الاشكال العليا بالاشكال الدنيا، علما بانها تضفي صفة الاطلاق على خصائص الاشكال العليا للحركة. وعلى هذا النحو، يفسر التغير الاجتماعي، مثلا، على الاغلب، بتغيرات وعي الناس وذهنيتهم ونفسيتهم، وبفكر الشرطية المادية للحركة الاجتماعية. ومن جهة اخرى تظهر انواع من الميكانيكية المعاصرة التي تحاول ان نستخلص الاشكال العليا للحركة من الاشكال الدنيا مباشرة، معتبرة، مثلا التفكير والعمليات الاعلامية في الآلات الحاسبة الالكترونية شيئا واحدا. وفي بعض مناطق العالم، لاتزال توجد انواع من الداروينية للاجتماعية تحصر الكنه الاجتماعي للانسان وللحركة الاجتماعية في الخواص والظاهرات البيولوجية، انه دحض هذا الضرب من النظرات المثالية والميكانيكية يرتكز على تبيان الصلة المتبادلة بين اشكال حركة المادة، على تبيان الدرجات التاريخية لتطور الطبيعة والمجتمع.

الحركة والتطور. ان التطور ـ خلافا للحركة بوصفها تغيرا على العموم، يشمل لحظة الدوامة وكذلك التوازن الديناميكي (السكون) ـ هو، قبل كل شيء حركة في اتجاه معين، ولاسيما في خط صاعد. ان التطور هو بهذا المعنى

عملية تسير، كقاعدة، من البسيط الى المعقد، من الادنى الى الاعلى، محققة الميول الداخلية للتغير الجذري في طبيعة الاشياء والظاهرات. ومن هنا ينجم ان التطور يلازمه التدرج، يلازمه تعاقب معين، تلازمه لحظات من التكرار، يلازمه انكار القديم وظهور الجديد. ولكن يجب ان نلاحظ ان التطور التدريجي لا يمكن ان يكون، من حيث اتجاهه، الا تطورا صاعدا، ولا يمكنه ان يكون تطورا نازلا.

ان عمليات التطور تحقق في ظروف معينة، تختلف بالنسبة للمادة غير العضوية، والطبيعة الحية، والمجتمع. وفي كل من مجالات العالم المادي هذه، يكتسب التطور خصائصه بحكم خصائص المواضيع المادية المعنية.

فان التطور في الطبيعة غير العضوية يظهر بمظهر تحول للمواضيع المادية يتصف بصورة رئيسية، بازدياد تعقد صلاتها، وكذلك بالانتقال الى مستويات جديدة لتنظيم الحركة واشكال الحركة. وفي الطبيعة الحية، يتجلى التطور في تكامل البنية البيوكيماوية ووظائف العضويات الحية الكاملة. ان استمرار عمليات التبادل، ـ التجديد الذاتي والانتاج الذاتي للاجسام الحية ـ يتيح هنا استعمال تعبير « التطور التقدمي ». فان خط تقدم العالم العضوي يسير من ابسط مستويات تنظيم الحي الى الخلية، الى ظهور العضويات النباتية والحيوانية، ومن ثم الى العضويات الشبيهة بالانسان والى الانسان.

وبديهي ان ليست جميع التغيرات التكيفية تتطابق مع الميل السائد، التقدمي. صحيح ان العالم العضوي نسبي، ولكنه يمكننا من ذلك ان نعتبر ان الخط الاساسي لتطور الطبيعة الحية التقدمي يتجه وجهة التنظيم الاعلى للمادة، ـ وجهة الانسان. وهذا الخط يتصف قبل كل شيء بتطور نشاط الحيوانات العصبي الاعلى وبتكامل اساليب عكس العالم الخارجي.

ان اخصام المادية الديالكتيكية يحاولون دحض واقع ظهور الطبيعة الحية. فان ايديولوجي القومية الجديدة المشهور فيتر، مثلا، يرى انه لايمكن ان يكون ثمة معيار لتطور الطبيعة الحية، لانها من عند الرب. ولكن تاريخ العالم النباتي

والحيواني هو كله برهان على ضرورة عمليات الصعود من الادنى الى الاعلى، على اضمحلال الاشكال والانواع العضوية القديمة وظهور اشكال وانواع عضوية جديدة ارقى.

ان التطور التقدمي يتجلى بسطوع خاص في حياة المجتمع. ان درجة سيادة البشرية على القوى العضوية للطبيعة وعلى علاقاتها الاجتماعية بالذات وعلى مستوى التطور المتناسق للفرد، المستوى المرتبط بذلك، هي المعيار الاساسي والتاريخي الملموس للتقدم الاجتماعي. وقد اعتبر لينين ان المعيار الاعلى للتقدم في المجتمع هو تطور القوى المنتجة الذي يحدد في آخر المطاف، من خلال علاقات الانتاج بين الناس، جميع الجوانب الاخرى في الحياة الاجتماعية. وان تعاظم دور الثورة العلمية التكنيكية الاجتماعي هو برهان ساطع على صحة هذه الموضوعة في ايامنا. فان نتائج هذه الثورة تتركز في تغيرات جذرية تطرأ على موضوع العمل وعلى مصادر الطاقة وعلى التكنيك والتكنولوجيا، وعلى ادارة الانتاج (الانتقال الى نظام من الآلات يدير نفسه بنفسه)، وعلى مكان ودور الافراد، العناصر البشرية من القوى المنتجة. وهكذا يؤكد العلم المعاصر والممارسة الاجتماعية التاريخية واقع التطور، واقع التغيرات التدريجية الجذرية في الطبيعة وفي المجتمع على السواء، في حين تتيح المفاهيم الفلسفية عن الحركة والتطور معرفة السبيل الصحيح في هذه العمليات.

ان التصور عن العلاقة بين الحركة والتطور يكون ناقصا بدون الجواب عن مسألة ما اذا كان تشكل مادي ملموس يتطور ام لا. ذلك ان القدرة على التطور تلازم جميع المواد وكل تشكل مادي، ولكنها لا تتجلى الا في ظروف مناسبة. ففي بعض التشكلات المادية، يهيمن التوازن الديناميكي في مرحلة معينة، بينما تتصف تشكلات اخرى بحركات حسب دائرة او بتغيرات رجعية. ولكن القدرة على التطور هي مشتركة بين جميع التشكلات المادية، وتتجلى كميل سائد في الظروف الملائمة لاجل تجليها. وفي عداد هذه الظروف المشتركة للتطور تضطلع بدور هام اشكال لوجود المادة كالمكان والزمان،

وخواص كالبنيوية والعكس.

المكان والزمان بوصفهما شكلين لوجود المادة. ان جميع الاشياء والظاهرات المـادية المتحركة تقوم بينها صلات وعلاقات مكانية. ففي العلاقات المكانية تتجلى مقـاييس الاجسـام، احجـامهـا. امتـدادهـا (بنيتهـا). ان مفهوم « المكان » يصف امتداد التشكلات المادية، وضعها المتبادل، تعايشها. ولكل مادي ناجـز تاريخ لنشـوئه وتطوره وزواله وتحوله الى ظاهرات مادية اخرى. ومفهـوم « الـزمـان يصف مدة وجـود الـظاهـرات المادية، وتبدل حالة هذه الظاهرات، واتجاه تحول لها.

ان العلاقات المكانية والزمنية التي تكون وتوجد بصورة مستقلة عن الوعي، هي اشكـال موضـوعية لوجـود مختلف الاشياء المادية ولوجود المادة بكليتها. وخـلافـا للماديين الـذين ينكـرون على العمـوم موضـوعية المكـان والزمان، واستقلالهما عن الوعي، وخلافا للميتافيزيائيين الذين يفصلون اشكال الوجود المكـانية الـزمنية عن مضمـونها المادي، تكشف الفلسفة الماركسية ـ اللينينية مطلقية ونسبية المكان والزمان. فان المكان والزمان مطلقان بمعنى انهما شكلان عامـان وضروريان لحركـة المادة. اما النسبية، فان المقصود بها تبعية خواص المكان والزمان الملموسة، تبعية بنيتهما الداخلية لطابع الحركة المادية، لانواع وحالات المادة المتحركة.

وفقـا لمعطيات العلم (بما فيها نظرية النسبية لاينشتاين)، تشير الفلسفة المـاركسية ـ اللينينية الى الصلة التي لا تنفصم عراهـا بين علاقـات المكـان والزمان، وبينهما وبين الحامل المادي الملموس لهذه العلاقات. ومن هنا ينجم ان المـواصفـات المكـانية الـزمنية تتغير بصورة ملحوظة في مختلف المستويات البنيوية لحركـة المـادة، في مختلف اقسام الفضاء الكوني، باختلاف سرعات الحـركـة. ففيما يتعلق بالمجتمع، يمكن القول ان تغيرات الزمان الاجتماعي (تاريخه) تحدث على صلة وثيقة لا انفصام لعراها بالمكان الاجتماعي (بابعاد وعمق السنـة الطبيعة الارضية). ولكن تغيرات العلاقات المكانية ـ الزمانية

والتصورات البشرية عنها لا تدحض كون الطبيعة والمجتمع والانسان موجودة في المكان والزمان. فلا شيء في العالم، باستثناء المادة المتحركة، والمادة المتحركة لا يسعها ان تتحرك الا في المكان وفي الزمان . . . ان « تربيتنا ومعرفتنا تتكفيان اكثر فاكثر للمكان الموضوعي والزمان الموضوعي ، عاكسة اياهما باكثر فاكثر من الضمنحة والعمق » .

سندرس في الفصل التالي خاصة العكس الشمولية. ولكن التصور عن اعم خواص واشكال وجود المادة يجيب الآن عن السؤال الذي شغل على الدوام علوم الطبيعة والفلسفة : - فيم تقوم وحدة العالم الفعلية ؟ ان المحاولات التي قامت بها المثالية خلال قرون وقرون لايجاد مبدأ واحد لكل ما هو موجود قد اقتصرت في آخر المطاف على هذا الشكل او ذاك للاساس الروحي (الخلق الرباني، الفكرة المطلقة، المفهوم الواحد، وما الى ذلك)، اما في الواقع، فان كل تنوع وتعدد الاشياء والظاهرات والعمليات الموجودة انما توحده خاصة شمولية، هي خاصة المادية. ومن هنا ينجم ان وحدة العالم الفعلية تقوم في ماديته، في وجود موضوعي، مستقل عن الادراك، يتكشف في تطور المادة المتحركة الضروري.

قوانين العالم المادي ونشاط الناس

ان توضيح موضوعية المادية والحركة والمكان والزمان يتيح الانتقال الى دراسة الصلات الداخلية فيما بينها بمزيد من العمق. فقد اشرنا سابقا الى ان العلم المعاصر قد اثبت تبعية سير الزمن في التشكلات المادية، وتبعية مدة العمليات لوتيرة الحركة، للسرعة : فبقدر ما تزداد السرعة، بقدر ما يتباطأ سير الزمن. وفضلا عن ذلك، يتوقف امتداد الاجسام المكاني على ازدياد السرعة (يقل طولها). اضف الى هذا ان خواص المكان تتغير تبعا لبنية الاجسام المادية المتحركة وتبعا لحقول الجاذبية التي نخلقها. ان هذا الضرب من التبعية الملازمة

لكل التشكلات المادية هو الزامي، قانوني، محتم، رغم كل ما يبدو فيه من تناقض.

مضمون مفهوم القانون. ان مفهوم « القانون » الفلسفي قد عرّفه لينين بانه « احدى درجات معرفة الانسان للوحدة والصلة والتبعية المتبادلة وكمال العملية العالمية »[1]. ان القانون يعرب عن صلات العالم الفعلي الضروري، الجوهرية، الثابتة نسبيا، والمتكررة، التي تحدد طابع واتجاه ونتيجة التطور في حال توفر الظروف المناسبة. ان مفهوم القانون يعكس الصلات والعمليات الموضوعية للطبيعة والمجتمع في تفكير الانسان.

في معرض دراسة مفهوم القانون، تنبغي الاشارة قبل كل شيء الى ان المادية الديالكتيكية تميزه عن مفهوم القانونية (الطبيعية). لاريب ان القانون والقانونية مفهومان من طراز واحد، من نموذج واحد، لانهما يعكسان الصلات الداخلية، الجوهرية لتطور الواقع وطابع تطور الواقع. ولكن القانون يظهر كجانب معين من القانونية، بينما تظهر الضرورة كنتيجة اجمالية لفعل قوانين ميدان معين من الظاهرات او لفعل قوانين العالم. ان القانونية بوصفها مفهوما شموليا تعكس الضروري المشروط باسباب معينة للعملية، الذي تفعل فيه مجموعة كاملة من القوانين. وقد اشار لينين في « الدفاتر الماركسية » الى ان مفاهيم القانون « تشمل بصورة اصطلاحية، تقريبية، الضرورة الشمولية للطبيعة المتحركة المتطورة »[2]. ان القانون، كما قال انجلس، هو شكل الوحدة الكلية في الطبيعة. وهو يشمل العام، المشترك، المتشابه، المتماثل الملازم لمجموعة من الاشياء والظاهرات، ويعرب عن وحدة تنوع وتعدد الظاهرات. وفي اطار كل شكل من اشكال حركة المادة، توجد قوانين اعم وقوانين اقل تعميما. مثلا، في الشكل الاجتماعي لتحرك المادة، تفعل بعض القوانين فعلها

---

(1) لينين. «الدفاتر الفلسفية». المؤلفات. الطبعة الرابعة. المجلد ٣٨، ص١٤٠

(2) المرجع نفسه. ص١٧٣

في جميع درجات العملية التاريخية، رغم انها تتجلى في شكل يختلف بالنسبة لكل من هذه الدرجات. فان قانون القيمة الزائدة الاقتصادي لا يلزم الا الرأسمالية، وهو يفعل فعله من حيث حجمه، كقانون جزئي بالنسبة للمجتمع بأسره.

وفي معرض الكلام عن درجة تعميمية القوانين، تجدر الأشارة الى النسبية المعروفة في التفريق بين القوانين العامة والقوانين الخاصة. مثلا، القوانين العامة للطبيعة تفعل فعلها كقوانين خاصة بالنسبة لاعم قوانين العالم المادي الروحي كله - اي بالنسبة لقوانين الدياليكتيك الاساسية. وفي الوقت نفسه، نرى ان قانونا جزئيا لاجل الطبيعة كلها - قانون توارث العلائم البيولوجية - هو قانون عام بالنسبة لكل العالم الحيواني والنباتي.

ان علامة القانون الجوهرية تقوم في كونه يشمل الصلات الضرورية للاشياء والظاهرات. ان الضرورة بوصفها اهم سمة من سمات القانون تعني حتمية، الزامية فعله في حال توفر الظروف المناسبة. ان تجدد انتاج ظروف معينة في سياق التطور، تكرر صلات ثابتة، دائمة نسبيا هو الاساس الموضوعي الذي تتأمن بفضله الزامية فعل القانون ونتيجته الضرورية. مثلا، من طبيعة المجتمعات التناحرية ومن ظروفها الموضوعية، ومن التفاعل الالزامي بين المستثمرين والمستثمرين، ينبع حتما فعل قانون النضال الطبقي. ان النضال الطبقي هو قانون يفعل فعله بصورة موضوعية من قوانين تطور هذه المجتمعات، مهما حاول الايديولوجيون البرجوازيون، والاصلاحيون، والمحرفون انكار ذلك.

ان القانون لا يعكس الصلات العامة والضرورية وحسب، بل يعكس كذلك الصلات الجوهرية اي التي تنبع من االطبيعة الداخلية للمواضيع المادية، من جوهرها، والتي يستحيل بدونها وجود الاشياء المعنية، وهذه الصلات على وجه الضبط هي التي تدخل في مضمون مفهوم القانون. ولهذا كان « القانون » و « الجوهر » من حيث المضمون مفهومان من طراز واحد،

لان الجوهر هو اساس الاشياء الداخلي. ان الفرق بينهما في كون القانون لا يشمل كل مضمون الجوهر وبالاحرى كل تنوع وتعدد الاشكال الخارجية لتجليه. ولكن القانون يعكس الحركة الضرورية للجوهر، والعلاقة الضرورية بينها.

ان القانون افقر من الظاهرة، ولكنه يكشف جوهر العمليات الداخلي بصورة اعمق مما تكشفها الظاهرة. وقد اشار لينين الى ان كل قانون ضيق، غير كامل، تقريبي، وان الظاهرة اغنى من القانون. ان ضيق القانون، نقصه، تقريبيته، انما يحدده كونه يفرز من كل تنوع وتعدد الواحد والخاص الذي يبرز في الظاهرات الشيء المشترك الاهم.

من علائم القانون الهامة، ثبات العلاقات التي يعرب عنها، ثباتها النسبي، دراسها النسبي. ان ثبات دوام العلاقات التي تصف القانون تتجلى في التكرارية في حال توفر الظروف المناسبة. ان تكرارية فعل القوانين هي كذلك علاقتها الضرورية وهي ملازمة للقوانين الموضوعية لتطور الطبيعة والمجتمع على السواء.

ولكن المفهوم المادي الدياليكتيكي عن القانون يتطلب التمييز بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. ان هذين النوعين من القوانين يتسمان بامر مشترك هو انها تفعل فعلها بصورة مستقلة عن معارفنا عنها، بصورة مستقلة عما اذا كانت نتيجة تجليها مضرة او مفيدة للانسان في اللحظة المعينة ثم ان وحدتها تقوم في كون الانسان لا يعكس في ادراكه غير قوانين الطبيعة والمجتمع، ولكنه لا يستطيع ان يضعها مباشرة او ان يقضي عليها (رغم انه قادر على تحويل الظاهرات الطبيعية والاجتماعية).

والى جانب الوحدة بين القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع، توجد فوارق بينها. وهذه الفوارق تنجم في المقام الاول عن خصائص المستويات البنيوية للحاملات المادية للأشكال المعنية لحركة المادة. مثلا. ان خصائص قوانين الشكل البيولوجي لحركة المادة تنبع من وجود العضويات والانواع، والبيوسينوز

(وحدة العضويات الحية)، والبيوسفير.

ان خصائص الشكل الاجتماعي لحركة المادة يقوم في اساسها وجود مستويات الانسان، والعائلة، والوحدة السلالية والمهنية، والجماعة المنتجة، والفئات الاجتماعية، والطبقات، ودرجات تطور المجتمع التاريخية.

ان فرق المستويات البنيوية في الطبيعة غير الحية، في الشكل البيولوجي والشكل الاجتماعي لحركة المادة، يتجلى في خصائص الصلات الضرورية والانظمة المادية المناسبة. ونحن نفهم بالنظام تشكلا ماديا متكاملا عناصره (اقسامه المكونة) مشروطة بعضها ببعض، والصلة الداخلية بينها اكثر ثباتا من صلاتها مع الانظمة الاخرى ومع الظروف الخارجية الاخرى. وفي الانظمة المادية، تفعل فعلها قوانين واحدة للعمل والتطور، الامر الذي يشترط كمالها، الذي تدعمه عمليات متنوعة للحفاظ الذاتي والضبط الذاتي والادارة الذاتية.

ولهذا، من اهم الفوارق بين قوانين المجتمع وقوانين الطبيعة، كون قوانين المجتمع تنبثق مع ظهور الانظمة الاجتماعية، كونها تاريخية وقصيرة الزمن بالنسبة لحركة المادة بلا نهاية ولا انقطاع. اما قوانين الطبيعة، فإنها توجد زمنا اطول، وبعض منها خالدة عمليا، مثل قوانين بقاء وتحول الطاقة.

وهناك سمة اخرى بالغة الاهمية تميز قوانين المجتمع عن قوانين الطبيعة هي ان قوانين المجتمع لا تتجلى الزاما بوصفها فعل قوى عمياء، بل تتجلى عبر نشاط الناس الذين يملكون الارادة والادراك، وهي قوانين هذا النشاط. ومن هنا ينجم ان فعل القوانين الاجتماعية الموضوعية يتحقق في سياق الممارسة الاجتماعية التاريخية، في حين ان نشاط الناس لا يشكل شرطا الزاميا لفعل قوانين الطبيعة. ومن هنا ينبع اختلاف موقف الناس والطبقات والفئات الاجتماعية من قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع، وهذا الاختلاف في المواقف تحدده معيشتهم الملموسة وحالة الوعي الاجتماعي.

وهكذا، ان الصلات الضرورية، والقوانين والضرورات، مثلها مثل المادة

ذاتها واعم خصائصها واشكال وجودها، تتكون وتفعل فعلها بصورة موضوعية، وهي بهذا المعنى مادية. ان المبدأ الفلسفي لمادية العالم، الذي يشمل جميع ميادين الوجود، يبرز على هذا النحو، اساسا شموليا للعقيدة والمعرفة ولنشاط الناس التحويلي. ولكن فهمه العلمي وتطبيقه يتطلبان توضيح خصائص مادية الوجود الاجتماعي، ومكان ودور نشاط الناس الواعي في تطبيق ضرورات العملية التاريخية.



الفصل الثالث

المادة والوعي

سبق أن عرفنا أن المادة هي الاول وان الوعي هو التالي . وهذه النظرة هي نقطة انطلاق الفلسفة المادية . وبعد أن عالجنا قضية المادة وأشكال وجودها ننتقل الى بحث أكثر تفصيلا يتناول الوعي وخصائصه .

١ :ـ الوعي هو خاصة المادة الرفيعة التنظيم

تعتبر قضية نشوء الوعي وجوهره احدى أصعب قضايا العلم . فكيف وفي أية درجة من درجات تطور المادة نشأ الوعي ؟ وكيف تنشأ الاحساسات والادراك والتصور والتفكير عند الانسان ؟ وكيف يتم الانتقال من الاحساسات والادراكات الى التفكير ؟ هذه الاسئلة ظلت مدة طويلة مجهولة من العلم ، مما أفسح المجال أمام تسرب نظريات خاطئة من حيث الاساس تعتبر الوعي خاصة أو نتيجة لنشاط شيء غير مادي (الروح) ، في زعمها ، غير مرتبطة بالمادة وبجسم الانسان ، ويمكنها أن تعيش حياتها المتنقلة ، من دونه . وفي الوقت الذي يتعرض فيه الجسم المادي ، عاجلا أم آجلا ، للموت ، فان « الروح » اللامادية تبقى هي ووعيها ، في زعمهم ، حية خالدة . وقد وجدت هذه النظرات حتى عند أناس المجتمع البدائي الذين كانوا يفسرون الاحلام أو يعللون موت الانسان بأن « الروح » تهجر الجسم مؤقتاً أو الى الابد . والفلسفة المثالية لم تبق على هذه التصورات المتفزلكة فحسب ، بل وأمدتها ،

على العكس، بالمبررات النظرية. كما توطدت تلك النظرات بمختلف ألوان هذه الفلسفة. كان كل لون من ألوان الفلسفة المثالية يذهب، الى هذا الحد أو ذاك، الى اعتبار الوعي (أو الروح) كائنا خاصاً من كائنات ماوراء الطبيعة، ليس مستقلا عن المادة فحسب، بل وهو خالق للمادة أيضا.

هذه القضية لم يكن حلها سهلا حتى بالنسبة الى الفلسفة المادية. فالى جانب التفسير الصحيح لجوهر الوعي، باعتباره خاصة معينة من خواص المادة، كانت هنالك أخطاء هامة. هكذا ذهب بعض الفلاسفة الماديين السابقين لماركس وانجلز، والذين ظلوا في حيرة من أمر حل قضية نشوء الوعي، ذهبوا الى أن الوعي هو خاصة للمادة، هو خاصتها الخالدة الملازمة لجميع أشكالها. كما أن بعض الفلاسفة الماديين الذين عجزوا عن فهم مبدأ وحدة العالم المادية، فهما صحيحاً، توصلوا، عمليا، الى نكران الوعي. انهم ذهبوا الى أن الوعي عبارة عن نوع خاص من المادة، وأن الدماغ يفرزه كما تفرز، مثلا، الكبد الصفراء. كان هؤلاء هم الماديون العاميون. وفي أعقاب تطور المعارف العالمية أمكن تصحيح تلك الاخطاء. وقد توصلت المادية تدريجيا، وخطوة إثر أخرى، معتمدة على معطيات علم الطبيعة، توصلت الى فهم جوهر الوعي فهما متزايد العمق، على أنه بمثابة خاصة من خواص المادة الرفيعة التطور، بمثابة نتاج لفعالية الدماغ. وتستقر صعوبة تقصي العمليات النفسية، وظواهر الوعي، في أنها لاتدرك مباشرة بأي عضو من أعضاء حواسنا. ان الاحساس، والادراك، والتصور، والفكر أمور لايمكننا رؤيتها أو سماعها، أو شمها، أو لمسها. ان بالامكان رؤية عضو التفكير، الدماغ، بالامكان النظر مجهريا الى خلايا الدماغ، كما تمكن، باستخدام الاجهزة المناسبة، دراسة التيارات الكهربائية التي تتشكل في النسيج العصبي وفي مادة المخ . . . الخ. الا أنه لاتمكن، لافي الزمان ولا في المكان، وحتى من خلال أحدث المجاهر، رؤية الفكرة ولايمكن قياسها طوليا ولا وزنها. ان الوعي، ان الفكرة، لاتتمتع بخصائص فيزيائية كتلك الخصائص التي تتمتع بها الاجسام

المادية. بيد أنه لاينبغي أن نستنتج من هذا أن الوعي يعود لعالم ما من عوالم ماوراء الطبيعة، المتميزة أساسيا، عن العالم المادي، وهي مستقلة عن المادة. كما لاينبغي أيضا أن نستنتج من ذلك أن الوعي لاتمكن دراسته اطلاقاً بطرق موضوعية علمية، دراسة دقيقة.

ورغم أننا لاندرك بحواسنا المباشرة وعي الناس الآخرين ذاته، الا أننا ندرك أفعال الناس الواقعية، وتصرفاتهم، وكلامهم الذي يعكس أفكارهم. ويظهر الوعي الملازم للانسان وخصائصه في نشاطه الهادف، وفي طبيعة علاقاته وصلاته المتبادلة مع الوسط المحيط به. ولم يكن عبثا أن يقال: « اذا أردت معرفة الانسان فانظر الى أعماله » ان التقصي الدقيق لنشاط الانسان العملي، ولعلاقاته وصلاته المتبادلة مع وسطه الطبيعي والاجتماعي (وهو أمر تستطيع الدراسة الموضوعية تحقيقه) يمكّن من دراسة وعي الانسان أكثر جداً مما تمكن دراسة الانسان بذاته، وعيه الخاص. ان دراسة الانسان، بذاته، للظواهر الجارية في وعيه الخاص، دراسة صحيحة تعطينا مادة ثمينة وفيرة من أجل دراسة النفس، ولاينبغي النيل من قيمة هذه الطريقة. الا أن العلم قد حقق نجاحات هامة بشكل خاص، في دراسته الوعي والنشاط النفسي، لاسيما منذ أن اتخذ طرقا موضوعية في بحث الوعي. والعلم مدين بمنجزات هامة في هذا المجال، للعالمين الروسيين الشهيرين « اي. م سوتشينوف » و « اي ب. بافلوف » اللذين صاغا، على أساس استخدام الطريقة العلمية في العلوم الطبيعة، نظرية منسجمة عن النشاط العصبي الرفيع عند الحيوانات والانسان.

ان النفس هي نتيجة لنشاط المخ المادي. يؤكد ذلك قبل كل شيء واقع أن الحوادث النفسية لاتحدث الا في الاجسام الحية التي تقوم بوظائفها بصورة طبيعية، وتحوز جهازاً عصبيا. ان أكثر أشكال العمليات النفسية تعقيداً، (بما فيها التفكير التجريدي المنطقي) التي تشكل، في وحدتها الداخلية الوطيدة الترابط، وفي اشتراط أحدها الآخر، ذلك الشيء الذي تسميه بالوعي. ان

أكثر هذه الاشكال تعقيداً مرتبط بوجود الجهاز العصبي الرفيع التطور، وبجزئه الاعلى، أي المخ.

وكلما كانت الحيوانـات أقل تطوراً، وكانت ذات جهاز عصبي أبسط من حيث التطور، كانت الحوادث النفسية الخاصة بها أكثر بدائية. وهذه الظواهر النفسية تنعـدم عند تلك الكائنات المتناهية في البساطة والتي لاتتمتع بجهاز عصبي مركزي. ان ارتباط الوعي بالمادة المتطورة تطوراً خاصا يتبدى بسهولة عندما يصاب نشاط المخ بخلل ما نتيجة مرض أو اصابة خارجية. فاذا أصيب نصف الكرة المخية باصابة، اختل نشاط نفس الانسان، نشاط وعيه، كليا أو جزئيا. فاذا ماشفي من الاصابة أو المرض عاد الوعي الى نشاطه السابق. ان علاقة الوعي بحالة المخ تتبدى عند النظر الى تلك الحوادث المعروفة كتخدير الناس واثارة التخيلات لديهم عن طريق مختلف أنواع المخدرات.

وتتمتع قشرة المخ بأهمية حاسمة بالنسبة الى وعي الانسان. انها كيان مادي مفرط في التعقيد يتمتع كل جزء منه بصفات خاصة، وبيئة خاصة. انها تقسم الى مراكز مختلفة كمركز الرؤيا، والسمع، والحركة، . . . الخ. وكل مركز من هذه المراكز يتصف ببنية مجهرية خاصة من حيث شكل الخلايا وتوزع الطبقات الخلوية، ويلعب دوراً وظيفياً معينا في نشاط قشرة المخ بمجملها. بيد أن بنية هذه المراكز تتمتع بسمات عامة بينها. فالمخ يبرز ككل موحد.

ان مراكـز قشرة المـخ عبارة عن النهايات القشرية للمحللات[1] البصرية والسمعية والحـركية وغـيرهـا. ان الاجزاء القشرية للمحللات (نوى « جمع نواة » المحللات) ليست مفصـولـة عن بعضها بحدود واضحة ما. فبعضها يمتد من وراء بعضها الآخر وبعضها يشتبك ببعض بواسطة تشكيلات عصبية

---

(١) المحللات: أجهزة عصبية معقدة تضم، الى جانب أجزاء القشرة المشار اليها، أجهزة الاستقبال أو المستقبلات (التشكيلات الطرفية للألياف العصبية الحسية التي تستقبل التهيج وتحوله الى آثار عصبية) وتضم النواقل التي تنقل الاثارة من المستقبلات إلى قشرة المخ.

خاصة. ان الاجزاء القشرية من المحللات تحقق أعلى الوظائف - أي تحليل وتركيب التهيجات الواردة الى المخ. ان أجزاء القشرة المبعثرة بين المحللات بالذات تعتبر مستقبلات ويمكنها أن تقوم ببعض الوظائف من نموذج تلك التي تقوم بها المحللات القشرية ولكنها أبسط منها.

ونتيجة لهذا فان أي خلل في نشاط أي جزء قشري من المحللات (في أعقاب عملية أو ارتجاج الخ . . .) يجعل من غير الممكن القيام بأعلى الوظائف الخاصة بالمركز المصاب من المخ، بيد أن أجزاء المحللات المبعثرة تظل قادرة على القيام بالوظائف الاولية المرتبطة بالمستقبلات نفسها. وقد وضح بافلوف هذا الامر بالتجربتين التاليتين: ان الكلب الذي أزيلت منه الأجزاء الصدغية (أي منطقة الادراكات السمعية وتحليلها وتركيبها المعقدين) لم يمكنه أن يميز الاصوات المعقدة كاسمه مثلا ولكنه كان يميز الاصوات المنفردة وألحانها. أما الكلب الفاقد لاجزاء كرتي المخ الخلفية (أي منطقة الادراكات البصرية وتحليلها وتركيبها المعقدين) فلم يمكنه أن يميز بين الاشياء ولكنه كان يميز درجة الانارة والاشكال البسيطة. وقد وجد بافلوف في هذا برهاناً قاطعا على الاهمية الراجحة لبنية قشرة المخ في عمليات النشاط العصبي العلوي. وبالاعتماد على بحوث تجريبية دقيقة اشار بافلوف الى أن مرض هذا الجزء أو ذاك من القشرة في حال بقاء الاجزاء الاخرى سليمة، يمكن أن يؤدي الى نوع معين من التشويش في النشاط العصبي العلوي لدى الحيوان المصاب.

لقد أكد بافلوف على اهمية واقع التناسب بين أجزاء بنية المخ وبين ديناميكية العمليات العصبية. واعتبر أن « توافق الديناميكية مع البنية، أحد المبادىء الأساسية في نظرية النشاط العصبي العلوي. وبهذا طور بافلوف نظرة المادية الديالتيكية الى النفس بصفتها خاصة من خواص المادة المنظمة بشكل معين، بصفتها وظيفة من وظائف المخ.

ان قشرة المخ ليست عبارة عن مجرد مجموعة من التشكيلات البنيوية المنفردة

والمرتبطة خارجياً فقط والمتعايشة واحدة الى جانب الاخرى. فقد اكد بافلوف العلاقة المتبادلة العضوية بينها، وأكد وحدتها. وقد كتب يقول: « اذا كان بالامكان، من وجهة نظر معينة، النظر الى قشرة كرتي المخ الكبيرتين على أنها مصنوعة من الموزاييك ومؤلفة من عدد لانهاية له من القطع المنفردة ذات الدور الفيزيولوجي الخاص في لحظة معينة، فاننا من نظر أخرى نعتبرها منظومة ديناميكية معقدة تطمح دائما للاتحاد (للتكامل) ولتكرار نفس نموذج النشاط الموحد[1]. ان هذا الفهم الديالكتيكي للعلاقة العضوية بين الكل والاجزاء في عمل قشرة المخ هو احدى أهم الصفات التي تميز تعاليم بافلوف. فبفضل هذا الفهم استطاع بافلوف التغلب على التطرف الخاطىء من الجانبين في تفسير عمل المخ: التطرف الاول هو الاتجاه الذي يسمى بالاتجاه الموضعي « اللوكالي »، والذي يعمد أنصاره الى جعل خاصية نشاط الاجزاء المنفردة من المخ شيئاً مطلقاً، متجاهلين وحدة المخ. والتطرف الثاني هو الاتجاه الذي يتجاهل كلية أهمية التشكيلات البنيوية المنفردة للمخ ولا يرى سوى وحدته.

وهكذا فالوعي عبارة عن نتاج المخ، نتاج المادة الرفيعة التطور، وهو وظيفة المخ، وبالتالي فان المخ هو عضو الوعي، التفكير.

وعندما نقول بأن الوعي هو نتاج المادة لانقصد بذلك أن الوعي الناشىء عن المادة، والمرتبط بها، يوجد كشيء خارجي عنها، قائم الى جانبها، كما توجد، مثلا، التفاحات النابتة على غصن شجرة التفاح وبشكل مرتبط به. ان العمليات الفيزيولوجية الجارية في المخ المفكر، وان التفكير الواعي، ليسا عمليتين متوازيتين، بل هما عملية واحدة وحيدة، والوعي هو حالتها الداخلية. يقول لينين «ان الوعي هو حالة داخلية للمادة»[2]. وعلى هذا لا يمكن اطلاقاً الفصل بين الوعي والمادة المفكرة. وفي الوقت نفسه لاينبغي

---

(١) بافلوف. المؤلفات الكاملة الجزء الرابع موسكو - لينينغراد ١٩٤٧ ص١٩٥.
(٢) لينين: «المؤلفات» الجزء ١٤، ص٧٤.

النظر الى الفكرة، الى الوعي، على أنه مادة، أو شيء ما مادي (وهذا خطأ الماديين العاميين).

واذا اعتبرنا أن الوعي مادة «لا يبقى أي معنى لمعارضة المادة بالروح، والمادية بالمثالية، من وجهة نظرية المعرفة الفلسفية»[1] (لينين). وفي حدود الابحاث التي تتعلق بنظرية المعرفة لابد من اقرار معارضة المادة بالروح.

«ولكن اقرار معارضة المادة بالروح، والشيء الفيزيائي بالنفسي، معارضة مطلقة، خارج نطاق تلك الحدود، انما هو خطأ فادح»[2].

ان معارضة المادة بالوعي في نطاق نظرية المعرفة هي معارضة مطلقة بمعنى أنها معارضة حقيقية بين ما هو أول وما هو تال، بين ما هو موجود منذ الازل وبين ما لاينشأ الا في مرحلة معينة من مراحل تطور الطبيعة. بيد أن معارضة المادة بالوعي هذه هي نسبية بمعنى أن الوعي لايمكن، بأي شكل كان، أن يفصل عن المادة المفكرة، وأن يعارض بها كشيء منعزل عنها وقائم بذاته. ليس الوعي شيئا غريبا عن الطبيعة، انه نتاج طبيعي لها، شأنه شأن الاشياء المادية ذاتها، الحائزة على هذا الوعي.

ان العلم العصري الذي توصل الى نجاحات هامة في معرفة نشاط الدماغ ودراسة الظواهر النفسية، وعمليات الوعي، يضع أمامه لا مهمة توضيح هذه الظواهر فقط، بل والسيطرة عليها، وتوجيهها. يقول بافلوف: «اننا على ثقة من أن الوجهة التي اتبعها العلم في دراساته الدقيقة عن فيزيولوجيا دماغ الحيوانات، ستوصله الى سيطرة عظيمة على الجهاز العصبي الرفيع التطور،

---

(١) نظرية المعرفة هي قسم من الفلسفة الذي يدرس مصادر المعرفة العلمية ووسائلها، وشروط صحتها.

(٢) لينين: المصدر ذاته. ص٢٣٣.

والى اكتشافات مذهلة لاتقل أهمية عن المنجزات التي حققها علم الطبيعة»[1].

ورغم وضوح معطيات علم الطبيعة فان الفلاسفة المثاليين ما يزالون ينازعون في أن الوعي هو نتاج، هو وظيفة، هو خاصة المادة المتطورة الى حد معين، ينازعون في أن الانسان انما يفكر بالاعتماد على المخ. هكذا يذهب «ف. باولسن» الى أن قولنا: «التفكير يتم في الدماغ»، قول لا معنى له. وهو يعتقد أن هذا القول شبيه بتأكيدنا أن الافكار توجد في المعدة أو المعدة أو في القمر. هذا «الاعتراض» ضد المادية سخيف الى حد دفع أحد الاطباء النفسيين الى القول بـ«أنني لم أسمع الا من المجانين والمعتوهين أن أنفسهم موجودة في المعدة أو في القمر».

أما «أفيناريوس»، المثالي الذاتي، فينكر فكرة أن الفكر، أن الاحساسات عبارة عن وظيفة الدماغ، عن خاصته. وقد وجه لينين، في كتابه «المادية والمذهب التجريبي»، نقداً لاذعاً لنظرات هذا الرجل الفلسفية. حاول « أفيناريوس » أن يدعم وجهة نظره استناداً الى أن أحداً لم يشاهد كيف تتولد الاحساسات في المخ. وهو يرى أن الاحساسات موجودة دائماً، ولكنها ليست دائما موعيّة من قبلنا فعندما يحدث انتقال الحركة المادية (الاثارة) الى الكائن الذي نعتبره منتجاً للاحساس، يحدث، في الوقت ذاته، «تحرر» الاحساسات الموجوده في الكائن قبل الاثارة، وبذلك تصبح موعيّة، كما لو أنها ليست نتيجة للاثاره. ان الاحساسات والتفكير، في زعمه، ليسا وظيفة الدماغ ولانتاجا له. ولنفرض جدلا أن «افيناريوس» على حق عندما يقول بأن عمليات المخ لا تولد الاحساسات بل «تحررها» فقط على صورة ما، آنذاك نضطر الى استنتاج ان احساسي بالالم من جرح أصيب به إصبعي اليوم، كان موجوداً من قبل، وأن

---

(١) بافلوف: «المؤلفات الكاملة» الجزء الثالث الكتاب الاول نشر اكاديمية العلوم السوفييتية. موسكو ـ لينينغراد، ص٢٨٩.

احساسي برائحة الوردة التي سأشمها غداً قائم ولكنه لم يصبح بعد موهيا. . . الخ. فهل يمكن أن نوافق «أفيناريوس» على ما ذهب اليه دون أن نتنكر لابسط قواعد التفكير المنطقي العلمي؟ بالطبع لا. ان كل انسان يلاحظ، في كل برهة واقع أن احساساته تتولد نتيجة لتأثير العالم المادي الخارجي على أعضاء حواسه. وبفضل هذا بالذات يستطيع الانسان ان يحس توجيه نفسه وفقا لظواهر العالم الخارجي، وأن يتغلب على العوائق المنتصبة أمامه، وأن يتجنب ما هو غير ملائم، وأن يجد ما يلائم وجوده ويسهل عليه فعاليته. ان «أفيناريوس» وأنصاره يعودون بنا القهقرى نحو نظرية اخناتون عن تذكر الروح للأفكار التي كانت عايشتها في العالم الروحي المثالي.

ويتهم «أفيناريوس» علماء الطبيعة الذين يعتبرون الاحساس والتفكير وظيفة الدماغ، بأنهم يحشرون في الدماغ الافكار والاحساسات حشراً لايطاق، مع أنه منها براء. وعملهم هذا يؤدي، في زعمه، الى التنكر للمفاهيم الطبيعية عن العالم، والى الوقوع في أحضان المثالية. . . ان «أفيناريوس» يعتبر نفسه عدواً للمثالية، لمجرد أن يعرف بحقيقة «الانا» و«الوسط» على حد سواء. ولكنه، عمليا، يدافع عن المثالية، ويحارب المفهوم الطبيعي الحقيقي عن العالم، أي المادية. ذلك لان «الانا» و«الوسط» عبارة، في زعمه، عن مجموعة من الاحساسات. ان «أفيناريوس» لم يحاول البرهنة على ما رغب بالبرهان عليه، بل اعتبره أمراً بديهيا: لم يحاول اثبات الزعم القائل بأن الاحساسات موجودة من غير المادة المفكرة، من غير الدماغ، بل اعتبره بديهة. يقول لينين: «لما كنا لا نعرف بعد جميع ظروف الصلة التي تخضع لرقابتنا في كل دقيقة، الصلة بين الاحساسات والمادة المنظمة على صورة معينة، لهذا فنحن لا نعترف الا بوجود الاحساس وحده. هذا ما تؤدي اليه سفسطائية «افيناريوس»»[1].

---

(١) لينين: «المؤلفات» الجزء ١٤، ص٤٠.

وهنالك مثاليون معاصرون «لا ينفون» ارتباط الوعي بالدماغ . ولكنهم لا يفهمون هذا الارتباط الا من حيث آن الدماغ هو، فقط، «أداة» ظهور الوعي. أما الوعي نفسه فهو غير مرتبط، في زعمهم، بالدماغ (وهذا ليس أكثر من تكرار لنظرية «أفيناريوس» الخاطئة). وقد سلك المثالي الذاتي «ماخ» طريقة أخرى تختلف عن طريقة «أفيناريوس» في معالجة، قضية ارتباط الوعي بالدماغ. فلكي لايقع «ماخ» في تناقض مباشر مع معطيات العلوم الطبيعة، الشاهدة على الصلة الوثيقة بين الوعي والاحساس وبين العمليات المادية للدماغ والجملة العصبية، عمد الى ملاءمة هذه المعطيات مع فلسفته الذاهبة الى أن الاجسام عبارة عن مركبات من الاحساسات. وهو أمر يؤدي الى نتائج ممجوجة، كما أبان لينين. ولما كان الدماغ جسماً فهو، بالتالي، حسبما ذهب اليه «ماخ» مجموعة من الاحساسات. ثم ان الدماغ جزء من الانسان، فالانسان اذن مجموعة من الاحساسات كذلك. وعلى هذا فعندما تتحسس شيئاً ما، ينبغي علينا أن نقول: « ان مجموعة من الاحساسات هي «أنا» تتحسس، بمساعدة مجموعة أخرى منها، هي الدماغ، مجموعة ثالثة من الاحساسات». ومهما كانت عليه «مجموعات الاحساسات» هذه من فوضى وتعقيد، فاننا نستطيع تنسيقها بادئين بنقطة انطلاقها. ان من السهل الكشف عن خطأ نظرية «ماخ» الفاحش، وعن التناقض فيها. «فماخ» يعلن أولا أن كل شيء عبارة عن احساسات، ثم يأخذ، عمليا، بنظرات معاكسة تعتبر الاحساسات مرتبطة بعمليات هي عبارة عن تبادل حركات مادية بين الجسم العضوي والعالم الخارجي .

ان مايسمى بالنظريات النسبية المورفولوغية (١) تذهب مذهبا آخر في التنكر لنظرية الوعي كوظيفة للدماغ. ان محاكمات أنصار هذه النظريات تبدو، للوهلة الاولى، وكأنها قويمة، عندما يحاولون ايجاد تلك الاماكن الدماغية التي

---

(١) المورفولوغيا: مجموعة العلوم التي تدرس شكل وبنية أجهزة الحيوانات أو النباتات.

تنشأ فيها العمليات النفسية. الا أن نظراتهم، تناقض، في الواقع، معطيات علم الطبيعة الحديث، وهي خاطئة من الوجهة الفلسفية. وانصار هذا الاتجاه المدعوم من قبل فيزيولوجيين ومختصين في الاعصاب، معاصرين، يتوصلون الى حد التأكيد، كما لو أن كل نقطة من نقاط الدماغ تختص بوظيفة نفسية مستقلة عن غيرها كل الاستقلال: ففي نقطة من هذه النقط يقوم، في زعمهم، مركز «معرفة الارقام»، وفي نقطة أخرى مركز «لفهم الجمل»، وفي نقطة ثالثة يقوم مركز «معرفة الحروف»، وفي الرابعة مركز «تشكل صورة الاشياء الحية»، وفي الخامسة مركز «التعرف الى الاشياء اللاحية» وفي السادسة مركز «الأنا» الشخصية، وفي السابعة مركز «الأنا» الدينية، . . . الخ. ورغم أن هذه الوظائف النفسية تتلاءم والاجزاء المختصة من الدماغ، فان أنصار هذه النظريات ينكرون، من حيث الاساس، الصلة الداخلية بين النفس والدماغ، ويفصلون بينهما. وهم، اذ يجزئون الدماغ الى أجزاء مبعثرة، منعزلة عن بعضها، وعن التأثيرات الخارجية، يفقدون كل امكانية لفهم كيفية قيام الدماغ بنشاط شامل موحد. وهم يتوصلون الى تصور الوظائف النفسية كأشياء مستقلة عن بعضها كل الاستقلال، ولكنها مترافقة، في الزمان والمكان، مع النشاط الفيزيولوجي لقشرة الدماغ، وتحدث وفق قوانينها الخاصة التي لا يجمعها أي جامع مع قوانين فعالية الدماغ. هذه النظرات ليست، في الواقع، أكثر من ترداد للنظرية الثنائية القديمة التي نبذها العلم منذ أزمان بعيدة، لنظرية التوازي النفسي الفيزيائي القائلة بأن العالم عبارة عن صفين من العمليات المستقلة تماما، عن صفين من العمليات الفيزيائية والنفسية الحادثة في جوهرين مختلفين (مادي وروحي) يوازي بعضها الآخر.

ويذهب المذهب ذاته أيضاً أنصار النظرية القائلة بأن الدماغ عبارة عن كتلة لاتتصف ببنية وتمايز واضحين. وهم، اذ عجزوا عن رؤية مصدر نشاط المحللات في تأثير الوسط الخارجي، اذ عجزوا عن رؤية الصفة النوعية لعمل هذه المحللات، المشروط بتباين التأثيرات المادية الخارجية، اذ عجزوا عن

ذلك، حاولوا تفسير النفس كنتاج «لفعالية دماغ» وحيدة، شاملة له كله، وكـ«طاقة عفوية ذاتية للدماغ» تجابه كتلته المادية. وهكذا يذهبون مذهب التوازن النفسي.

ان مؤلفات « بافلوف » وكثير من العلماء الآخرين، المتعلقة ببحث الفعالية لعصبية المتطورة دحضت هذه النظريات الثنائية دحضاً تاماً. ان جميع الاعتراضات المناوئة لأهم أفكار المذهب المادي التي أثبتها علم الطبيعة، والقائلة بأن الوعي عبارة عن خاصة المادة الرفيعة التطور، ان جميع هذه الاعتراضات تبقى، ولا يمكن الا أن تبقى، عقيمة غير مجدية، إنها تناقض، في جوهرها، المعطيات العلمية الدقيقة.

هكذا نرى أهمية الطريقة المادية التي تعالج الظواهر من جميع النواحي للوصول الى نتائج صحيحة، كما نرى الاخطار الجدية التي تدفع اليها الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الظواهر معالجة وحيدة الجانب.

٢ : ـ الوعي هو انعكاس العالم المادي

وهكذا فالوعي هو نتاج فعالية الدماغ. الا أنه لاينشأ ولا يتشكل في الدماغ الا بفضل الصلة المادية بين الدماغ والعالم الخارجي. ان الدماغ متصل بالعالم الخارجي عن طريق نهايات أعضاء الحواس: من عين وأذن وأغشية الانف المخاطية، وحليمات اللسان، ونهايات الجلد العصبية... الخ.

لاتنشأ الاحساسات في الدماغ الا عندما تصل اليه الاثارة العصبية الناجمة عن اهاجة هذه الاشياء المادية أو تلك لاعضاء الحس. هكذا تنشأ الاحساسات السمعية عن تأثير الموجات الصوتية على عضو السمع: كما تنشأ الاحساسات الشمية عن تأثير الصغيريات المادية على خلايا الشم الموجودة في المجاري الانفية.

وهكذا فمصدر الاحساسات هو العالم الخارجي، هو المادة، هو الوسط

المادي، الظواهر والاشياء، المكونة له.

ان الاحساسات هي الاساس الذي تقوم عليه جميع ظواهر الوعي. ولا وجود لهذا الوعي من دون تلك الاحساسات. ومن خلال الاحساسات فقط يكتسب الوعي محتواه وغناه. فكلما كانت صلة الوعي بالعالم المادي المحيط به أوسع وأكثر تنوعاً، كان أكثر غنى.

فمن المعلوم أن هنالك حالات يكون فيها الانسان منذ الولادة أعمى وأطرش وأخرس في وقت واحد. فاذا لم تتخذ تدابير معينة لمساعدة مثل هذا الانسان، فان وجوده يقتصر على القيام بالوظائف الفيزيولوجية البحتة، ويكون وعيه في غاية الفقر. وعندما ينجح الاطباء في رد ولو بعض أعضاء الحواس المفقودة اليه يتسع وعيه ويغتني، ويصبح هذا الانسان عضواً كاملاً في المجتمع، قادراً على أن يعيش حياة ابداعية فعالة. واذا لم يقدر للدماغ أن تقوم بينه وبين العالم الخارجي صلات عن طريق أعضاء الحس، فلا تنشأ في هذا الدماغ الاحساسات، أي يصبح الانسان من غير وعي. يقول «ساتشينوف» عندما يكون الانسان مجهداً جسدياً من التعب، ويغرق في ثبات عميق، فان نشاطه النفسي يتضاءل، من جهة، حتى العدم (وهو في هذه الحال لايحلم)، وهو، من جهة ثانية، يتميز بفقدان تحسس المؤثرات الخارجية، فلا يوقظه الضوء، ولا الصوت القوي ولا حتى الالم. وهناك حالات أخرى يقترن فيها انعدام تحسس المؤثرات الخارجية بانعدام النشاط النفسي كحالة السكر والتخدر والاغماء. ان الناس يعرفون هذا. وليس هناك من يشك في أن الظاهرتين المذكورتين مرتبطتان سببيا. وتباين الناس في نظرتهم الى هذا الموضوع منحصر في أن بعضهم يعتبرون انعدام الوعي سببا لانعدام التحسس في حين يعتبر بعضهم الآخر العكس. ولا يمكن وجود وسط بين الحالين. فاذا أطلقنا النار قرب أذن انسان يغط في نوم عميق، من مدفع أو اثنين أو عدد منها، استيقظ واستعاد نشاطه النفسي في الحال. أما اذا كان هذا الانسان فاقداً لسمعه فلا يوقظه اطلاق ولو مليون مدفع، لسبب واحد هو عدم استعادته

لوعيه عن طريق هذا الاطلاق. كذلك الاعمى لا توقظه أشد الانوار بهراً. وعندما ينعدم الحس في الجلد لا يستطيع أكثر الآلام شدة أن يحدث أي تألم. وبكلمة واحدة فان الانسان الغارق في النوم، والفاقد أعصاب حسه، سيظل نائما حتى الموت. فهل بعد هذا يستطيع بعضهم القول بأن الفعالية النفسية، والحركة العضلية المعبرة عنها، ممكنة، ولو للحظة خاطفة، من غير اثارة حسية خارجية[1].

ان خاصة واحدة لشيء معين تثير في دماغنا احساساً واحداً، اذا تساوت الشروط. فكرة البليار لا يمكن أن تثير فينا، في لحظة معينة، وفي ذات الشروط، الاحساس باللون الابيض، وفي لحظة أخرى، الاحساس باللون الاسود، ثم بالاخضر أو الأزرق، ثم من جديد بالابيض.. الخ، أو أن تثير فينا، الآن احساساً بشيء أملس ثم بشيء غير أملس أو غير ذلك، أو أن تثير فينا، في البداءة، احساسا بالصلابة، وبعد لحظة، بالطراوة،... الخ. ان خواص الاشياء المادية لاتثير فينا احساسات ما عضوية تتعاقب تعاقباً فوضوياً، بل تثير احساسات معينة تماما تتلاءم وطبيعة الاشياء الموضوعية. فاذا شممنا رائحة شيء ما، كان هذا دليلا على أن الشيء المذكور يتمتع بقدرة على افراز صغيريات منه حوله، تتميز ببعض الخصائص الفيزيائية الكيميائية التي لاتتوفر لدى صغيريات أجسام أخرى لا تنفث رائحة. فنفث الرائحة عبارة عن خاصة موضوعية. ان وجود صغيريات في الهواء من جسم ينفث الرائحة، يمكن أن يتبدى اعتماداً على وسائل فيزيائية وكيميائية بالاضافة الى عضو الشم. ولما كانت الخصائص المعينة للاجسام المادية تثير فينا احساسات معينة، لذا فنحن نتمكن من تمييز هذه الخواص بعضها عن بعض. ان الخصائص الواحدة

---

(١) سينشينوف: مؤلفات مختارة في الفلسفة وعلم النفس طبعة ١٩٤٧ ص١٧٨. كان في عيادة «بوتكين»، العالم الشهير، مريضة عمياء طرشاء. كانت هذه المريضة فاقدة حس جلدها في مختلف نواحي جسمها باستثناء يد لها. وكانت هنا في حالة ثبات بصورة عامة. ولم تكن لتستيقظ الا يلمس يدها التي احتفظت بحساسيتها.

للاجسام، هذه الخصائص المتميزة عن بعضها بدرجتها أو بشدتها (من حيث الحرارة أو الوزن. . . الخ)، تثير فينا، بصورة عامة احساسات من نوع واحد، ولكنها متمايزة فيما بينها تمايزاً يتناسب وشدة تلك الخصائص. وفي تشابه وتباين الاحساسات الناجمة عن تأثير الاشياء المادية، ينعكس تشابه وتباين الخصائص العائدة لهذه الاشياء.

ان الاشياء المادية تتمتع لا بخاصة واحدة بل بخصائص متعددة (من شكل، ووزن، ولون، ورائحة، وقساوة، أو طراوة، ونعومة أو خشونة. . . الخ). وتنقل أعضاء حواسنا الى الدماغ تأثيرات متنوعة في وقت واحد، صادرة عن تلك الخصائص. وعلى هذا الاساس يتشكل في الدماغ ادراك واحد، كامل للأشياء. ان الادراك هو مجموعة الاحساسات المرتبطة فيما بينها ترابطا متلائما مع ترابط خصائص الشيء، المثير فينا الادراك المذكور. وكل ادراك معين يتلاءم مع الشيء المادي المثير لهذا الادراك. ان خاصة الاشياء المادية، وتشابه هذه الاشياء وتباينها، تنعكس في خصائص الادراك.

بيد ان الاحساسات والادراكات تتلاءم والاشياء الخارجية لا كشارات اتفاقية أو علامات تناسب الاشياء الدالة عليها ولكن كنسخ عنا متلائمة مع هذه الاشياء ذاتها. ان الاحساسات والادراكات عبارة عن انعكاسات للاشياء المادية وصور ونسخ عنها. هذا هو أحد أحجار الزاوية في نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية. وقد قدم علم الطبيعة براهين لاتدحض على صحة هذه النظرية.

لقد ساعد «سوتشينوف» كثيراً في اثبات أن الاحساسات عبارة عن انعكاسات وصور ونسخ صحيحة لاشياء العالم الخارجي. ان تطبيق الطريقة التي انتهجها «سوتشينوف» في البرهنة، كفيل باقناعنا بأن الاحساسات البصرية تعطي، عملياً، انعكاسات صحيحة للاشياء التي ننظر إليها.

اذا اتجهت العين نحو شيء خارجي ما ارتسم انعكاس هذا الشيء على قعرها في الشبكية. ويحدث الانعكاس حسب قوانين العدسات عبر عدسة

العين التي تشبه عدسة محدبة الوجهين. ولكن هذا الانعكاس الفيزيائي ليس، بعد، الصورة البصرية الموجودة في الوعي، بل هو مجرد حلقة وسطى بين الشيء الخارجي والصورة في الوعي. ونحن لا نعرف بعد فيما اذا كان الوعي ينقل الانعكاس الى الشبكة حين تتكون الصورة فيه، أو يأخذ الصورة من الشبكة بعد انعكاسها عليها. وعلى كل فلدينا مجموعة مؤلفة من ثلاثة أمور مرتبطة فيما بينها، وهي: ١: ـ الشيء الخارجي، ٢: ـ الانعكاس على الشبكية، ٣: ـ الصورة في الوعي. المهم الآن هو السؤال التالي: هل تتشابه الصورة في الوعي مع الشيء الخارجي أم لا؟ وتتأتى صعوبة الجواب من أننا لا نعرف الشيء بذاته بشكل مستقل عن صورته في الوعي التي تكونت فيه بشكل مباشر، ولا بد للاجابة على السؤال المذكور من اللجوء الى وسائل وسيطة.

لنأخذ عدسة عادية محدبة الجانبين، ولنحدث بواسطتها انعكاساً على شاشة للجسم الذي نجري عليه تجربتنا. ان الانعكاس على الشاشة، والجسم الخارجي، متشابهان طبقاً لقوانين العدسات. وبالاضافة الى هذا، فاننا نتأكد من تشابههما عن طريق مقارنة أحدهما بالآخر مباشرة: فالانعكاس على الشاشة، والجسم المنعكس، هما، بالنسبة للعين، شيئان خارجيان على حد سواء، ومن تشابه الاحساسات التي يولدها كلاهما في الجهاز البصري نستطيع القول بأنهما متشابهان. وبما أن عدسة العين تعمل كالعدسة العادية (ويمكن اقامة البرهان على هذا بالتجارب) فان الانعكاس الذي تنقله عدسة العين الى الشبكية مشابهة للشيء الخارجي. وعندما ننظر الى الشاشة، فاننا نرى عملياً ذات الجسم المنعكس على الشبكية، وذلك لان كلا الانعكاسين حادثان بموجب عمليات فيزيائية واحدة. أما عندما نوجه بصرنا الى الجسم الخارجي، فان دماغنا آنذاك، يتفاعل مع الصورة الحادثة في الوعي، وبالتالي، فاننا عندما ننظر الى الشاشة، والى الجسم الخارجي، نقوم، في الحقيقة، بمقارنة بين الانعكاس على الشبكية وبين الصورة الحادثة في الوعي. فماذا تعطينا هذه المقارنة؟ ان سيتشينوف يلخص نتائج هذه المقارنة بما يلي: « ان المثلث والدائرة

واطار النافذة والهلال الخ . . . المعكوسة في الشبكية يتحسسها الوعي كما هي عليه : أي كمثلث ودائرة واطار وهلال الخ . . . والصورة الغبشاء في الشبكية تظهر في الوعي غبشاء كذلك . والنقطة الثابتة ترسم في الوعي ثابتة أيضا ، والطير الطائر يرتسم في الوعي متحركاً . وأماكن الانعكاس الضعيفة الانارة توعى بشكل غير واضح ، أما النقاط المتألقة فتبرز في الوعي ناصعة . وبكلمة واحدة ان الوعي بالنسبة الى الصور على الشبكية مرآة لاتقل صدما عن الشبكية والاجهزة العاكسة في العين ، بالنسبة الى الشيء الخارجي . فاذا كان الامر الاول في المجموعة السابقة مشابهاً للثاني ، والثاني مشابهاً للثالث ، كان الاول مشابها للثالث كذلك . وهذا يعني أن الشيء الخارجي غير المعروف ، أو الشيء بحد ذاته ، مشابه لصورته المنعكسة في الوعي[1] . والاحساسات البصيرية تعطي صوراً صحيحة لا لشيء واحد فقط ، بل ولمجموعة من الاشياء المدركة . ولكي نتحقق من هذا يمكن استعمال المحاكمة المذكورة من قبل باعتبار أن المجموعة هي شيء واحد مركب ، مؤلف من أجزاء مختلفة . ولكن هل تعكس العين بأمانة أوضاع الاشياء المكانية؟ ان العلم يجيب بالايجاب في هذا المجال أيضا . فلكي نقدر وضع الاشياء المكاني وبعدها عنا ، ننقل البصر ، بالتوالي ، من شيء الى آخر ، محولين محور العين نحو العين نحو الانف الى هذا الحد أو ذاك . فاذا كان الشيء قريبا حولنا المحور تحويلا شديدا ، أما اذا كان أبعد حولنا المحور تحويلا أقل . ان الاحساس المرتبط بتقليص العضلات التي تحرك العين يسمح لنا بتقدير زوايا الدوران ، وبهذا الامر يرتبط ارتباطا مباشراً احساس بعد الشيء عنا ، الواقع أن الانسان عندما يشمل ببصره المنظر المحيط به تقوم عيناه بعمليات هندسة كالتي يقوم بها الطبوغرافيون عند ما يمسحون الارض طبوغرافيا . وكما أن المخططات الهندسية الطبوغرافية تعطينا صور صادقة عن أوضاع الاشياء المكانية ، كذلك فان الاحساسات

---

(١) ستشينوف : «المنتخبات الفلسفية والنفسية» ص٣٣٣ .

البصرية تعطينا صور حقيقية، بوجه عام، عن تلك الاوضاع. الواقع أن تقدير الادوات الهندسية للزوايا يحدث بصورة أدق من تقدير العضلات المحركة للعين. ولهذا فصور المنظر الحادثة بواسطة العين تكون أقل دقة، وهو أمر يتبدى خاصة عندما تكون الاشياء مغرقة في بعدها. ولكن العين، على العموم، تعكس الواقع بشكل حقيقي في هذا المجال أيضا. وبالامكان أيضا تبيان أن العين تعكس المقادير النسبية للاجسام عكسا صحيحا تقريبا.

ان الواقع التالي يثبت، بصورة عامة، صحة انعكاس العالم الخارجي في الاحساسات البصرية. فالانسان المندفع بسرعة كبيرة بين أجسام محيطة به ومبعثرة كثيراً في طريقه، وغالبا ما تكون ذات أشكال كثيرة التعقيد، يستطيع تجنب العوائق بنجاح بفضل ارشاد عينيه له. هذا النجاح لانحوزه الا اذا قامت العينان بعكس أشياء العالم الخارجي عكسا صحيحا وبسرعة كبيرة. وهناك احساسات أخرى هي انعكاسات العالم الخارجي وصوره. ولهذا يمكن الحديث عن «صور» صوتية وضوئية لعمليات العالم الخارجي. ان احساساتنا الصوتية تعكس بأمانة حركات الاجسام الصوتية. ويمكن الحكم على صحة هذا الواقع بالاعتماد على ماتبينه الاجهزة الفيزيائية التي تسجل حركات الاجسام الصوتية تسجيلا دقيقا. فما يكاد ينبعث صوت الجسم حتى ينشأ الاحساس بالصوت. ومع انقطاع الحركات الصوتية يتوقف الاحساس الصوتي. وفي الوقت الذي تتغير فيه الحركات الصوتية شدة وذبذبة وتواصلا، تتغير الاحساسات الصوتية ارتفاعا ونغمة وطولا. والفرق في جرس الصوت المدرك يتجاوب والفرق الموضوعي في طابع الحركة الصوتية... الخ.

ويتمتع الاحساس (والادراك)، باعتباره شكل انعكاس العالم، بصفتين هامتين: أولاهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس مباشر للعالم المادي (فبين الاحساس، باعتباره عنصر الوعي، وبين الواقع الموضوعي الذي يعكسه لاتوجد أية حلقات وسيطة). وثانيتهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس الخواص المعينة لأجسام مادية حسية: عبارة عن انعكاس لا اللون بشكل

عام، بل انعكاس لون جسم معين، في وقت معين، وفي ظروف معينة، عبارة عن انعكاس لا الوزن بشكل عام، بل انعكاس وزن جسم معين، في وقت معين، وفي ظروف معينة. . . الخ.

ليس الانسان كائناً بيولوجيا فحسب، بل وكائنا اجتماعيا. وأعضاء حواس هذا الانسان ليست نتاج التطور البيولوجي فحسب، بل ونتاج التطور الاجتماعي أيضا. ان الانسان اذ يعمل، ويؤثر على الطبيعة، يتغير هو نفسه، في الوقت ذاته، وتتغير أعضاء حواسه. فعين النسر تبصر الى أبعد مما تبصر عين الانسان المجردة، ولكن عين النسر لاتميز واحداً بالمائة مما تستطيع رؤيته عن الانسان. ان البصر والسمع، والشم، واللمس، هي نتاج تطور الانسان التاريخي، نتاج تلاؤمه مع شروط وجوده، مع خصائص نشاطه العملي. والقدرة على التحسس والادراك عطاء في حوزة الناس جميعا. الا أن الفنان قادر، بفضل خبرته العملية، على تمييز فروق دقيقة في الالوان أعظم مما هو في استطاعة الناس الآخرين. ثم ان سمع العديد من الحيوانات قادر على استرقاق ما لايكاد يسمع من الاصوات، الا أن الانسان المتطور في مجال الموسيقى، قادر على سماع عدد من الاصوات أكبر بها لايقاس مما تسمعه أغنى آذان الحيوان حساً كأذان الكلب مثلا.

ان ادراك الانسان للعالم ليس هو ادراكا تأمليا سلبيا، ليس هو ادراكا انعكاسيا جامداً. انه ادارك فعال. فالانسان يتحسس ويدرك أشياء العالم المحيط به وظواهره، في سياق العمل، وفي سياق النشاط الاجتماعي المحول للعالم، مما يتيح له التعرف على العالم بشكل أعمق. وتلعب دوراً في سياق ادراك الانسان للعالم المحيط به لا أعضاء حواسه والاشياء المدركة من قبله فحسب، بل وجميع ماكدسه الانسان والانسانية من تجربة تاريخية أيضا.

ونحن غالباً ما نكون على صلة بالكثير من أشياء الوسط المحيط بنا. وقد أصبح دماغنا، بفضل الادراك المتكرر المتعدد لأشياء بعينها، قادراً على استحضار صور كاملة للأشياء لا، فقط، عندما تبعث فينا مباشرة مجموع تلك

الاحسـاسات التي هي قادرة بشكل عام، على بعثها فينا، بل وعندما تبعث فينا، عملياً، بعض فئات هذه الاحساسات فقط. فعندما أنظر، مثلا، الى شمعـدان معـدني أعـرفـه، فانني أدركه لا كشيء يتمتع فقط بشكل خارجي معين، بل وكشيء صلب، بارد، ثقيل. ان الشمعدان في اللحظة الراهنة، لايبعث في، مباشرة، لا احساسات لمسية ولا حرارية ولا وزنية، مادمت لا ألمسه. الا أن هذه الاحساسات قد سبق أن نشأت في الماضي، لا نتيجة النظر اليه، بل نتيجة أخذه بيدي، وتحسسه، وتقدير وزنه. . وبفضل ذلك تكونت في وعيي مجموعـة ثابتـة من الاحسـاسات التي تشكل صورة للشيء ككل، تشكل فكرة عنه. فما أن أرى الشمعدان الآن، وتنشأ لدي احساسات بصرية فقط، حتى تنشأ أيضا عندي، بالتداعي، صورة عن الخصائص الاخرى لهذا الجسم.

وهكذا فالدفاع قادر على اعطائنا فكراً، صوراً عن تلك الاشياء في الوقت الـذي لاتثير فينا احساسات عنها. وهذه الصور، تبدو، وكأنها نتاج النشاط الاعتباطي للوعي. الا أن الامر على خلاف ذلك. فلا يمكن أن تتكون الا صور تلك الاشياء التي أثارت فينا، عمليا، في وقت ما، احساسات طبعت آثـارهـا في دمـاغنـا. ان الصور التي تقوم على الاحساسات والادراكات هي انعكاسات وصور للعالم المادي، شأنها شأن هذه الاحساسات والادراكات.

ولكن كيف نفسر ما ينشأ عن النشاط النفسي للدماغ من صور تمثل مخلوقا نصفـه انسان ونصفه الآخر حصان، أو تمثل عروس البحر التي نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة؟ ان أمثال هذه المخلوقات لم يرها ولم يلمسها انسان على وجــه البسيطة، وهي لم تثـر فينـا أية احسـاسـات لسبب بسيط هو أنها غير موجـودة. ومـع هذا فان صورهـا الذهنية موجودة. أولا يدحض هذا الفكرة المادية القائلة بأن الاحسـاسـات، بأن الادراكات، والصور عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي، عن انعكاس العالم المادي؟ كلا وألف كلا. تشهد على ذلك بوضوح تلك الاجزاء التي يتألف منها جسم عروس البحر والحصان الانسان. .

ان الناس الذين لم يقدر لهم أن رأوا الحصان والسمك، لا يمكنهم أن يكونوا صورة عروس البحر والحصان الانسان.

لما كانت الصور غير مرتبطة بتوفر الاحساسات في وقت معين، فهي تتمتع باستقلال نسبي، ويمكن أن يمتزج بعضها ببعض كيفيا في الدماغ. ويستطيع خيال الانسان أن يجمع بين عناصر أكثر الصور تباينا، هذه الصور التي تكونت على أساس ما كان من احساسات وادراكات في وقت ما. الا أن هذه العناصر كلها، ليست في نهاية المطاف، غير انعكاس للواقع الموضوعي.

وحتى التصورات الخيالية التي لاتعرف حداً لاتنفصل عما تتحسسه الاحساسات عند عكس هذه للعالم الخارجي. وما نتاج التصورات الخيالية الانسانية، مهما كانت عليه من بعد عن الحقيقة الا انعكاسا صحيحا أو مشوها عن الواقع. بين التصورات المشوهة للواقع نجد الشيطان والجن ومختلف كائنات ماوراء الطبيعة. ونحن واجدون، حتى في هذه الصور التخيلية، سمات انسان الارض. فالجن والشياطين وكائنات ماوراء الطبيعة الاخرى تعزى اليهم هذه الخصائص الانسانية أو تلك، ولكن في حدها الاعظمي من الافراط.

ان أشياء العالم الخارجي وظواهره تنعكس في التصورات، خلافا للاحساس والادراك، لابجميع الخصائص الفردية العديدة، بل تنعكس فيها من دون تفاصيل كثيرة. ففي التصور تحتل المكان الاول من الوضوح بعض السمات النموذجية العامة للاشياء والظواهر المتشابهة. ثم ان التفكير الذي يستخدم المفاهيم أداة له هو، أيضا، انعكاس للعالم الخارجي. وهذا الشكل في انعكاس العالم غير ممكن من غير احساسات أيضا. الا أن التفكير، خلافا للاحساسات والاداراكات والتصورات، لايتمتع بطابع حسي مجسد، وهو لايعكس الاشياء والظواهر المنفردة فحسب، بل ويعكس، بصورة رئيسية، ماهو عام في الاشياء والظواهر، يعكس جوهرها الداخلي، والصلات والقانونيات الخاصة بها. ويحدث هذا الانعكاس المعمم للواقع عن طريق

التفكير المجرد بمساعدة المفاهيم.

لنأخذ، على سبيل المثال، مفهوم « الكتلة ». هذا المفهوم، هو، من حيث المحتوى، انعكاس للخاصة الموضوعية العامة التي تتمتع بها جميع الاجسام المادية استثناء (الكبيرة منها والصغيرة الملساء والخشنة، والسوداء والبيضاء، والباردة والحارة، وذات الرائحة والخالية من الرائحة)، وهي خاصة تنحصر في أننا، اذا أردنا احداث تغيير معين في هذه الاشياء، في فترة زمنية معينة، لابد لنا من أن ندفعها بقوة معينة. ان خصائص الاجسام لا أهمية لها في هذا المجال، كما لا أهمية لاختلاف نوعية القوى التي تدفع هذه الاجسام. بيد أنه كي نتوصل الى استيعاب وجود خاصة عامة في الاجسام تنعكس في مفهوم الكتلة، لابد للاحساسات أن تعكس في دماغ الانسان ملايين الحوادث الحسية لتبدل سرعة الاجسام تحت تأثير القوى المختلفة.

ان جميع النظريات العلمية بحق هي انعكاس صحيح للعالم المادي، مهما كانت عليه هذه النظريات من التجريد من حيث الصيغة. لنأخذ نظرية القيمة القائمة على أساس العمل. فمقولة القيمة عبارة عن تجريد، ولكنها تعكس، بعمق ودقة، جوهر ظواهر المجتمع الرأسمالي السلعي، تعكس العلاقات بين منتجي السلع. انها، وحدها، القادرة على تمكيننا من فهم مصدرر فضل القيمة، في الرأسمالية، والعلاقات المتبادلة بين البروليتاريين والرأسماليين. أو لنأخذ نظرية حركة « السائل المثالي » في علم السوائل. ان السائل المثالي هو السائل الذي لايجوز احتكاكاً داخليا (لزوجة) ولاينقل الحرارة. هذا السائل بالذات لاوجود له في الطبيعة. فهل يعني ذلك أن نظرية حركة هذا السائل لاتعكس أي شيء واقعي ؟ كلا لا يعني ذلك. ففي شروط معينة تكون اللزوجة، في بعض السوائل، ضئيلة الى درجة لاتؤثر، معها، تأثيراً أساسيا، على طابع حركتها. كذلك القول بالنسبة الى نقل الحرارة. فمفهوم السائل المثالي يبدو، اذن، انعكاسا لسائل حقيقي في مثل تلك الظروف بالذات، وتبدو النظريه انعكاسا لجريان سائل حقبقي.

يقول لينين : « ان نظرية الفيزيائيين عبارة عن انعكاس **للأجسام والسوائل** والغازات الموجودة خارج وعينا، وبشكل مستقل عنه. بيد أن **هذا الانعكاس** تقريبي، طبعا، ومن الخطأ تسمية هذا « التقريبي » او المبسط « **تعسفاً**[1] » وهذا ينطبق أيضا على جميع النظريات العلمية في الفروع الاخرى من المعرفة.

ان انعكاس العالم في التفكير المجرد ليس انعكاسا مباشراً؛ وذلك لقيام الاحساسات والادراكات والتصورات بين التفكير والواقع الموضوعي.

وتحصل المعرفة الصحيحة المتكاملة الاطراف نتيجة عمل فكري طويل شاق. وربما عبر بعض الأخطاء، مثل مفهوم « المادة الحرارية العديمة الوزن » ومفهوم المادة النارية التي هي أساس الاحتراق في كل جسم قابل للاشتعال، وهما المفهومان اللذان وجدا في زمن ما. ولكن حتى في مثل هذه المفاهيم الخاطئة انعكست بعض خصائص الظواهر الواقعية. هكذا انعكست في مفاهيم « المادة الحرارية العديمة الوزن » بعض خصائص التيارات الحرارية مما أتاح وضع نظرية نقل الحرارة التي احتفظت أفكارها الاساسية بأهميتها حتى الآن.

كيف نتمكن من تمييز المعرفة الصحيحة، والانعكاس الصحيح، للعالم المادي، عن الاخطاء والتخبط ؟ ترى هل في حوزة الانسانية وسيلة دقيقة للتأكد من صحة عكس الوعي للواقع ؟ نعم. ان هذه الوسيلة هي نشاط الناس العملي. وسنعالج في الفصل التاسع مقياس الحقيقة، ونوضح ديالكتيك المعرفة، وقوانين تطورها.

يقول لينين : ـ ان أهم ميزة يتميز بها المادي عن المثالي، هي أن الاحساس، ان الادراك، ان التصور، وبصورة عامة، وعي الانسان، ينظر اليه على انه صورة للواقع الموضوعي. ان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا. وحركة التصورات، والادراكات .. الخ تتلاءم وحركة

---

(1) لينين : «المؤلفات» الجزء ١٤ ص٥٣

المادة خارج ذاتي »[1].

لاشك أن مقدرة الدماغ على عكس العالم الخارجي في الاحساسات والتصورات والمفاهيم مدهشة الى حد أن المثاليين جعلوا الوعي في وضع فريد بالنسبة الى ظواهر العالم كلها، فمنحوه قوة خارجة عن الطبيعة الى حد التأليه. ولكن الوعي لايتضمن أي شيء خارج عن الطبيعة. انه خاصة من خواص المادة. صحيح أنه خاص بالاجسام المادية الرفيعة التطور ولكن هذا لايعني أنه ينشأ في المادة المتطورة نشوءً مفاجئاً دون أن تكون أسس في خصائص أخرى للمادة أكثر بساطة.

وينشأ الاحساس، قانونيا، عن تطور وتكامل امكانية الانعكاس الخاصة بالمادة كلها. وقد أشار لينين الى أنه لاصحة للظن بأن كل مادة « واعية ». غير أن « من المنطقي بأن المادة بمجملها تحوز خاصة قريبة من الاحساس، من حيث الجوهر، هي خاصة الانعكاس »[2].

فما هي هذه الخاصة ؟ ان جميع الاجسام المادية بلا استثناء، يؤثر بعضها في الآخر، الى هذا الحد أو ذاك. وأبسط شكل لهذا الانعكاس الملازم للمادة كلها، هو تبدل يطرأ على بعض الاجسام المادية تحت تأثير بعضها الآخر، تنطبع بواسطته (التبدل) خواص التأثيرات الخارجية في الاجسام المادية. مثل هذا الشكل من الانعكاس معروف بوضوح في الطبيعة اللاعضوية كانعكاس الاشياء في المرآة. ان جوهر هذا الانعكاس قائم في اعادة توزع أشعة الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة. فاعادة توزع الاشعة المكاني عبارة عن رد فعل الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة. وفي خصائص اعادة توزع الحزمة الضوئية تنطبع خصائص الاجسام المعكوسة. ان تبدل خواص الحديد تحت تأثير الحقل المغناطيسي هو أيضا شكل خاص من الانعكاس. وتبدل

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤.

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٨١ وكذلك ص ٣٤.

خواص الحديد هو رد فعله على التأثير الخارجي، وفي مغنطته تنطبع خصائص هذا المؤثر الخارجي.

ان طابع الانعكاس الناجم عن التأثيرات الخارجية يتحدد بطبيعة التأثيرات كما يتحدد بخصائص الجسم المعاكس، بخصائص نوعيته. ويؤدي نشوء الاجسام المادية المتزايدة باستمرار في تعقيدها، والقادرة على الدخول في صلات وتأثيرات متبادلة متزايدة التعقيد مع الاجسام الاخرى، يؤدي الى ظهور أشكال انعكاس جديدة أكثر تعقيداً. ان شكل الانعكاس الذي يلائم أبسط الاجسام المادية المعروفة، هو الشكل الفيزيائي المعبّر عنه بتغير وضع هذه الاجسام الفيزيائي، وبظهور ردود فعل فيزيائية ذات علاقة قانونية بالتأثيرات الخارجية المذكورة أعلاه. هكذا يجيب الاليكترون على تأثير الساحة الكهربائية الخارجية عليه، بتغيير السرعة (بالتسارع)، بتغيير بنية ساحته الخاصة، بقذف أشعة كهرطيسية. في هذه التبدلات تنطبع خصائص الساحة المؤثرة، انطباعا محددا. ويمكن الحديث، في مجال العمليات الكيميائية، عن شكل كيميائي خاص للانعكاس. ومع نشوء الاجسام الزلالية ظهر شكل جديد للانعكاس خاص بها، هو الحساسية. ان الزلاليات تتمتع بلدانة عظيمة وتتأثر كل التأثير بالوسط الخارجي. فبعض التأثيرات تحدث تبدلا شديداً الى هذا الحد أو ذاك، في الخصائص الفيزيائية والكيميائية للزلاليات. (تحدث « تغيراً في طبيعة الزلاليات » دائمياً أو مؤقتاً). وتحدث تأثيرات أخرى جدّ دقيقة في بنية الزلاليات وفقا لظروف الوسط الجديدة، كما تظهر خصائص وسائطية جديدة (أي خصائص التسريع أو الابطاء الشديد لجريان التفاعلات الكيميائية)، وهي خصائص تتصف بطابع التكيف مع الظروف الخارجية المتغيرة. ان أحد مظاهر حساسية الاجسام الزلالية هو قدرتها على تغيير أحجامها وشكلها تحت تأثير العوامل الخارجية، وهذه القدرة مرتبطة بوجود أجزاء خاصة في بنية الجسم الزلالي، وهي مجموعات متفاعلة أو وظيفية.

ان ظهور المادة الحية قد صوحب بظهور شكل بيولوجي من أشكال

الانعكـاس أكثـر تعقيداً هو قابلية التـأثر أو (الانفعال). وليست حساسية الجسم الـزلالي بالنسبــة لشكــل الانعكــاس هذا الا عبـارة عن « سلفـه الكيميائي » . ان قابلية التأثر هي قدرة كل ماهو حي على الاستجابة للمؤثرات الخـارجية بتنشيط أو تثبيط تبـادل المـواد وبتغيير سرعـة النمـو وبتغيير المكان وماشابه ذلك . . مما يؤدي الى تكيف العضوية مع ظروف الوسط المتغيرة. ان تطور الحياة قد أدى خطوة فخطوة الى تعقيد هذا الشكل من الانعكاس.

وعـلى أساس التخصص المتزايد في وظائف مختلف أنسجة وأجزاء الجسم أخذت العضويات خلال ارتقائها تتوصل الى درجات أعلى فأعلى من الكمال في عكس ظروف الوسط الخارجي . وقد رافق هذا تغير بنية العضويات نفسها، هذا التغير الذي جرى طبقا لظروف الوسط المحيط.

ان العضـوية والـوسط ـ يشكـلان وحـدة. ويعتـبر هذا القـول الموضوعة العظيمة الاهمية في تعاليم ميتشورين حول تطور الطبيعة الحية. وهي تسمح بدراسة الانعكاس البيولوجي من وجهة نظر جد عريضة. اذ لاينبغي اعتبار أن الانعكاس البيولوجي هو فقط هذه الاستجابات الحسية أو تلك التي تقوم بها العضويات متأثرة بمؤثرات معينة من الوسط الخارجي في لحظة معينة، بل انه العملية الارتقائية اللا متناهية بمجملها لتطور العضويات والتي تتكيف خلالها هذه العضويات طبقا لظروف الوسط الخارجي المتغيرة.

ومـــع ظهــور جهـاز عصبي متـطور لدى العضـويات، ناشىء عن تلك الانسجـة التي تخصصت في نقل التأثرات، اتخذ العكس البيولوجي صفات جديدة ذات أهمية مبدئية. وبالطبع فان جوهر العكس البيولوجي لم يتغير، فهو لايزال كالسابق يقوم في ايجاد الصلة بين العضوية والوسط، تلك الصلة التي يعتبر وجودها سبباً في توافق خواص العضوية وسلوكها مع الوسط. ولكن عند توفـر جهاز عصبي مركزي فان صلات العضوية مع الوسط لاتقوم فقط من خلال عوامل الوسط التي تتصف بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان. اذ أنها الى جانب ذلـك تقـوم أيضا من خلال العديد من العوامل التي لاتتمتع

بأهمية بيولوجية مباشرة. وهذه الاخيرة هي بمثابة الانذارات والاشارات الدالة على ظهور العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان. ان مثل هذه الصلات تقوم خلال التطور الفردي للحيوانات في حالات يكون فيها تأثير عامل ما من العوامل التي ليس لها أهمية بيولوجية مباشرة سابقا، لسبب من الاسباب، لتأثير عامل ما من العوامل التي لها أهمية بيولوجية جوهرية ويكون سابقا بشكل مباشر.

واذا تكرر هذا التوافق عدداً كافياً من المرات فانه يصبح من الكافي وجود العامل الثاني وحده دون وجود العامل الاول لكي يظهر لدى الحيوان رد الفعل الذي يثيره لديه العامل الاول المتمتع بأهمية حيوية مباشرة بالنسبة اليه. فاذا نحن مثلا أشعلنا مصباحا أمام كلب قبل أن نقدم له الطعام مباشرة فانه بعد عدد من المرات يتكرر فيها هذا التوافق بين تقديم الطعام واشعال المصباح سيصبح لعاب الكلب يسيل حتى عند اشعال المصباح وحده بدون ظهور الطعام. ان اشعال المصباح، وهو أمر لايتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة ويعتبر بالنسبة للكلب شيئا لا معنى له البتة، قد أصبح في مثل هذه الظروف بمثابة شارة لظهور الطعام ـ وهو عامل له أهمية بيولوجية مباشرة. ان هذه الشارة تستدعي رد الفعل نفسه الذي يستدعيه العامل المشار اليه بالمصباح. ان ردود الفعل الجوابية لدى الحيوانات لا على العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بل على شاراتها التي نشأت لدى حيوانات خلال حياته المنفردة على أساس تجربة وجوده في ظروف معينة قد اكتشفت من قبل العالم إ. ب. بافلوف، الذي سما هذه الردود بالافعال المنعكسة الشرطية. ولم يكن العلم يعرف قبل بافلوف الا الافعال المنعكسة الفطرية التي سماها بافلوف : الافعال المنعكسة اللا شرطية. وهي عبارة عن ردود الفعل الجوابية التي تقوم بها الحيوانات تحت تأثير العوامل البيولوجية المباشرة، وهي الردود التي نشأت خلال التطور الارتقائي للحيوانات من نوع معين، والتي تثبت بقوة وأصبحت تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل. ومن جملة الافعال المنعكسة اللاشرطية مثلا

افراز اللعاب لدى الحيوانات عند تناول الغذاء، ورف الجفون عند ظهور شيء ما بشكل مفاجيء أمام العين وهلمجرا. ان الافعال العكسية اللاشرطية الاكثر تعقيداً تدعى بالغرائز. وكلمة « شرطية » تشير الى أن رد الفعل المعين لدى الحيوان يمكن أن يظهر في ظروف موافقة بواسطة أي عامل آخر لا أهمية بيولوجية له لو أن تأثيره اتفق مع تأثير عامل بيولوجي. ان الافعال المنعكسة الشرطية غير ثابتة ومتغيرة. فبعضها يمكن أن يختفي اذا كفت الشروط التي خلقته عن التكرار، وبعضها يمكن أن يظهر وفقا للظروف المتغيرة في حياة الحيوان. وبمساعدة هذه الافعال بالذات يحدث التكيف على الوجه الأكمل مع الوسط المحيط لدى الحيوانات العالية التطور. أما الافعال المنعكسة اللاشرطية فانها ثابتة وسائدة بالنسبة لكل النوع المعين من الحيوانات بأكمله، وهي بمثابة الاساس الذي تتشكل عليه الافعال المنعكسة الشرطية. ولايوجد بين الافعال المنعكسة الاولى والثانية حد مطلق لايمكن تجاوزه. فقد أشار بافلوف الى أن هناك امكانية تحول الافعال المنعكسة الشرطية الى لا شرطية.

ان مجموعة الافعال المنعكسة الشرطية واللاشرطية لدى الحيوانات ليست الا أعلى شكل لعكس هذه الحيوانات لظروف وجودها. ففي الافعال المنعكسة اللاشرطية ينعكس ماهو دائم أبدا تقريبا خلال حياة النوع. أما في الشرطية فينعكس تنوع العوامل المتغيرة التي تؤثر على الحيوان وتنوع علاقاته مع الوسط. ان انعكاس العالم في الافعال المنعكسة يخضع لقنونات خاصة يتحدث عنها بافلوف في تعاليمه المتعلقة بالافعال المنعكسة الشرطية والنشاط العصبي، وهي تعتبر انجازاً عظيما في العلم الطبيعي المعاصر.

ان الفعل المنعكس الشرطي يتميز عن غيره من أشكال الانعكاس الملازمة لانواع المادة المختلفة من حيث تعقيدها، يتميز بأهمية خاصة تقوم في:

١ - ان الفعل المنعكس الشرطي هو شكل من نشاط القسم الاعلى من الجهاز العصبي المركزي للحيوانات - أي نشاط دماغها. و٢ - أن الفعل المنعكس الشرطي ليس عملية فيزيولوجية محضة بل هو الى جانب ذلك ظاهرة نفسية

كذلـك. انـه أبسط الظواهر النفسية. ومع سير تطور العالم الحيواني، ارتقى النشاط الانعكاسي الشرطي للدماغ وتعقد تدريجياً. ولكن هذا النشاط لم يكن مجرد نتيجة منفعلة لهذه العملية البيولوجية الارتقائية. فما ان نشأ هذا النشاط حتى أبسط قوة فاعلة في تلك العملية. وبفضل توفر انعكاس الواقع في ردود الـفـعـل الشرطـي تكـونت ظروف جد ملائمـة لتسـير مع تطور العـالم الحيواني. وبذلك تأمنت اعادة تكون البنية العضوية ووظائفها، تكونا سريعا متلائما مع شروط الوسط المحيط. وبهذا اقترب الزمن الذي ظهر فيه الانسان، لاول مرة، على الارض مع الوعي الذي يلازمه باعتباره شكلا انسانيا خاصا لانعكاس الواقع.

لنر الآن الصفات المميزة لهذا الشكل الجديد من الانعكاس. ان الحيوانات تعكس الوسط الخارجي حسب متطلباتها البيولوجية المحضة فقط، أي مايرتبط بالدرجة الاولى، بالشروط البيولوجية الاساسية لوجودها. وهي لاتعكس من الظواهر العديدة الاخرى، ظواهر العالم المحيط بها، الا ماأصبح شارة لتلك الشروط البيولوجية. هذا الانعكاس ليس نتاجاً للوعي، ويلعب الانعكاس بواسطة الشارات أهم دور فيه.

ان الـظواهـر ذات الطابع غير البيولوجي عندما ترتبط في علامة زمنية مع الظواهر البيولوجية تصبح بمثابة شارات للواقع. وقد سمى « بافلوف » مجموع هذه الشارات التي تعبر عن غنى العلاقات بين الحيوان وبين الظروف الخارجية باسم نظام الشارات الاول. وهو النظام الوحيد الذي يتوفر لدى الحيوانات. وبما أن الاجسام والظواهر الملموسة هي، وحدها، التي تشكل أساس شارات هذا النظام، لذا فان عالم الحيوانات النفسي القائم على أساس النظام المذكور، يعتبر انعكاسا حسيا ملموسا حتى في أكثر أشكاله تطورا.

هذا الـنـظام الاول لاتستقل به الحيوانات فقط بل ويشاركها فيه الانسان أيضـا. وهـو يلعب الدور الاساسي في سني الطفل الاولى، كما يتمتع بأهمية بالغة عند اليافعين. غير أن هذا النظام ليس بالنظام الوحيد عند الانسان. انه

أعجز من أن يشمل كل غنى شكل انعكاس الواقع لدى الانسان. ان الدور الحاسم هنا يقع على عاتق نظام الشارات الثاني، الذي يميز، جذريا، أسلوب الانعكاس الخاص بالانسان، عن أسلوب الانعكاس الخاص حتى لدى أكثر الحيوانات تطورا. ويتكون النظام الثاني من الكلمات المسموعة والمرئية، أي من الكلام البشري. ان الكلام عبارة عن وسائل اثارة حقيقية، شأنها شأن وسائل الاثارة الخارجية الاخرى، ولكنها عن غيرها باستخدامها كتفسير، وكشارات لتلك الاجسام أو الظواهر التي تؤلف نظام الشارات الاول، أي انها تصبح شارة الشارات.

يقول « بافلوف »: « ان الانسان يتمتع، بنظام شارات آخر هو شارة نظام الشارات الاول، أي يتمتع بالكلام... وبهذا يضاف عامل جديد للنشاط العصبي، عامل تجريد وتعميم شارات النظام السابق التي لاحصر لها، عامل يحدد شروط قدرتنا اللامحدودة على توجيه أنفسنا في العالم المحيط بنا، ويشكل، العلم المعتبر درجة رفيعة من تلاؤم الانسان مع الوسط المحيط به »[1].

ويتبين من الدور الذي تلعبه الكلمة، يلعبه الكلام، بالنسبة لنظام الشارات الاول (شارة الشارات)، أن كلا من هذين النظامين يعمل، لابشكل مستقل عن الآخر، بل في صلة وثيقة معه، وبصورة متفاعلة. ولاينمو نظام الشارات الثاني الا على أساس الاول، ويتأثر بخصائصه. كما أن الاول يتكون، نتيجة لوجود الثاني، كانعكاس حسي مَوْعيّ.

ان كل مايعكسه نظام الشارات الأول، ومايدل عليه الكلام فيما بعد، يصبح مَوْعيّاً. والطابع الموعى الذي يتسم به الانعكاس الانساني يعتبر الخاصة الاساسية في هذا الانعكاس، التي تميزه عن الانعكاس الخاص بالحيوان. ومن أجل ابراز هذه الخاصة يسمون الانعكاس الانساني بالوعي.

ثم ان شكل الانعكاس الانساني (الوعي) يتمتع بسمة هامة أخرى، تقوم

---

(١) « بافلوف »: « المجموعة الكاملة » الجزء الثالث، الكتاب الثاني، ص ٢١٤ ٢١٥

على أن الوعي عامل فعال جداً في تأثير الانسان على الطبيعة في مجال العمل. فبفضل العمل يتلاءم الانسان مع الشروط الخارجية لابتغيير نفسه وأعماله فحسب، بل وعن طريق تغيير الشروط الطبيعية الخارجية. ان الحيوانات لايعدو نشاطها حد التلاؤم مع العالم الخارجي. أما وعي الانسان الذي هو نتاج ظروف وجوده الاجتماعية والتاريخية، ونتاج نشاطه الاجتماعي العملي، فيصبح ذاته عاملا فعالا في النشاط العملي. ان الوعي مشروط بالواقع، الموضوعي من حيث مصدره ومحتواه العام. وبهذا المعنى لايمكن اعتباره شيئاً مستقلا تمام الاستقلال عن الواقع الموضوعي. وهو، بالاضافة الى ذلك، ليس مجرد انعكاس لما هو قائم في العالم، في اللحظة الراهنة، وفي الظروف الحالية فقط، فالنشاط الابداعي الذي يقوم به الدماغ يحول، بالاعتماد على قوانين التفكير، شكل الحاضر الى شكل جديد يتناسب مع ظروف أخرى تحل في المستقبل البعيد أو القريب. وفي هذا ينحصر استقلال الوعي النسبي. فبامكان الوعي استباق سير الاحداث الفعلي، والتنبؤ بالنتائج التي ستنجلي عن الاحداث. وهو بهذا يحفز الانسان الى نشاط هادف اما الى بلوغ هذه النتيجة، أو الى تجنبها. ان النتائج المتوقعة لتطور الاحداث، وهي النتائج التي يهدف اليها الانسان، ويلعب نشاطه دورا جوهريا في بلوغها، يسميها الهدف. ان تحديد الاهداف، والبحث الفعال عن الوسائل والطرق المؤدية الى بلوغ حتى أبعدها منالا، يشكلان السمة المميزة للوعي. وعلى هذا الاساس يقوم نشاط الناس العملي. وقد أصاب هيغل اذ قال: « ان العقل داه بقدر ماهو جبار». ان دهاءه هو، على العموم، في نشاطه المتخذ الوسائل أداة له، جاعلا الاشياء تتبادل التأثير وفقا لطبيعتها، محققا الهدف الذى سعى اليه، دون أن يتدخل مباشرة في هذه العملية»[1].

وفي واقع الاستقلال النسبي للوعي يتجلى التناقض الديالكتيكي الخاص

---

(١) هيغل: « موسوعة العلوم الفلسفية » موسكو عام ١٩٢٩ ص ٣١٨ - ٣١٩.

به. فكلما اقترب الوعي من الواقع، وعكسه بدقة وكمال اوفى، تمتع بدرجة أعظم من الاستقلال، لأنه بهذا، يستطيع الابتعاد بقوة أعظم عن الحاضر، والتطلع تطلعا أبعد الى المستقبل البعيد دون أن يفقد محتواه القيم، دون أن يتحول الى أوهام وتخيلات فارغة.

ان استيعاب الناس لانعكاس العالم الخارجي يخضع سلوكهم لرقابة عقلهم الخاص. فالانسان ليس شيئاً آلياً يخضع لتأثير القوى اللاشعورية، «اللاعقلانية» ولتأثير «الغرائز العمياء» كما يذهب اليه مثلا مذهب فرويد. فالعقل والارادة يلعبان دوراً عظيماً في مجمل سلوك الانسان. وهذا مايميزه عن الحيوانات، ويسمو به عما تبقى من الطبيعة، التي هو جز منها. الا أن الانسان ليس مجرد كائن طبيعي، بل هو كائن اجتماعي، قبل كل شيء. لهذا، فهو في سلوكه، كما سنرى، يتأثر تأثيراً حاسماً بشروط كيانه الاجتماعي بصورة خاصة. هذه الشروط هي التي تحدد عقله ووعيه وارادته.

ان بحث الطريق التاريخي لتطور خاصة المادة التي سماها لينين خاصة الانعكاس، يدفعنا لاستخلاص النتائج التالي:

١ ـ لم يظهر الوعي الا في مرحلة معينة من مراحل تطور المادة.

٢ ـ ان الوعي المرتبط ارتباطا وثيقا بأكثر أشكال المادة تطورا، أي بدماغ الانسان، هو وظيفة الدماغ المذكور.

٣ ـ ان الوعي، من حيث النشوء والمحتوى والدور، هو أكمل انعكاس للعالم الخارجي.

٤ ـ الوعي والانسان هما نتاج العمل، على حد سواء.

هذه النتائج هي تأكيد لعمق صحة حل القضية الاساسية في الفلسفة الذي قدمته الفلسفة الماركسية. وهي نتائج تثبت أسبقية المادة على الوعي. وهو أمر لاينبغي فهمه فقط بمعنى أن الوعي ينشأ عن المادة، بل وبمعنى أن محتوى الوعي يتحدد بالواقع المادي الذي يعكسه الوعي.

ان تاريخ تطور خاصة الانعكاس تعطينا أيضا جوابا على قضية امكانية

معرفتنا للعالم. فاذا كان الوعي قد نشأ وتطور، منذ البدء، كخاصة لانعكاس العالم، وكوسيلة نهتدي بواسطتها، ونحدد، على أساسها، سلوكنا في الواقع المادي المحيط بنا، فان واقع سلوكنا السليم انما يتحدث عن أن الوعي المختبر بالتجارب العملية هو انعكاس صحيح للواقع.

٣: ـ نقد « نظرية الرموز »
تطابق انعكاس العالم في الوعي مع الواقع

ان القول بأن الوعي هو انعكاس للعالم المادي يعتبر اساس النظرية المادية الخاصة بالمعرفة. فاذا كان الوعي انعكاسا للعالم الخارجي، فهو، بالتالي، ثانوي بالنسبة الى أولوية هذا العالم الموجود بصورة موضوعية، مستقلا عن الوعي. ذلك أن الانعكاس لايمكن أن يوجد من غير وجود الشيء المنعكس، في حين أن الشيء المنعكس يوجد مستقلا عن فعل انعكاسه. والاعتراف بهذا انما يعني نكران وجهة النظر المثالية والاخذ بوجهة النظر المادية.

ان أحد البراهين التي يلجأ اليها المثاليون في محاولتهم دحض نظرية الانعكاس، يتمثل في هذا الواقع، مثلا، واقع أن الاحساسات الضوئية لاتنشأ عن تأثير الضوء على العين فحسب، بل وتنشأ أيضا عن تأثيرات أخرى، وخاصة عن ضربة على العين، أو عن تيار كهربائي. وعلى هذا الاساس، صاغ الفيزيولوجي الالماني « نظرية تذهب الى أن الاحساسات لاتتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي بل باعضاء الحواس ذاتها، بـ«الطاقة النوعية » الملازمة لها. فمهما كان يصدر التأثير على العين، فان العين ترد، دائما، رداً واحداً، ترد باحساس ضوئي. وهو أمر تتميز به أيضا أعضاء الحواس الاخرى. وهذا يعني في زعم « موللر »، أن احساساتنا ليست انعكاسات للعالم المادي المحيط بنا. وقد سمي « فورباخ » هذه النظرات

بـ« المثـالـية الفيزيولـوجية » . ان النـظرات التي يعـرضهـا « المثـاليون الفيزيولوجيون » لايمكن اعتبارها مقنعة .

لقد كان « موللير » على صواب عندما لاحظ الخاصة التي يتميز بها رد الفعل لدى أعضـاء الحواس ، ولكنه أخطأ عندما فسر هذه الخاصة على أنها خاصة موجـودة منـذ البـداءة . الـواقع أن هذه الخاصة ليست مستقلة عن المؤثرات الخـارجية ، بل انها مشروطـة بطبيعة هذه المؤثرات . وقد نشأت هذه الخاصة نتيجـة تطور طويل على أساس تلاؤم وظائف أعضاء الحس مع تأثير مثيرات خارجية معينة . وبالتالي ، فان تكون هذه الخاصة ، ذاته ، لدى أعضاء الحواس هو انعكاس لوجود الكائنات الحية . فالعين ، مثلا ، تتلاءم وادراك تأثير الاشعة الضوئية : انها تصور على الشبكية جملة الحزمة الضوئية ، وعلى أساس الاثارة الحـادثـة في الـدمـاغ يتولد الاحساس البصري ، تتولد صورة مشابهة للشيء المنظور. صحيح أن المؤثرات المختلفة الواقعة على العضو الواحد من أعضاء الحواس ، وخاصة على العين ، يمكن أن تحدث احساسات من نوع واحد . الا أنه لاينبغي تجاهل الفارق الشاسع بين الاحساس الضوئي الناشيء ، مثلا ، عن منظر طبيعي منبسط أمامنا ، وبين الاحساس الناشيء عن ضربة تصيب العـين . الاول عبـارة عن احسـاس لوحة معينة ، مفهومة ، مشبعة بانسجام الالـوان والاشكـال ، ولهـا بنية تعبـيرية واضحـة ، وتنـاسق مقنون بين جميع أجزائها . أما الاحساس الثاني فهو احساس بشيء غير محدد ، ولاشكل له ، ولا يتمتـع بصـورة واضحـة ، ولا ببنية ولا بشخصية متميزة . قد يتراءى لنـا أن الاحسـاسـات الضـوئية النـاجمة عن النظر الى الاشياء ، وعن ضربة العين ، متشابهة ، في كلا الحالين ، من حيث الاساس . فالجملة العصبية ، والدماغ ، في كلا الامرين ، يتفاعلان مع شيء مادي واحد من حيث النموذج والطبيعة ، شأن الالـوان في علبة تلوين الرسام والالوان على اللوحة . الا أن هذا الشيء المـادي يختلف كل الاختـلاف من حيث الشكل . فهو في علبة التلوين مجرد خربشـة ، بينـما هو في اللوحة أثر فني . وهذا الفارق بالذات هو الذي يتمتع

بأهمية حاسمة. ان الاحساسات الضوئية تنشء صور أشياء العالم الخارجي بفضل الصيغة الملائمة.

يذهب « غيل مغولتز » العالم الطبيعي البارز في القرن التاسع عشر، والآخذ بأفكار « موللر »، الى انه لاتشابه بين الاشياء الخارجية وبين الاحساسات الناشئة عنها، رغم هذا النشوء. وليست هذه الاحساسات سوى رموز وشارات للأولى. وقد كتب « غيل مغولتز » في مؤلفه « فيزيولوجية البصريات » يقول: « لقد اعتبرت الاحساسات رموزاً للظواهر الخارجية، ونفي عنها كل تشابه مع الاشياء التي تمثلها »[1] كان ماذهب اليه « غي مغولتز » عبارة عن خطيئة كبرى، تنسخ نقطة انطلاقه المادية القائلة بوجود الاشياء خارج احساساتنا.

أما بليخانوف الذي عرض في أحد مؤلفاته نظرات مادية، صحيحة، على العموم، فلم يسم الاحساسات انعكاسات أو صوراً، أو نسخا للأشياء المادية، بل اعتبرها رموزاً هيروغلوفية لها. ونظرا للأهمية الفائقة التي تتمتع بها هذه القضية عالج لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » نظرية الرموز أو الهيروغلوفية، معالجة خاصة.

ان نظرية الرموز، أو الهيروغلوفية، تحمل الى نظرية المعرفة، عدم الثقة بدلائل أعضاء الحس. انها تحمل على الشك بوجود الاشياء خارجا عنا، لان الرموز، لان الشارات أو الهيروغلوف ممكنة حتى بالنسبة الى مالا وجود له في الواقع. وليست صور قوى ماوراء الطبيعة الا برهانا على هذه الرموز التي تمثل أشياء مزعومة.

تكشف أعضاء الحس لنا الحقيقة الموضوعية، وبمساعدة هذه الاعضاء نتعرف عليها. هذا مايعترف به أي انسان لم تضلله الفلسفة المثالية. يقول

---

(١) عبارة من كتاب لينين: « المادية ومذهب النقد التجريبي » المؤلفات. الجزء ١٤ ص ٢٢٠.

لينين : ان النظرية الرموز لاتنسجم مع مثل هذه النظرة (المادية ١٠٠٪، كما رأينا)، وذلك لأنها تشكك بالحس، تشكك بما تدلنا عليه أعضاؤنا الحسية. ولاشك أن الصورة لايمكن أبدا أن تتماثل كليا مع الاصل، الا أن الصورة شيء، والرمز، والشارة الاتفاقية، شيء آخر. ان الصورة تفترض بالضرورة وبصورة حتمية أن الشيء المعكوس ذو وجود موضوعي. أما الشارات الاتفاقية، أما الرمز، أما الهيروغليف، فهي مفاهيم تحمل عنصر نظرية عدم امكانية المعرفة، وهو لاداعي له هنا.

وعلى هذا، فلا يمكننا أن نكون منطقيين حتى النهاية في نظرية معرفة المادية، اذا لم نداقع عن النظرية القائلة بأن الاحساسات هي صور ونسخ وانعكاسات الاشياء والظواهر القائمة في العالم المادي، لا شاراتها الاصطلاحية، لا هيروغليفيها. ان الذهاب الى أن الاحساسات هي نسخ، هي صور لاشياء العالم الخارجي، أو الذهاب الى أنها رموز لهذه الاشياء، ليس هو مجرد جدل حول الكلمات والاصطلاحات، بل هو جدل حول جوهر نظرية المعرفة ذاته.

ان أعداء المادية، اذ يحاولون التشكيك بما تدل عليه الحواس، هذا التشكيك الذي يؤدي، كما رأينا، الى الريبة في وجود الواقع الموضوعي، وحتى الى انكاره كلياً، ان هؤلاء الاعداء، غالبا مايعتمدون على مايسمى بـ« خداع الحواس ».

يقول هؤلاء الاعداء : لنأخذ شيئين، موجودين في غرفة واحدة، وفي شروط واحدة، أحدهما معدني، والآخر خشبي. فاذا لمسنا بيدنا الشيء المعدني ثم الخشبي وجدنا، بشكل واضح، أن المعدن أبرد من الخشب، في حين لو قسنا حرارتها بمقياس الحرارة لوجدناها واحدة. وهذا يعني أن احساساتنا قد خدعتنا. زد على ذلك أن الحواس يمكن أن تعطينا في وقت واحد، شارات متناقضة لشيء واحد. فاذا وضعنا يدنا اليمنى في ماء ساخن، واليسرى في ماء بارد، ثم نقلناهما الى ماء عادي، تبين لنا أن اليد اليمنى تشعر بالبرودة، في

حين أن اليسرى تشعر بالحرارة، فأيهما هو الصحيح ؟ وهل يمكننا هنا أن نعتمد على دلائل أعضاء الحواس ؟

ولكن هل صحيح أن أعضاء الحواس التي تعمل بصورة طبيعية تخدعنا فيما تشير اليه، ولاتعكس الواقع الموضوعي بصورة صحيحة ؟ فلنتمحص المثال المضروب. ان درجة حرارة اليد قرابة ٣٦°، وحرارة الشيئين اللذين نتلمسهما تعادل حرارة الغرفة، أي تتراوح بين ١٨°-٢٠°. فاذا مالمسنا الشيئين بيدنا انتقلت حرارة اليد اليهما وفق قانون الفيزياء القائل بأن الحرارة تنتقل من الاجسام التي تتمتع بحرارة أعظم الى الاجسام التي تتمتع بحرارة أدنى. غير أننا عندما نلمس الخشب تتدفق حرارة اليد ببطء لسوء نقله اياها، أي لاترتفع حرارة غير الجزء الملموس منه تقريبا. أما في المعدن فحرارة اليد تسري بسرعة أعظم بسبب حسن نقله للحرارة وبسبب انتشاره في شتى أنحاء المعدن. وماتنقله الينا احساسات جلدنا الملامس للشيئين ليس هو غير انعكاس للفارق بين سرعتي انتقال الحرارة. وهكذا نرى أن هذه الاحساسات ليست بعيدة عن خداعنا فحسب، بل وتعكس لنا ناحية أخرى من الواقع، هي ناحية الفارق في نقل الحرارة عند الشيئين المذكورين. مما يدفعنا الى ضرورة دراسة الواقع بشكل أدق.

وعلى هذا الاساس أيضا يفسر التناقض في مدلولات أعضاء الحواس. ان اعضاء الحواس لاتخدعنا ولكنها تبين أن العمليات تسير في الاجسام بشكل متباين تبعا لتباين أحوال الاشياء، وماكانت عليه قبل بدء العملية المذكورة. لقد كانت يدنا اليمنى، في المثل الذي ضربناه، ساخنة في حين كانت اليسرى باردة. فلما وضعناهما في ماء واحد بدأت اليمنى تفقد بعض حرارتها، في حين بدأت اليسرى تكتسب من حرارة الماء. وهذا بالذات ماتشير اليه احساساتنا. نستنتج من هذا ان مدلولات أعضاء حواسنا التي هي مصدر جميع مانعلم عن العالم، ينبغي استقراؤها وتحليلها بشكل صحيح. آنذاك نتبين أنها ذهبت في صحة عكسها للواقع أكثر مما كنا نتوقع في البداءة. وليس هذا بالامر الغريب.

الـواقـع أننا في حياتنا نتعلم، تدريجيا، تفسير ماتدلنا عليه أعضاء الحواس، فالطفل لايدرك، في فجر طفولته، الفوارق بين أبعاد الاشياء: انه لايرى القمر أبعـد من الكرة، ويبذل جهدا واحدا لنوال ذاك وتلك. أما الانسان الراشد الذي ولد فاقد البصير، ثم أعيد اليه بصره اثر عملية جراحية، فهو لايدرك في الفـترة الاولى لاستعـادة بصره، تباعد الاجسام. فيبدو له كما لو أن الاشياء جميعـا قائمـة بالقـرب منه، ويخاف أن يتعثر بها في حين أنها بعيدة عنه. وهو لايكتسب القـدرة على حسن استخـدام عضـو النـظر لديه الا تدريجيا، وبمسـاعـدة بصره يكتشف دائـما جوانب جديدة وجديدة من الواقع. ولكن «حسن استخدام» أعضاء الحواس، انما يعني ربط نشاطها بنشاط التفكير. ولا يمكن الوصول الى عكس الواقع عكسا صحيحا الا عند توفر الوحدة التي لا انفصام لها، بين الاحساسات والتفكير.

وهكـذا فليس هنـاك مجال للشك المبدئي بما تدلنا عليه أعضاء حواسنا. ولكن هذا لايعني أن الاحسـاسات تعطي صورة دقيقة كل الدقة عن الواقع الموضوعي، في ذات اللحظة التي يصبح فيها هذا الواقه موضع ادراك أعضاء حواسنا. ان الصورة الاولية للاشياء المادية تتوضح وتغتني وتتكامل تدريجيا، على أساس الادراكات المتكررة كثيراً، وعلى أساس عمل الفكر المتحقق منه بمختلف أعضاء الحواس، وعلى أساس نشاط الانسان العملي المتعدد الجوانب.

ان انعكاس الاشياء في وعينا لايحدث مرة واحدة، وهو ليس صورة جامدة لا حياة فيها، بل هو عملية تمر في مراحل متعددة، هو عملية فاعلة من البحث والتجريب تقود أحيانا الى تجرد الفكر عن الواقع. وكما ان الفنان المزود بقماش اللوحـة والالوان لايستطيع رسم لوحته اذا ماجلس الى جانب أشياء دون أن يحرك ساكنا، ودون أن يرسم بفرشاته، كذلك الناس الآخرون لايستطيعون عكس العالم الخارجي في وعيهم بعمق اذا لم يكونوا ايجابيين وفعالين، ولم يقيموا بين الاشياء علاقات مختلفة.

يقـول لينـين : « ان الاحسـاس عبارة عن صورة ذاتية للعالم الموضوعي »[1] وهذا يعني أن الصورة (الانعكاس) موجودة في وعي الذات، وأنها ليست مادية بل ذاتية. وكون الصورة على هذه الحال انما هو مشروط ببنية الجملة العصبية، ببنية الدماغ، بطبيعة نشاطها. بيد أن هذه الصورة الذاتية هي انعكاس للعالم الموضوعي. وانعكاس العالم الخارجي في الوعي هو شيء موضـوعي من حيث نشـوؤه ومصـدره ومحتـواه. وبفضـل هذا، يتـوفـر في احسـاسـاتنا، في وعينا، ذاك الشيء الذي لايتعلق بالذات. لايتعلق بوعي الانسان. هذه التصورات والافكار التي يتناسب ويتطابق محتواها مع الاشياء التي يعكسهـا الـوعي، وبـالتالي لايتعلق لا بالانسان، ولا بالانسانية، هذه الأفكار والتصورات تسمى بالحقيقة الموضوعية.

ان الاعـتراف بالحقيقـة الموضوعية هو أحد الاركان الاساسية في المادية : « فلكي يكون الانسان ماديا لابد من اعترافه بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا أعضاء الحواس »[2].

ويعني وجـود الحقيقـة المـوضـوعية أن العالم ليس ماديا فحسب، بل ومن الممكن معرفته أيضا، لان التعرف على العالم يعني امكانية التوصل الى الحقيقة المـوضـوعية. والمادية، اذ تعترف بهذه الحقيقة، تعطي حلا صحيحا للناحية الثانية من قضية الفلسفة، الاساسية، وتدحض مذهب استحالة المعرفة.

ولمـا كان الـوعي يعـطي الصـورة الحقيقية عن العالم شيئا فشيئا، لادفعة واحـدة، لذا فان الانسـان الـذي لايؤمن بامكـانية المعـرفـة يتيه في بحر من الشكوك. فهو لايعرف فيما اذا كنا نستطيع، في مثل هذه الحال، التعرف على الـواقع الموضوعي أم لا ؟ واذا كنا نشك في صحة معرفتنا له فكيف نستطيع التعرف على وجود هذا الواقع أو عدم وجوده ؟

بيد أن هذه الشكـوك كلهـا ليست غير ثمرة للطريقة الميتافيزيكية المعادية

---

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٠٦.

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٢٠.

للديالكتيكية في معالجة عملية المعرفة. وذهابنا الى أن الواقع لايمكن التعرف عليه دفعة واحدة، لايعني أن مانعرفه عنه الآن غير صحيح. ان أنصار نظرية عدم امكـانية المعرفة، والمثاليين الذاتيين ينكرون الحقيقة الموضوعية. غير انه يمكن التعبير عن وجودها، بحصولنا، عمليا على النتائج التي كنا ننتظرها، على وجه العموم، وذلك انطلاقا من معارفنا عن الاشياء والعالم الخارجي. أما عدم نجاحنا في ذلك، فهو يعني اننا سنكتشف، عاجلا أم آجلا أخطاء في معارفنا ومحاكماتنا، لابد من اصلاحها. وقد سخر « تشيرنيشفسكي » في مقاله « طابع المعرفة الانسانية » سخرية لاذعة من المذهب المدرسي الريبي العقيم الذي يأخذ به أنصار استحالة المعرفة. وقد اتخذه « تشيرنيشفسكي » من محاكمة القائل باستحالة المعرفة الدائرة حول تمتع الانسان بيدين أم لا، مصدراً لسخريته هذه. يقول « تشيرنيشفسكي » ان الانسان الذي يبدو له أن يديه سليمتان، يبدو له كذلك، أن له يدين اثنتين. ولو أنه قدر لهذا الانسان أن يعرف أن له يدين، اذن لكان له يدان اثنتان. ولكن هل هو ذو يدين اثنتين أم لا ؟ هذا أمر لايعرفه ولايستطيع أن يعرفه، لاهو ولا أحد غيره من الناس. نحن لانعرف غير تصوراتنا عن الاشياء. أما الاشياء ذاتها فلا نعرفها ولانستطيع معرفتها. وبما أننا لانعرف الاشياء لذا لانستطيع مقارنتها بتصوراتنا عنها. ولهذا لانستطيع معرفة ماذا كانت تصوراتنا عن الاشياء شبيهة بالاشياء. ربما كانت شبيهة بها، ولكن قد تكون غير شبيهة بها. ان لدينا تصوراً عن اليد، وبالتالي، فهناك شيء مايثير فينا التصور عن اليد. ولكننا لانعرف ولانستطيع أن نعرف فيما اذا كان تصورنا عن اليد يشبه هذا الـ« شيء ما » الذي يبعث فينا التصور. ربما كان التصور شبيها به، وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً، يداً، في الواقع. ويكون لدينا يدان واقعيتان. بيد أنه ربما كان تصورنا عن اليد غير مشابه للـ« شيء ما » الموجود فعليا، الذي ننسب هذا التصور له. وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً غير موجود، وبالتالي لاوجود للأيدي لدينا. ونحن نملك، عوضا

عن اليدين، مجموعات ما لشيء ما، مجموعات ما لاتشبه اليدين، لشيء ما نجهله، ولكننا لانملك يدين. . . »[1].

تتصف الحقيقة الموضوعية بأنها : ١) غير متوقفة على عدد المعترفين بها سواء قلوا أم كثروا. وغالبا ماتحظى الحقيقة. وخصوصا في مجال المسائل العلمية للعقدة باعتراف قلة من الناس، في بادىء الامر. (٢) تنتزع الاعتراف بها، عاجلا أم آجلا، متغلبة على الاوهام والترهات، حتى ولو دعمت هذه بالقوة. ولنتذكر في هذا المجال تعاليم « كوبرنيك ». ان ملاحقة الكنيسة لانصار هذه التعاليم لم تستطع الوقوف في وجه انتشارها. كما أن الماركسية التي لم يكن يعترف بها منذ قرن سوى حفنة من الناس، أصبحت الآن نظرية تعتنقها ملايين غفيرة من الجماهير غازية القلوب والعقول. (٣) تؤدي الى نتائج ناجحة في النشاط العملي فيها اذا أحسن استخدامها.

ربما لايوجد في العالم فلاسفة ينفون وجود الحقيقة على العموم. ان أمثال هؤلاء الفلاسفة سيفشلون سريعا وهم يغوصون في تناقضات لامخرج لهم منها. وهم لايستطيعون حتى القول بأن انكارهم للحقيقة أمر حقيقي. والا فهم سيعترفون بوجود حقيقة واحدة على الاقل، وبالتالي فستنهار مواقعهم. ان كثيرا من أعداء المادية لاينكرون الحقيقة على العموم، بل الحقيقة الموضوعية «فقط». وهم يفسرون الحقيقة حسبما يحلو لهم فيذهب الماخيون منهم الى ان الحقيقي هو « الامر ذو الاهمية العامة »، في حين يذهب البراغماتيون الى أن الحقيقي هو الذي يؤمن النجاح. ان جوهر الحقيقة قائم في الموضوعية، وبانعدام الموضوعية تنعدم الحقيقة. لهذا كانت محاولة الماخيين والبراغماتيين خلق « الحقيقة » من دون الاعتراف بموضوعيتها، لاصلة لها بالمعرفة الحقيقية القادرة الجبارة. والحقيقية الموضوعية ستصبح، عاجلا أم آجلا، أمراً ذا أهمية عامة، أي معترفا به من العموم. بيد أن هذا ليس هو الشيء الرئيسي فيها.

---

(١) تشيرنيشفسكي : « المؤلفات الفلسفية المختارة » الجز الثالث ١٩٥١ ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧.

المهم لاعدد الناس المعترفين بها، (اذ أنها لاتتوقف على الانسان أو الانسانية) بل المهم هو كونها صحيحة أم لا، وهل تتناسب مع الواقع الموضوعي أم لا ؟ فمن المعروف أن تعاليم خاطئة، كالاوهام اللاهوتية، غالبا ماتغزو عقول عدد كبير جداً من الناس، ومع هذا فهي لاتصبح صحيحة لهذا السبب وحده. ان هذه النظرية أو تلك لاتعتبر حقيقية لمجرد انها ذات اهمية عامة، بل لانها تعكس الواقع اعكسا صحيحا، وتتأكد صحتها بالممارسة العملية. صحيح ان الحقيقة التي تطبق في الواقع تطبيقا صحيحا تؤدي الى النجاح، ولكن ليس كل مايؤدي الى النجاح هو الحقيقة بصورة عامة. يدل على ذلك أن بعض الناس اللا أخلاقيين ينجحون عن طريق الغش والخداع. ان الحقيقة الموضوعية هي الكنز الثمين الذي من أجله تعمل حواسنا وتفكيرنا بلا انقطاع، مكملا بعضها بعضا، وبفضله ترتقي المعرفة الانسانية من درجة الى أخرى.

٤ ـ الكلام والتفكير

ان التفكير المجرد والمعمم والحادث بواسطة المفاهيم المعبر عنها بالكلام أمر خاص بالانسان وحده. لقد أدى الارتقاء البيولوجي الى تطور العالم الحيواني حتى الدرجة التي نجدها عند أسلاف الانسان ـ الانسان القرد ـ ذوي المجموعة العصبية الرفيعة التطور، والقادرة على السير قدما نحو الكمال. بيد أن تحول سلفا ـ الانسان القرد ـ الى انسان، لم يكن نتيجة عوامل بيولوجية، بل نتيجة عوامل جديدة، أي نتيجة العمل الاجتماعي الذي أصبح نقطة انطلاق تطور لاشبيه له فيما تبقى من ظواهر الطبيعة. يقول انجلر: « ان العمل » بمعنى معين، هو الذي خلق الانسان. وقد ظهر الكلام والتفكير بفضل نشاط الانسان العملي، بالذات. ان الاستعمالات الاولى لاشياء الطبيعة، بصفتها أدوات للعمل، واعداد هذه الادوات الواعي، بشكل خاص، عملا على توسيع أفق الانسان البدائي توسيعا كبيرا، بأن كشفا له عن خواص

جديدة للاشياء المحيطة به.

وقد حقق الناس، فيما بعد، في سياق العمل الاجتماعي، اكتشافات جديدة وجديدة وسعت أفق تصوراتهم وادراكاتهم الحسية، وعملت على تطوير تفكيرهم تدريجيا. وقد أتاح التفكير، بدوره، امكانيات جديدة أمام تطور النشاط العملي الذي أدرك الناس في سياقه فوائد العمل الجماعي. يقول انجلز: «وبكلمة موجزة، لقد توصل الانسان الذي هو في سبيل التكون كانسان، الى مرحلة ظهرت فيها الحاجة الى أن يقول شيئا ما للانسان الآخر. فخلقت الحاجة عضوها الخاص. كانت حنجرة القرد اللا متطورة تتحول، عن طريق التنغيم ببطء، ولكن بصورة متواصلة، الى حنجرة قابلة للتنغيم أكثر فأكثر، في حين كانت أعضاء الفم تتعود تدريجيا على لفظ أصوات متتالية مؤلفة من مقاطع»[1]. هكذا نشأ الكلام المؤلف من مقاطع، اللغة، كما نشأ معه التفكير. ولم يكن بمقدور الكلام والتفكير أن ينشأ كخاصة شخصية لهذا الفرد أو ذاك. انهما، من حيث المصدر والمحتوى، يتصفان بطابع اجتماعي واضح. يقول ماركس وانجلز «ان الوعي كان منذ البداءة، نتاجا اجتماعيا، وسيظل كذلك مادام هناك بشر على العموم»[2].

ماان يظهر الكلام حتى يؤثر تأثيرا عظيما على النشاط العملي. فبدون الكلام الذي يربط بين الناس يتعذر الانتاج الاجتماعي العقلاني، في حدود واسعة الى حد ما. كما يؤثر الكلام أيضا على الناس الناطقين به، ذاتهم. ان العمل والكلام المؤلف من مقاطع يصبحان العاملين الرئيسين في تطور الدماغ. وهو أمر يرافقه تحسن في تطور أعضاء الحواس. فيما يلي برهان على مدى أثر النشاط العملي في تطوير هذه الاعضاء. ان الخبراء من عمال النسيج المتخصصين في نسج الاقمشة السوداء، يميزون حتى ٤٠ فارقا في اللون

---

(١) انجلز: «ديالكتيك الطبيعة» ص ١٣٤.

(٢) ماركس وانجلز: «المؤلفات» الجزء الثالث ١٩٥٥ ص ٢٩.

الاسود، في حين لايميز الآخرون أكثر من فارقين أو ثلاثة. كما أن الطحانين ذوي الخبرة الواسعة يستطيعون بالاعتماد على حاسة اللمس لديهم، تحديد نوع الطحين تحديداً دقيقا، ومعرفة المكان الذي أنبت قمحه. وتبلغ احساسات الشم عند الانسان درجة من الدقة والتحسس غير عادية فيما اذ دعت الحاجة العملية لذلك. وهكذا نجد مقتفي الآثار الافريقيين يتتبعون عن طريق الشم، الاسود والزرافات وحمير الوحش، تتبعا أفضل من كلاب الصيد.

ان فكرة الانسان يعبر عنها بالكلام. هذه الفكرة ذات غلاف لغوي عادة. فعندما ينقل احد الناس فكرته الى الآخر، يعبر عنها بالكلمات الملفوظة بشكل مسموع من الآخرين. هناك من يبدو لهم أن الكلام لا لزوم له الا من أجل ايصال الفكرة الى الآخرين. لذا فالكلام لايلزم الانسان نفسه من أجل التعبير عن أفكاره. وهذا خطأ. فكما أن اللوحة التي يرسمها الفنان لاتتكون الا نتيجة وجود الالوان، فنيا، على القماش، كذلك الفكرة لاتوجد عند الناس الطبيعيين الا بسبب وجود الكلمات والكلام. ولايمكن لاحدهما أن يوجد من غير الآخر. يقول ماركس: « اللغة هي الواقع المباشر للوعي، هي المادة الطبيعية للفكرة. ان مرد الرأي الخاطىء الذاهب الى أن الافكار يمكن أن توجد بدون الكلمات، هو أن الانسان عندما يفكر في ذاته، لايلفظ عملياً، لابصوت مسموع، ولابينه وبين نفسه، جميع الكلمات التي كان ينبغي أن يلفظها لو أنه أراد ايصال فكرته ذاتها الى شخص آخر. كما أن الانسان يشعر، أحيانا، بصعوبة كبيرة في اختيار الكلمات اللازمة، أو كما يقال، « لايجد الكلمات » لكي يعبر الآخرين عن فكرته، ويوضحها لهم، مع أن هذه الفكرة تبدو واضحة تماما بالنسبة اليه. هنا تبدو الكلمات لا قاصرة عن التعبير عن الفكرة فحسب، بل انها تجعل من الصعب فهمها. بيد أن هذا لايعني اطلاقا أن الفكرة المعنية توجد من غير غلاف كلامي. فنحن عندما نفكر في ذاتنا لانعطي، في الغالب، الاعظم، تعبيرا كلاميا مفصلا لافكارنا. ولكن اذا لم نجد، هنا، جميع الكلمات اللازمة لصياغة الفكرة بشكل مفصل واضح،

فلابد من وجود هذه الكلمات أو تلك، دائما. ونحن عندما نحاول التغلب على الصعوبات في انتقاء الكلمات اللازمة نصيغ الفكرة ذاتها. وعندما نعطي الفكرة تعبيرها الكلامي الكامل، تصبح هذه الفكرة واضحة ودقيقة ومنسجمة. فالغلاف الكلامي المفصل يسبغ على الفكرة أعظم قدر من الكمال لا من حيث الصيغة فقط، بل ومن حيث المضمون أيضا. ولا ينبغي أن نستنتج من قولنا بأن الفكرة واللغة غير منفصلتين، انهما شيء واحد. ويتجلى الفرق بينهما في أن الفكرة عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي، في حين أن الكلمة هي وسيلة التعبير، وسيلة تثبيت الفكرة، بالاضافة الى أنها وسيلة نقل الفكرة للآخرين. وبفضل الكلمة بالذات، يمكن أن ندرك أفكار الآخرين. واذا كانت الفكرة لاتوجد من غير كلمات، كذلك الكلمات تصبح مجرد أحرف فارغة من دون الفكرة، من دون ماتعكسه الفكرة. ان التفكير واللغة مترابطان ترابطا وثيقا فيما بينهما، ويشترط أحدهما الآخر.

ان أشياء العالم المحيط بنا، وظواهره، تنعكس مباشرة في الاحساسات التي تثيرها تلك الاشياء والظواهر. وهذا ماندعوه بالانعكاس الحسي للاشياء والظواهر الحسية مع جميع فوارق خصائصها الفردية. الا أنه ينشأ، على أساس الاحساسات، كما رأينا، شكل انعكاس ينعكس فيه، في اللحظة الراهنة، مالا يؤثر مباشرة على أعضاء الحواس، ولكنه ممثل بشيء آخر أو ظاهرة أخرى، تشير الى الشيء الاول. وهو أيضا انعكاس للواقع، مجسد، حسي، مع فارق توفر خطوة الى الامام في طريق التجريد والتعميم. ان امكانية التجريد مشروطة بأن الاشارة المدركة من قبل أعضاء حسنا هي شيء متميز تماما عما ترمز اليه هذه الاشارة بظهورها، كما أنها مشروطة أيضا بأن ظاهرة واحدة يمكن أن يشار اليها، في ظروف مختلفة، باشارات متباينة. وبالاضافة الى ذلك فان كل اشارة من هذا النوع، باعتبارها شيئا أو ظاهرة معينة بدقة، تخدم كممثل لظاهرة معينة بدقة. انها شارات حسية للأشياء والظواهر الحسية.

أما نشوء نظام الاشارات الثاني للواقع، عند الانسان، فقد أفسح

امكانيات لاحد لها، فعلا، أمام تطور الانعكاس المعمم والمجرد المتزايد، أمام تطور الانعكاس في المفاهيم. فالكلمة التي هي اشارة تستخدم كممثل لا لاشارة ما واحدة، بل لمجموعة كبيرة من الاشارات المتماثلة في نموذجها، وهي متشابهة في الامر الرئيسي والجوهري رغم تباينها في تفاصيلها. لهذا لاينعكس فيها شيء ما واحد ملموس، بل عدد من الاشياء والظواهر الموحدة الانموذج، وعدد من الروابط التي تربط هذه الاشياء والظواهر بعضها ببعض. فكلمة الفرجار لاتعني فرجارا بعينه، مع مايلازمه من خصائص فردية، بل الفرجار على العموم، أي نموذجا أو جنسا معينا من الاشياء، سواء أكان طوله ١٥، أو١٦ أو ١٤ سم ؛ وسواء أكان مصنوعا من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك . . . الخ. والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى. نستنتج من ذلك نتيجة هامة جدا : هي أن الكلام عبارة عن تجريد للواقع، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد. يقول لينين : « كل كلمة عبارة عن تعميم »[1]

مع هذه الخاصة للكلام يرتبط شكل النشاط النفسي الخاص بالانسان، وهو تكوين المفاهيم واستعمالها، أي التفكير النظري. فبفضل الكلام بالذات، أصبح بامكان الوعي استعمال لا ماتقدمه الاحساسات في وقت معين فحسب، بل وماقدمته في السابق، ومايمكن أن تقدمه في المستقبل. وبفضل ذلك نشأت امكانية فصل خاصة الشيء، ذهنيا، عن الشيء ذاته، امكانية تجريد بعض خواص الاجسام عن بعضها الآخر، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة.

ليس الكلام شارة الشارات الا عندما ينشأ على أساس الاحساسات التي تعكس الاشياء المادية الموافقة. فاذا انعدمت الاشياء أصبحت الكلمة فارغة، محرومة من الفكرة، ولا معنى لها.

لنفترض أن الرسام أرسل شخصا ما لاحضار فرجار قائلا : أرجوك احضار فرجاري. ان كلمة فرجار، بذاتها، لاتثير لدى هذا الانسان تلك

---

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٢٥٦.

الاحساسات التي يثيرها الفرجار عندما ننظر اليه أو نلمسه بأيدينا. وهذه الكلمة ليست الا اشارة الى الاحساسات التي يعانيها الانسان عندما يجد الفرجار. بيد أنه، اذا كان الانسان الذي توجه اليه الرسام برجائه لم يسبق له أن شاهد الفرجار أبدا، ولاتثير فيه هذه الكلمة تداعيا لمجموعة احساسات معينة ناشئة على أساس تجربته الحسية الشخصية، فان كلمة فرجار لاتستطيع القيام بدور شارة الشارات.

وماتقدم لايعني أن الاحساسات لاتعكس الامر العام الموجود في الاشياء والظواهر الحسية، والا لما انعكس هذا الامر العام بواسطة الفكرة والكلمة. فعندما نتحسس رائحة أزهار مختلفة نستطيع أن ندرك، حسيا، الشيء العام الملازم لرائحة الازهار كجنس معين من النبات. الا أن هذا للشيء العام في الاحساس، متصل اتصالا وثيقا بالخاص[1]. وهو في الكلمة ينفصل عن الخاص ويتجرد عنه. الا أن حدوث هذا التجريد بمساعدة الكلمة كان مسبوقا بتحسن تدريجي في المقدرة على تمييز الشيء العام الذي يحتويه الخاص، بواسطة الاحساس.

ان اكتساب القدرة على ذلك التوسع في التعميم القائم في كلام الانسان المثقف المعاصر، المعتاد على التفكير المجرد، لم ينشأ دفعة واحدة مع ظهور الكلمة مباشرة. كانت مقدرة الانسان البدائي على التفكير المعمم ماتزال هزيلة رغم بدئه بالكلام. كانت لغته لاتحتوي الا على القليل من المفاهيم العامة، كما أن عمومية هذه الأخيرة كانت محدودة. ويمكن التثبت من ذلك عند دراسة لغة بعض القبائل المتأخرة المعاصرة، علما بأن هذه القبائل قد قطعت أشواطا بعيدة الى الامام اذا ماقورنت بقبائل الزمن البدائي. هكذا نرى أن لغة احدى القبائل تحتوي على ٧٥ كلمة للتعبير عن عمليات السير التي تتباين فيما بينها بفوارق بسيطة، وعلى أكثر من ١٠ كلمات للتعبير عن

---

(١) الخاص هنا احدى مقولات الخاص والعام والوحيد الفلسفية.

الطبخ، ولكنها لاتحتوي على أية مفاهيم عامة لعمليتي السير والطبخ. وهناك بعض القبائل الشمالية التي تعبر بكلمات منفردة عن الثلج مقرونا بحالات معينة كـ: « الثلج على الارض »، « الثلج المتساقط »، « الزوبعة الثلجية »، « الثلج المتراكم »، ويزيد عدد مثل هذه التعابير لديها عن أربعين، في حين ان لايوجد لديها كلمة عامة تعني الثلج بالذات. وهناك قبائل لاتحتوي لغتها على كلمة عامة تعني « عجل البحر »، بل تحتوي على تعابير كالتالية: « عجل البحر على قطعة من الجليد »، « عجل البحر في الماء »، عجل البحر المتسلق على قطعة الجليد ».. الخ. بيد انه مهما بدا تقصير هذه اللغة في التعميم، فهي، في الواقع، ذهبت بعيدا بالنسبة الى نظام الشارات الاول، وحتى بالنسبة الى رشيمات الكلام الاولى. انها تحتوي على تعاميم كبيرة يعبر بفضلها عن الثلج، بمختلف أشكال تراكمه، بكلمة معينة، كما يعبر عن « عجل البحر » المستلقي على الجليد بكلمة معينة أيضا على الرغم من الفوارق الملازمة لوضع عجل بالنسبة الى آخر. وفي هذا تتضح المسافة الشاسعة التي تفصل مستوى تطور الوعي الانساني هذا عن المستوى الذي كان عليه وعي الانسان البدائي.

يتألف الكلام، قبل كل شيء، من كلمات، وهذه من مقاطع صوتية. فما هي العلاقة القائمة بين هذه الاصوات وبين الظواهر والاشياء التي تعنيها؟ ان الأصوات عبارة عن اشارات اصطلاحية وضعتها الشعوب خلال تعايشها عبر القرون الطويلة. ولاتوجد ولايمكن أن توجد أية علاقة سرية بين هذه الأصوات والاشياء التي تدل عليها. ان تصور قيام علاقة خفية بين أصوات الكلمات وبين الاشياء هو تصور مختلق ومن صنع المشعوذين، الذين يدعون بوجود أسماء « حقيقية » ما للأشياء والناس، اذا مانطقنا بها استطعنا التأثير على الاشياء وعلى الناس، وتقرير مصيرهم. ان مايدحض، عمليا، وجود أية علاقة سحرية، سرية، بين الاشياء والكلمات المعبرة عنها هو أن الشيء الواحد يعبر عنه، عند مختلف الامم، بالاعتماد على أصوات مختلفة. ان الشيء الذي

يسميه الروس « ستول »(أي طاولة)، يسميه الالمان « ديرتيخ »، والافرنسيون « تابل ». . . الخ . بيد أنه اذا كان تركيب الكلمات من الاحرف يمكن أن يحدث اتفاقا أو عرضا، فان ماتعنيه هذه التراكيب الكلامية والكلمات ليس عرضا، ولا اتفاقيا. فالناس في نشاطهم العملي يحتكون بالاشياء والظواهر. لهذا لابد للغة من أن تحتوي على تلك الكلمات التي تعني الظواهر والاشياء الضرورية لمعيشة الناس. وبما أن الناس يستخدمون الخواص المتنوعة لهذه الاشياء والظواهر، لذا، لابد وأن تشتمل اللغة على كلمات تعبر عن هذه الخواص. كما ينبغي أن تنشأ تلك الكلمات التي تعبر عن حركة الاشياء، وعن تأثير بعضها على بعض، وعن الروابط فيما بينها، مادام هذا ضروريا للناس. وقد أدى نشاط الناس العملي الى نشوء الكلمات التي تعني علاقات الاشياء المكانية والزمانية. كما كان لابد من نشوء الكلمات التي تعني العلاقة بين الناس، بعضهم ببعض، وبينهم وبين الظواهر المحيطة بهم. ان حاجات العلم وتطوره أدت الى نشوء كلمات جديدة تعبر لاعن الاشياء وخواصها المدركة حسيا، فحسب، بل، وعن العلاقات الخفية الدفينة في أعماقها، وعن قانونياتها وجوهرها. كما كان لابد أيضا من ظهور كلمات تعني خواص العلاقات والصلات بين الاشياء، وكلمات تعني كلمات أخرى وتعبر عن العلاقات بين الكلمات.

وعلى هذا، فكل مايتمتع بمعنى كلامي، ويدخل متن اللغة تحت شكل كلمات، لايمكن أن يكون عرضيا ولا اتفاقيا، وهو يتحدد، بالضرورة، بحاجات الشعب العملية الهامة معاشيا، وبحاجات التفكير المتطور لكي يعكس الواقع الموضوعي بشكل أدق. ان اللغة والتفكير يعكسان مايعرفه الناس عن العالم الخارجي وعن أنفسهم، كما يعكسان مايعرفه الانسان من وسائل المعرفة التي هي في حوزته، في الفترة الراهنة.

* * *

الفصل الرابع

قوانين تطور المجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً

ان المجتمع هو عبارة عن كل معين يتألف من اقسام مكونة (عناصر) متعددة الاشكال. ان التفاعل الالزامي والتشارط الالزامي بين المواضيع والظاهرات الاجتماعية، بين العلاقات والعمليات يخلقان الاساس البنيوي للمجتمع بوصفه نظاماً اجتماعياً. والمجتمع، مثله مثل كل نظام مادي، قادر على ان ينتج بنفسه عناصره الاساسية، على ان يضبط بنفسه العمليات الاجتماعية، وعلى ان يتطور في اتجاه معين.

ان هذا الوصف المجرد للانظمة الاجتماعية بالمقارنة مع الانظمة المادية لا يوفر بعد البتة الامكانية لتحليل وتفهم الفوضى الظاهرية من الوقائع التاريخية والاحداث والظاهرات العديدة. والفلسفة الماركسية ـ اللينينية لا تنحصر في اداء وظيفة عقائدية ومعرفية دون دراسة التفاعل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، بل تدرس كذلك اعم قوانين عمل وتطور المجتمع وقواه المحركة، بارزة بالتالي بوصفها نظرية عامة وطريقة عامة لمعرفة الحياة الاجتماعية وتحويلها.

ان السوسيولوجيا (علم الاجتماع) العلمية تنطلق، اولا، من اولية (اسبقية) اساس الحياة الاجتماعية المادي، وثانيا من دوره المحدد في العمليات الاجتماعية والسياسية والروحية. وبواسطة مثل هذه الطريقة فقط، كان يمكن تعليل المعايير العلمية لدن تقسيم التاريخ العالمي الى مراحل، وملاحظة التكرار بصورة معينة في تطور الظاهرات الاجتماعية، واكتشاف الاتجاه الاساس والميل الموضوعي للعمليات التاريخية. فان كلا من درجات تطور المجتمع التاريخية، كما بين ماركس، تتميز بصلة متبادلة ملموسة بين

جميع جوانبه، وتشكل نظاما اجتماعيا واحدا متكاملا، يسمى التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية. ان مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية قد اقام علم الاجتماع للمرة الاولى على اساس علمي، واصبح المفهوم المركزي للطريقة العلمية في السوسيولوجيا (علم الاجتماع). وهذه الطريقة، كما قال لينين، تتلخص في كونها « تعتبر المجتمع جهازا عضويا حيا في تطور دائم (لاشيئا مترابطا بصورة ميكانيكية ويتبع بالتالي انواع التركيبات الاعتباطية بين مختلف العناصر الاجتماعية)، جهازا تتطلب دراسته تحليلا موضوعيا لعلاقات الانتاج التي تكون تشكيلة اجتماعية معينة، ودراسة لقوانين عملها وتطورها »[1].

العناصر البنيوية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية

يتضمن مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، بوصفها مجتمعا ملموسا محددا تاريخيا، جميع الظاهرات الاجتماعية المتعددة : الناس انفسهم، وانواع نشاطهم، والجماعات التاريخية الملازمة لهم (المهنية، والاجتماعية السلالية، والعائلية، والطبقية)، ومعيشتهم، ومختلف انواع التنظيم وغير ذلك. ولكن الوجه التاريخي لهذه التشكيلة او تلك، ومكانها ودورها انما تحددها عناصرها البنيوية الاساسية. ولكن اسلوب انتاج وتجديد انتاج الحياة الاجتماعية، والبناء التحتى والبناء الفوقي هي العناصر البنيوية الاساسية المشتركة بين جميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية.

اسلوب الانتاج. ان انتاج وسائل العيش كان اول عمل تاريخي على تحول

---

(١) لينين. « من هم اصدقاء الشعب » وكيف يحاربون الاشتراكية ـ الديمقراطية ؟ دار التقدم. موسكو. ١٩٦٤. ص ٥٠.

القطيع البشري الى مجتمع . فان الانتاج هو نشاط الناس العملي الهادف لأجل صنع وسائل تلبية الحاجات الطبيعية الى المأكل والمشرب والملبس والمسكن وما الى ذلك. والفكرة العامة عن الانتاج يعمقها ويوضحها المفهوم العلمي لاسلوب الانتاج الذي يميز انواعه ودرجات تطوره المحددة تاريخيا . ان اسلوب الانتاج، كل اسلوب، هو عبارة عن وحدة تاريخية ملموسة بين جانبين مترابطين بصورة لا انفصام لعراها هما القوى المنتجة وعلاقات الانتاج .

القوى المنتجة هي وحدة للعمل المكدس والعمل الحي محددة تاريخيا وتشكل في آخر المطاف النتيجة الموضوعية لطاقة الناس العملية . فان تحويل المواد الطبيعية الى اشياء تلبى حاجات الناس يجري دائما عن طريق تأثير الناس في مواضيع العمل بواسطة الادوات التي صنعوها (التكنيك ، مجموعة الآلات) . ان قوة العمل الانساني المنتجة تتألف من عنصر مادي (هو على الاغلب الادوات ، والتكنيك ، والآلات) وعنصر شخصي (مهارات وعادات الانتاج والمعارف والقدرة عند المنتجين المباشرين ، الشغيلة) .

ان الفهم العلمي للعناصر التي تتكون منها القوى المنتجة . ولتفاعلها وطابعها الاجتماعي التاريخي ومستوى تطورها ، يضطلع بدور هام في الممارسة الثورية . فقبل كل شيء ، يمكن بفضل هذا الفهم اعطاء تقييم صحيح لخاصية تطور وحالة القوى المنتجة الوطنية .

ان تطور الشعب ، كل شعب ، في سياق التاريخ يرتبط بعرى لا انفصام لها بظروف اجتماعية تاريخية مثل التربة والمناخ وسبل المواصلات الطبيعية ، وتضاريس الارض ، والموارد الطبيعية في باطن الارض والعالم النباتي والحيواني . واجتماع هذه الظروف لبيئة السكن الاجتماعي الجغرافية يعجل او يخفف من سرعة تطور القوى المنتجة ، ويؤثر في تقسيم العمل وفي التخصص في الزراعة والصناعة ، وفي صناعة توليد الطاقة . وتبعا للظروف الطبيعية ، ينشأ هذا او ذاك من اشكال توزع القوى المنتجة ، وتنشأ درجة ادراج قوى الطبيعة ومواضيع الطبيعة من الانتاج . ثم ان التفاعل الطبيعة والمجتمع على العموم

وفي كل بلد يتغير تاريخيا. وقبل دراسة المغزى الاجتماعي الفلسفي لقضية تفاعل الطبيعة والمجتمع البشري على العموم في الوقت الحاضر، تجدر الاشارة الى ان تطور الفرد الاجتماعي، وليس البيئة الطبيعية، هو الذي يبرز بوصفه الدعامة الاساسية للانتاج والثروة الوطنية.

ذلك ان عنصري القوى المنتجة المادي والشخصي لا يضطلعان بالدور نفسه. فان مواضيع الطبيعة التي يتجه اليها نشاط الناس العملي الهادف هامدة بحد ذاتها. والعمل المكدس، ونتائج الطاقة العملية لعدد من اجيال الناس، نتائجها المتجسدة في وسائل العمل، تشكل الاساس المادي الذي يستحيل بدونه الانتاج. ولكن وسائل العمل والادوات والتكنيك انما هم الناس دائما من يحركونها. والشغيلة، اي المنتجون المباشرون، مع كفاءتهم الانتاجية ومعارفهم وتجربتهم في استعمال وسائل العمل، هم العامل الحاسم في الانتاج، القوة المنتجة الرئيسية، الاولى، عند البشر. ولهذا، دون استعظام ودون تجاهل دور مقدمات وظروف الانتاج الطبيعية الجغرافية، يولي الثوريون الماركسيون حالة هذه القوة المنتجة الاولى اهتمامهم الرئيسي.

ولكنه لا ينجم البتة من التقييم الرفيع لعنصر القوى المنتجة البشري اي استصغار لدور ادوات العمل والتكنيك : فان مجموعة ادوات الانتاج هي ذلك الاساس الذي تتوقف عليه بصورة رئيسية الاستفادة من مواضيع وخواص الطبيعة، ويتوقف عليه طابع النشاط العملي وانتاجية العمل. ان ادوات ووسائل الانتاج تشكل علامة موضوعية على درجة سلطة الانسان على الطبيعة، وكذلك على العلاقات التكنيكية والاقتصادية التي تنبثق بالضرورة على اساسها. واذا افترضنا ان وسائل العمل وصفات الشغيلة واحدة، متماثلة، فان قوى المجتمع المنتجة تتوقف على كمال التنظيم التكنيكي لعمليات العمل وعلى الاستفادة العقلانية من الشغيلة ومن وسائل العمل، وعلى تقسيم العمل والتخصص والتعاون في العمل. وان طابع العلاقات التكنيكية والتكنولوجية والتنظيمية وعلاقات الادارة، الناجمة في هذه الحال لا يتوقف على

مستوى تطور عناصر القوى المنتجة المادية والشخصية وحسب، بل يتوقف كذلك، وفي المقام الاول، على العلاقات الاقتصادية السائدة .

علاقات الانتاج الاقتصادية. اذا كانت علاقة المجتمع بالطبيعة، ودرجة السيادة على قواها العضوية تتركزان في القوى المنتجة، ففي علاقات الانتاج تتركز تلك الصلات الاجتماعية بين الناس التي هي اهم شرط لعمل وتطور الانتاج. وان تشغيل وسائل الانتاج يفترض جمعها الزاما مع المنتج المباشر، مع قوة العمل. ان علاقات الانتاج هي تلك الصلات الاجتماعية التي تنشأ بين الناس في سياق انتاج وتوزيع واستهلاك الخيرات المادية.

وغني عن البيان ان علاقات الانتاج متعددة ومتنوعة، وانها واهمها العلاقات بوسائل الانتاج، والعلاقات من حيث تبادل نشاط الناس، وعلاقات التوزيع. ان وجود او عدم وجود ملكية ادوات ووسائل الانتاج يحددان سلفا انواع النشاط البشري وعملية تبادل نتائجها، وكذلك توزيع الخيرات المادية المنتوجة. وفضلا عن ذلك، تؤدى الملكية الاجتماعية العامة او الخاصة حتما اما الى نشوء علاقات انتاج قائمة على التعاون والتعاضد، واما الى نشوء علاقات قائمة على التبعية الاقتصادية والسيادة والخضوع. وهذه العلاقات يرثها كل جيل جديد من الناس مع القوى المنتجة الجاهزة.

ومن هنا ينجم ان علاقات الانتاج بين الناس مادية، وانها تنبع موضوعيا، وانها لا تنشأ بارادة الناس ورغائبهم، بل تبعا للقوى المنتجة الموجودة. وهذا ما يحتم المكان المركزي الذي تشغله علاقات الانتاج المادية في كل مجتمع محدد تاريخيا. ان العلاقات الاقتصادية الموضوعية، اذ تبرز بوصفها شكلا الزاميا لتحقيق نشاط الناس الفردي المادي، انها تشكل اساس جميع العلاقات الاجتماعية الاخرى. وبديهي انه لا يجوز ان نستنتج من هنا حتمية وخلود علاقات السيادة والخضوع، لأن القوى المنتجة وعلاقات الانتاج على السواء تتغير باستمرار.

التفاعل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ان التفاعل بين العناصر

المادية والعناصر الشخصية في القوى المنتجة هو المصدر الداخلي لتطور القوى المنتجة ولتغيراتها الدائمة. فبقدر ما تتراكم التجربة الانتاجية والمعارف الجديدة ومهارات العمل الجديدة، يحسن الناس وسائل العمل القائمة ويصنعون وسائل عمل جديدة. ووسائل العمل الجديدة تغنى بدورها مهارات الانتاج واساليب عمليات العمل، وتزيد انتاجية العمل وفعالية الادوات. وفي مثل هذا التحسن المستمر لوسائل العمل ولمنتجي الخيرات المادية انفسهم، يتحقق تقدم القوى المنتجة التاريخي.

وبتأثير القوى المنتجة المباشر، تنبثق كذلك علاقات انتاج ملموسة. وفي اطار اسلوب معين للانتاج، تؤثر علاقات الانتاج في عملية تطور القوى المنتجة ذاته، وعلاقات الانتاج المنبثقة حديثا تحفز في المعتاد القوى المنتجة، وتتطابق خلال مدة معينة مع مقتضيات تطورها. ان زخم القوى المنتجة واستقرار علاقات الانتاج النسبي يؤديان الى ظهور مظاهر من عدم التطابق ومن التناقض بين الطرفين تتفاقم وتؤدي الى النزاع.

ان طور النزاع في التفاعل يعني انه نضجت الضرورة التاريخية للاستعاضة عن علاقات الانتاج الشائخة التي امسكت كابحا لتطور الانتاج. فمحل شكل المعاشرة الانتاجية السابق، الذي صار عائقاً، يحل شكل جديد يتطابق مع طابع ومستوى القوى المنتجة السائرة بسبيل التقدم.

وهذه العملية من التفاعل والتأثير المتبادل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تتبدى بوضوح في تاريخ البشرية. في ظل نظام المشاعة البدائية، كانت الملكية الاجتماعية العامة لوسائل الانتاج تجمع وسائل العمل البدائية الى جهود الجماعات العشائرية في العمل. وهنا كانت تسود علاقات التعاون والتعاضد بين الناس، لأن المشاعة كانت في آن واحد جماعة انتاجية ومالكة جماعية. ومع ظهور وتحسن الادوات المعدنية، وازدياد قوة العمل الانتاجية، انبثقت ضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل وضرورة التخصص في الانتاج، وهذه الضرورة تحققت باستعمال وسائل العمل استعمالا فرديا وخاصا ومن قبل جماعات

صغيرة. وعوضا عن الملكية الاجتماعية العامة والتوزيع المتساوى، تظهر الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، هذه الملكية التي كانت اكثر تطابقا مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة.

ومن هنا ينجم ان الملكية الخاصة تنبثق تاريخيا حين يؤدى عدم التطابق بين علاقات الانتاج الجماعية البدائية والقوى المنتجة الخاصة الى النزاع في ظروف التقسيم الضروري للعمل والانتاج الفردي. ان الانتاج الخاص، فضلا عن كونه يطابق طابع القوى المنتجة الجديد اقتصاديا، يؤدي الى عواقب اجتماعية هامة. تتغير بصورة جذرية العلاقات في حقل تبادل النشاط بين الناس وعلاقات التوزيع، وعوضا عن التعاون والتعاضد بين الناس، تنبثق علاقات السيادة والخضوع، وينقسم المجتمع الى فئات اجتماعية متنافرة (طبقات) ذات مصالح وآراء متضادة.

وتبعا للاشكال التاريخية الاساسية الثلاثة للملكية الخاصة ـ الشكل العبودي، الشكل الاقطاعي، الشكل الرأسمالي ـ انبثقت اساليب انتاج مناسبة وتعاقبت بعضها اثر بعض. وعلى اساسها المادي، انبثقت تشكيلات اجتماعية اقتصادية مناسبة وتعاقبت بعضها اثر بعض.

ان القضية النظرية المتعلقة بانبثاق وتعاقب اساليب الانتاج بوصفها الاساس المادي لدرجات تطور المجتمع المحددة تاريخيا قد اكتسبت في الظروف الراهنة حادة خارقة وشغلت مكانا بارزا في النضال الفكري السياسي. ومرد ذلك في المقام الاول الى التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الجذرية في العالم، والى الاهمية العملية التي ترتديها مسائل الآفاق والمصائر التاريخية لتطور كل شعب. وفي هذا الصدد يجب على الثوريين ان يأخذوا بالحسبان جملة كاملة من الاعتبارات الهامة.

واولها يتلخص في انه تنبغي دراسة العلاقات الطبقية لدن وصف التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة. وفي هذا الصدد قال لينين « النظام الاجتماعي »، « التشكيلات الاجتماعية »، كل هذا، بدون مفهوم الطبقة

والمجتمع الطبقي، لا يكفي لاعطاء صورة ملموسة[1] ولذا يجب تحليل نشوء ووجود وتعاقب التشكيلة العبودية والتشكيلة الاقطاعية والتشكيلة الرأسمالية على ضوء الصلة الوثيقة بين حركة اسلوب الانتاج وصراع الطبقات المتناحرة الضاري الناجم عنها. ان التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة تتسم ببعض السمات المشتركة رغم جميع الفوارق القائمة في العلاقات والروابط الاقتصادية والطبقية والسياسية والايديولوجية وغيرها. وابرز هذه السمات تتلخص فيما يلي : في حال وجود طبقات متناحرة ومؤسسات طبقية ودول استثمارية ومقدمات مادية ناضجة، يشكل نضال الطبقات على وجه الضبط القوة المحركة للتطور الاجتماعي ولتعاقب التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة.

وهناك جانب آخر للقضية يقوم في تطبيق نظرية التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية على كل بلد بعينه. ففي تاريخ هذا الشعب أو ذاك، من العبث والباطل البحث عن تشكيلات اجتماعية اقتصادية «صافية» «خالصة»، لأن كل تشكيلة تلازمها اصالة تجلي القوانين التاريخية العامة، وتلازمها خصائص معينة. وفي هذا الصدد، يجدر الاهتمام بمسألة موضوعة النقاش هي التعاقب التاريخي لاساليب الانتاج وللتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية المناسبة لها.

والمقصود هنا ان النظرية الماركسية تشير في المعتاد الى الدرجات الاساسية الخمس التي ظهرت في التاريخ العالمي على اساس اساليب الانتاج - المشاعي البدائي، العبودي، الاقطاعي، الرأسمالي، الاشتراكي (الشيوعي). وهذه الموضوعة تتعرض لحملات سافرة من جانب اعداء الشيوعية ولشتى التشويهات من جانب الايديولوجيين البرجوازيين. فهم يزعمون، مثلا، ان هذا « المخطط الماركسي » لا يتطابق مع الواقع التاريخي لا في الماضي ولا في الحاضر، ومن باب الحجج والذرائع، يستشهدون بوجود ما يسمى اسلوب

---

(١) المجموعة اللينينية ١١. ص ٣٨٣. ملاحظات على كتاب بوخارين « اقتصاد المرحلة الانتقالية ».

الانتاج الأسيوي في التاريخ . اولا ، ان التسمية نفسها لا تدل البتة على ان « اسلوب الانتاج » هذا هو اسلوب خاص يتميز به تاريخ شعوب آسيا . فان بعض سماته قد تجلت كذلك في تاريخ شعوب القارت الاخرى . ان ما يسمى باسلوب الانتاج الأسيوي قد انبثق تاريخيا لدن انحلال النظام المشاعي البدائي (مع اجتماع الملكية المشاعية والملكية الفردية وملكية الجماعة الصغيرة) . وهو يبرز، باحد اشكاله ، كنظام من علاقات انتاج تقوم فيه ملكية الدولة الباكرة للارض والادوات والبذار لأجل الانتاج الزراعي . وفي هذه الحال، تظهر الدولة بوصفها اداة بيد القبيلة السائدة لادارة واستثمار الاتحادات القبلية العشائرية الخاضعة التى لا تزال تقوم فيها، على العموم ، الملكية المشاعية .

وبديهي ان تكون قد نشأ في مجتمع كهذا تقسيم معين للعمل وتنظيم معين للانتاج، وتطور التمايز الاجتماعي الطبقي . يمكن القول ان هذا المجتمع يتميز بعلاقات انتاج انتقالية قائمة على العناصر المتناقضة في الملكية الاجتماعية (المشاعية) وعلى الملكية الخاصة الفردية والملكية الخاصة للجماعة الصغيرة . وتبعا لذلك ، ظهرت في هذا المجتمع ظاهرات اجتماعية تطورت اقصى تطورها في اشكال نظام الرق الكلاسيكية (مثلا ، في الرق البطريركي او الابوي) او في اشكال النظام الاقطاعي الكلاسيكية .

وللمناسبة نلاحظ هنا ان ماركس ولينين قد استشهدا غير مرة في مؤلفاتهما بهذه السمات الخاصة في التطور التاريخي . وبرأينا ان الاعتراف باسلوب الانتاج الأسيوي او باشكاله المختلفة لا يتناقض البتة مع المفهوم الماركسي بشأن درجات التطور التاريخي المحددة الاساسية الخمس . فعلاوة على النماذج الاساسية من علاقات الانتاج، تنبثق كذلك في الظروف التاريخية المعينة علاقات انتاج انتقالية ترتكز في آن واحد على الملكية الاجتماعية وعلى الملكية الخاصة ، وتشتمل بالتالي سواء على عناصر التعاون والتعاضد ام على عناصر السيادة والخضوع . ان علاقات الانتاج الانتقالية لم تظهر فقط لدن حلول هذا

الشكل او ذاك من التشكيلة القائمة على الملكية الخاصة (التشكيلة العبودية الكلاسيكية « الآسيوية » المختلطة، او التشكيلة الاقطاعية) محل النظام المشاعي البدائي، بل تلازم كذلك مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، وذلك حين تقوم موقتا الى جانب القطاع الاشتراكي اشكال مختلفة من رأسمالية الدولة واشكال نصف اشتراكية من التعاون.

ومن هنا ينجم ان اصالة التعاقب التاريخي لعلاقات الانتاج واساليب الانتاج في تاريخ هذه الشعوب او تلك لا تبطل البتة الشرطية الاقتصادية الموضوعية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية. وان النظرية الماركسية تؤكد على المنطق الموضوعي لنشوء وتعاقب اساليب الانتاج الخمسة الاساسية علما بان هذا المنطق حدده تطور القوى المنتجة ذاته. وان تبيان هذا الميل الموضوعي في التطور الاجتماعي الاقتصادي يتيح لنا ان نقيم كذلك بصورة علمية اصالة تجلية في تاريخ هذه الشعوب او تلك، ناجمة عن اجتماع خاص متميز للمقدمات الجغرافية الطبيعية والظروف الاجتماعية التاريخية. ورغم كل اصالة تاريخ الشعب، كل شعب، يعود الدور المحدد في تطوره الاجتماعي في آخر المطاف الى اسلوب انتاج واعادة انتاج الحياة المادية.

ان الفهم المادي الديالكتيكي لمكان ودور اسلوب الانتاج في التطور الاجتماعي يعطي المفتاح لفهم وتقييم القضايا اليومية، المعروفة باسم الانفجارات الايكولوجية (الايكولوجيا ـ علم التبيؤ ـ فرع من علم الاحياء يدرس العلاقات بين الكائنات الحية وبيئتها) والانفجارات الديموغرافية (الديموغرافيا ـ الدراسة الاحصائية للسكان من حيث المواليد والوفيات والصحة والزواج الخ .). ولقد سبق واشرنا الى ان علاقة الناس الاجتماعية بالطبيعة تتركز اجمالا في قواهم المنتجة. ومن شأن البيئة الجغرافية، باعتبارها مقدمة التاريخ البشري الطبيعية، ان تعجل او تعرقل تطور القوى المنتجة. ولكن الدور الحاسم من التفاعل بين المجتمع والطبيعة يعود الى نشاط البشر الفعال. وفي الظروف الراهنة، تجلت في العلاقات بين المجتمع والطبيعة

جوانب تستثير قلق البشرية اكثر واكثر. ومن هذه الجوانب، الجوانب التكنيكية الاقتصادية (نفوذ الموارد الطبيعية)، الجانب الاجتماعي الايكولوجي (البيئوي) (إنتهاك التوازن البيولوجي في الطبيعة الحية وتلوث البيئة المحيطة)، الجانب الاقتصادي السياسي (تبعية حل قضايا الطبيعة لجوهر بنيان النظامين الاجتماعيين العالميين الاجتماعي والسياسي).

وبرأينا انه يجب ان يرتكز الموقف الاجتماعي الفلسفي من هذه القضايا الحادة والمعقدة على الصلة المتبادلة الموضوعية بين مختلف اشكال حركة المادة، التي لا يمكن اطلاقا معارضة الاشكال العليا (الانسان، المجتمع) منها بالاشكال الدنيا. فان وجود الانسان بوصفه كائنا اجتماعيا يرتبط بعرى لا انفصام لها بالطبيعة التاريخية والعضوية، ولهذا يجب ان يهيمن جانب البناء، لا جانب الهدم، في نشاطه التحويلي. ومما له دلالته في هذا المجال، مثال تكثيف الزراعة الراقية الحاد الذي اسمى « بالثورة الخضراء ». واحد الجوانب الفلسفية من هذه الظاهرة الاجتماعية يقوم في البرهنة على انه بمقدور الانسان ومن واجبه ان يستغل قوانين ثورات وتغير الانواع البيولوجية وكذلك قوانين زيادة خصوبة التربة الكامن والفعال. ان مجمل منجزات البيولوجيا المعاصرة والعلوم الزراعية والطرائق الزراعية يدحض بصورة مقنعة الآراء المتشائمة (الميتافيزيائية) بصدد وجود « قانون تناقض خصب التربة » المزعوم.

فمن الواضح ان قضية نفاد الخامات المعدنية والموارد الطاقية، وتلوث البيئة المحيطة، وانتهاك توازن العمليات الطبيعية والبيولوجية انتهاكا حادا، والتقلبات الحادة في نمو عدد السكان في مختلف مناطق الكرة الارضية تتسم، بالمقارنة مع قضية الزراعة الراقية وخصب التربة، بقدر اكبر من الاهمية وبابعاد شاملة عالمية. ولكن تضخم هذه القضايا الى حد كارثة عالمية محتمة لا مناص منها يرتبط بوضوح بعدم الثقة في قدرة الناس العرفانية والتحويلية، بانكار الجوهر البناء لنشاط الانسان الاجتماعي العاقل.

لقد اثبت العلم المعاصر الامكانية المبدئية للحصول على موارد طاقية غير

محدودة عمليا في حال استخدام التفاعلات الحرارية النووية الموجهة، الامر الذي يتيح بدوره تأمين الدورة العادية للمادة والطاقة في الطبيعة. كذلك صيغت وتوضع موضع التطبيق اجراءات للحفاظ على التوازن البيولوجي في الطبيعة لكي يتطابق تطورها مع مطالب وحاجات الثقافة البشرية المعاصرة. ولكنه تجب الاشارة في الوقت نفسه الى ان الحل الحقيقي للتناقضات الناشئة بين الانسان والطبيعة، بين الانسان والانسان، لا يمكن الا في ظل الشيوعية، الا مع اقامة المساواة العامة والاخوة بين اناس احرار ومتساوين. وصحة هذا الاستنتاج الاجتماعي الفلسفي تثبتها التجربة المكدسة في الحرص على الطبيعة وفي الاستفادة العقلانية من مواردها في البلدان الاشتراكية المعاصرة.

واذا اوجزنا دراسة هذه العناصر البنيوية الاساسية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية كالقوى المنتجة وعلاقات الانتاج واسلوب الانتاج، يمكن استخلاص بضعة استنتاجات عامة. اولا، ان وجود وتطور المجتمع البشري لا تحددهما قوة قائمة فوق الطبيعة، ولا دوافع فكرية، ولا ارادة الناس ورغائبهم، بل يحددهما نشوء وتطور انتاج واعادة انتاج الخيرات المادية. ان الصلات الضرورية الجوهرية والمتكررة بين جميع الظاهرات الاجتماعية والاساس المادي والاقتصادي انما يشملها القانون الاجتماعي العام القائل بالدور المحدد للانتاج المادي في التطور الاجتماعي.

ثانيا، ان الانتاج المادي نفسه يتغير ويتطور بفضل القوانين الملازمة له، والتي يبرز بينها الدور المحدد للقوى المنتجة في تطور اسلوب الانتاج، والدور الفعال لعلاقات الانتاج في تطور القوى المنتجة.

ثالثا، ان حلول اسلوب الانتاج محل آخر يشكل الاساس الاقتصادي الموضوعي للحركة التاريخية الطبيعية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية التي تشكل كل منها درجة معينة تاريخيا من درجات تقدم الانسان. ان العملية الطبيعية التاريخية لتطور وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تخضع

لقانون اجتماعي عام هو قانون تطابق علاقات الانتاج مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة.

رابعا، صحيح ان التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية تتصف، بصورة رئيسية، باسلوب الانتاج الملازم لها (علاقات انتاج معينة)، ولكنها لا تنحصر فيه، بل تشكل عضوية اجتماعية معقدة ذات عناصر بنيوية متعددة ومتنوعة. وفي عداد العناصر البنيوية الهامة الاخرى للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، يجب ان تؤخذ بالحسبان مكان البناء التحتي والبناء الفوقي ودورهما الاجتماعي.

البناء التحتي والبناء الفوقي

في العرض السابق، تركز الاهتمام الرئيسي على استيضاح الاساس المادي والاقتصادي للتطور الاجتماعي، والدور المحدد لاسلوب الانتاج، الذي يشترطه التفاعل الموضوعي بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ولكن علاقات الانتاج هي أهم عامل من عوامل بنية التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية لا بفضل صلتها بالقوى المنتجة فقط. ان نظام العلاقات الاقتصادية الموضوعية يشغل أهم مكان في حياة المجتمع كذلك لسبب انه يحدد جميع العلاقات الاجتماعية الباقية - الطبقية والسياسية والايديولوجية. والصلة المتبادلة الموضوعية بين العلاقات الاقتصادية وجميع العلاقات الاجتماعية الاخرى تتكشف في مفهومي البناء التحتي والبناء الفوقي الفلسفيين. وقد قال ماركس: «... ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع اي الاساس الذي يقوم عليه بناء فوقي حقوقي وسياسي وتطابقه اشكال معينة من الوعي الاجتماعي»[1]

---

(١) ماركس انجلس. مختارات اربعة اجزاء. الجزء الثاني. دار التقدم. موسكو ١٩٦٩. ص ٨ (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي. المقدمة).

خلافا لاسلوب الانتاج الذي يمثل الاساس المادي لكامل التطور الاجتماعي، يبرز البناء التحتي الاقتصادي بوصفه اساس الظاهرات الاجتماعية المثقفة، الثانوية، « الفوقية ». والبناء الفوقي هو مجموع معين تاريخيا من آراء اجتماعية وعلاقات ايديولوجية ومؤسسات ومنظمات مناسبة لها. وهذا يعني، بتعبير آخر، ان البناء الفوقي يشمل المشاعر والتصورات ومنظومة الافكار التي تعكس بناء تحتيا اقتصاديا معينا، وعلاقات ايديولوجية مناسبة : سياسية، وحقوقية، ودينية، واخلاقية، وجمالية، ومؤسسات ومنظمات ينشئها الناس : حقوقية، وسياسية، ومهنية، ودينية، وثقافية تنويرية، وللدولة.

ان الاشكال التاريخية من علاقات الانتاج، المدروسة اعلاه، تبرز بوصفها ابنية تحتية اقتصادية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ـ المشاعية البدائية، العبودية، الاقطاعية، الرأسمالية، الشيوعية. ولكنه توجد، كما اشير اعلاه، انواع مختلفة من علاقات الانتاج في مختلف مراحل تطور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية. وفي هذا الصدد يبدو من الضروري تحليل مضمون مفهوم البناء التحتي بوصفه مجموعا من علاقات الانتاج.

ان هذا التحليل، ان استيضاح المعنى الحقيقي لمفهوم البناء التحتي الاقتصادي يكتسب اهمية خاصة بالنسبة للثوريين في الظروف الراهنة لسببين. اولا، في جميع بلدان العالم غير الاشتراكي تستمر وتتفاقم ازمة بنيتها الاقتصادية الاجتماعية، وتحليل هذه الازمة تحليلا علميا يحدد سلفا ستراتيجية وتكتيك النضال الثوري. ثانيا، تتسرب الى وعي قسم من الثوريين اخطاء سوسيولوجية (اجتماعية) فظة للغاية وواسعة الانتشار في المطبوعات غير الماركسية، وتشويهات متعمدة لمكان ودور علاقات الانتاج.

ان السوسيولوجيين (علماء الاجتماع) البرجوازيين في الدول الامبريالية ولاسيما في الولايات المتحدة الاميركية، يشبهون البناء التحتي الاقتصادي بالعمليات التكنيكية والتكنولوجية، بتنظيم الانتاج المادي وادارته. وعلى سبيل المثال، نستشهد باستعمال التعبير الدارج في كل مكان « انفراستروكتور »

(البنية التحتية) عوضا عن تعبير « البناء التحتي الاقتصادي » . فان تعبير « انفراستروكتور » (البنية التحتية) لا تعلق في الواقع الا بالعلاقات التكنيكية والتنظيمية الضرورية لأجل عمل العمليات الانتاجية (الطرف وسائر سبل المواصلات، وسائل المواصلات التكنيكية، الجوانب التكنولوجية من التخصص والتعاون، وغير ذلك) .

ولهذه القضية جانب آخر، قوامه العلاقة بين البناء التحتي الاقتصادي والنماذج الاقتصادية . ان النموذج الاقتصادي هو عبارة عن نوع معين من علاقات الانتاج، موجود اما كبقية من اشكال اقتصادية ماضية، واما كجنين اشكال اقتصادية مقبلة . كذلك يستعمل مفهوم النموذج الاقتصادي في تعيين نظام من الاقتصاد الاجتماعي محدد تاريخيا .

ان تعبير « تعدد النماذج » يستعمل احيانا كثيرة جداً لأجل وصف التأخر الاقتصادي التكنيكي للبلدان النامية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . وفي هذه الحال، يتشوه، عفوا او عمدا، وضع البنية الاقتصادية الفعلي واتجاه تطورها، وتتشوه بالتالي الاجراءات الضرورية لتحويله الثوري . وكنه المسألة لا يمكن حصره في استعظام شأن تعدد النماذج، ولا في انكار واقعيته . فان هذه او تلك من بقايا الانواع السابقة من علاقات الانتاج، ومنها مثلا، الانتاج البضاعي الصغير، توجد حتى في اكثر البلدان تطورا من بلدان رأسمالية الدولة الاحتكارية . وفضلا عن ذلك، يلازم تعدد النماذج مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية سواء في البلدان الزراعية الصناعية ام في البلدان الصناعية الزراعية . فمن جراء الاقتصاد المتعدد النماذج في روسيا ما قبل الثورة، مثلا، تواجدت خلال مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي مجموعة كاملة من النماذج الاقتصادية، خمسة نماذج، ادى تحويلها الى انشاء البناء التحتي الاقتصادي الاشتراكي .

ويبدو لنا من الاصح ان ندرج في مفهوم البناءالتحتي الاقتصادي، لا جميع انواع علاقات الانتاج القائمة شكلا، بل فقط مجمل العلاقات السائدة -

علاقات الملكية، العلاقات في حقل تبادل النشاط، علاقات التوزيع. وفي هذه الحال، يكتسب مفهوم البناء التحتي الاقتصادي معنى اجتماعيا (وسياسيا) محددا بدقة ويتيح فهم تعد نماذج الاقتصاد فهما صحيحا.

وتبعا للمستوى التاريخي للتطور الاجتماعي الاقتصادي يمكننا ان نفرز انواعا تقريبية من العلاقة بين تعدد النماذج والبناء التحتي الاقتصادي السائد. ومن هذه الانواع، سيادة الاقتصاد المشاعي التي لا يزال قائمة حتى الآن في بعض البلدان، والتي تقوم الى جانبه العلاقات البطريركية العبودية والعلاقات الاقطاعية (وحتى العلاقات الرأسمالية احيانا) وتبادل النشاط والتوزيع. والنوع الثاني هو تعدد النماذج في ظل البناء التحتي الاقطاعي، المرفق بعناصر من علاقات الانتاج المشاعية (واحيانا العبودية) الماضية وكذلك بعناصر من علاقات الانتاج الرأسمالية النامية. اما النوع الثالث فيمكن القول انه يشمل مختلف مظاهر تعدد النماذج في ظل سيادة البناء التحتي الرأسمالية الذي تتشابك معه عناصر من علاقات الانتاج الماضية.

ولنلاحظ في هذا الصدد ان احادية طراز علاقات السيادة والخضوع في التشكيلات القائمة على الملكية الخاصة تشترط امكانية التعايش خلال مرحلة طويلة نسبيا بين علاقات الانتاج العبودية والاقطاعية والرأسمالية التي نشأت على التوالي في احشاء التشكيلات السابقة.

ولكنه ينجم على العكس من التضاد الجذري بين علاقات السيادة والخضوع وعلاقات التعاون والتعاضد انه لا يمكن لعناصر علاقات الانتاج الاشتراكية ان تنبثق وتتكون في احشاء التشكيلات التناحرية. فان هذه التشكيلات لا تخلق غير المقدمات المادية والتكنيكية الضرورية لأجل تطوير الاقتصاد الاشتراكي بعد الثورة الاشتراكية. ومن هنا ينجم البطلان العلمي للنظريات الطوبوية المتعلقة بما يسمى الاشتراكية « التعاونية » التي تزعم انه يمكن لعلاقات الانتاج الاشتراكية ان تنبثق كذلك في اطار المجتمع الرأسمالي المعاصر. فان اشكال اتحادات المنتجين التعاونية في ظروف البناء التحتي

الـرأسمالي السائد، ايا كانت هذه الاشكال، تخضع بشكل او بآخر للقوانين الاقتصادية للسوق الرأسمالي الداخلي ولا يمكن اعتبارها اجنة للاشتراكية.

وفي الـوقت نفسـه، تجدر الاشـارة الى ان الثـوريين المـاركسيين يبسرون ويدعمون بجميع الوسائل التعاون بين صغار المنتجين لأن الاشكال التعاونية تحسن اوضـاعهم الاقتصـادية وتـوسـع امكـانيات النضـال ضد الاستعـمار الرأسمالي. ناهيك عن ان دعم الاشكال التعاونية ضروري ايضا لأجل رص وتنظيم صفوف المنتجين، لأجل تنشيطهم في النضال الطبقي.

ومن هنـا ينجم ان جميع التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية تلازمها ابنية تحتية اقتصـادية خاصـة بها، ولكن هذه الابنية تملك في كل من التشكيلات مضمونا تاريخيا ملموسا وعلاقة تاريخية ملموسة بسائر انواع علاقات الانتاج. ومن المهم استيضـاح ذلـك لأن العـلاقـات الاقتصـادية السـائدة، او البناء التحتي، تولـد بنـاء فوقيا منـاسبـا له. ان الـطابـع التنـاحري للبناء التحتي الاقتصـادي ينعكس في تضـاد ظاهـرات البنـاء الفـوقي، في تضـاد نظرات وتنـظيمات الـطبقـة السـائدة والطبقة المسودة. ففي التشكيلات القائمة على الملكية الخـاصـة، تعود السيادة الى افكار وتنظيمات الطبقة الاستثمارية. وان سعي الطبقات المظلومة الى توطيد افكارها ومؤسساتها وتنظيماتها هي بالذات يؤدي الى نضال طبقي حاد في ميدان البناء الفوقي. وفي النضال بين مختلف الـطبقـات على وجـه الضبط تتحقق الصلة المنطقية بين البناء التحتي والبناء الفـوقي التي تتجلى في صياغة القانون السوسيولوجي (الاجتماعي) المناسب القائل ان البناء التحتي يحدد البناء الفوقي.

ومن الخطأ تفسير هذا القانون القائل ان البناء التحتي يحدد البناء الفوقي بمعنى ان البناء الفوقي لا يبرز الا بصورة عاقبة هامدة للبناء التحتي. فالأمر بالعكس. فهـما يتفـاعلان على الدوام بحكم الضرورة الاقتصادية التي تشق دائما لنفسها طريقا في آخر المطاف. ان البناء التحتي يحدد طابع البناء الفوقي ويحدد الاتجاه الذي يتغير به مضمونه. وفضلا عن ذلك، لا يجري الانقلاب في

البناء الفوقي بصورة اوتوماتيكية ومباشرة اثر تحويل البناء التحتي الاقتصادي. وهذا ما تدل عليه، مثلا، التجربة التاريخية لنشوء البناء التحتي الرأسمالي بطريقة عفوية في احشاء الاقطاعية التي يتم تحويل بنائها الفوقي القديم الا بنتيجة الثورة السياسية البرجوازية.

ويجب ان لا يغيب عن البال انه في حال تعاقب التشكيلات الوحيدة الطراز القائمة على الملكية الخاصة لا تتحول جميع عناصر البناء الفوقي القديم معا في آن واحد. فان التعاقب في تطور البناء الفوقي الجديد في المجتمعات التناحرية يشترطه تعاقب الجوهر الاجتماعي لهذه الابنية التحتية كما يشترطه حفظ واستعمال المادة الفكرية المتراكمة وجملة من المؤسسات السياسة والحقوقية والاجتماعية وغيرها. ولهذا لا تدمر الطبقة الاستثمارية الجددية، في المعتاد، العنصر الاساسي في البناء الفوقي - اي آلة الدولة - بل تكيفها لحاجاتها ومصالحها. والقول نفسه يصح على سائر الاشكال والمؤسسات الايديولوجية، ومنها مثلا، الدين والكنيسة. كذلك تتجلى خصائص البناء الفوقي في التفاعل المعقد بين اقسامها المكونة الداخلية، ولاسيما في التأثير المعاكس الفعال على تطور البناء التحتى. ان التناقض بين عناصر البناء الفوقي في المجتمع التناحري يتبدى في كون بعضها يسهم في توطيد البناء التحتي او في تعجيل تطوره، بينما يمارس بعضها الآخر، على العكس تأثيرا مدمرا.

ان نشاط مختلف عناصر البناء الفوقي والتناقض بينها يتبديان بقوة خاصة لدن تحويل المجتمع تحويلا ثوريا. فان الانقلاب الثوري المادي في ظروف الانتاج الاقتصادية يعني الاستعانة الزاما عن اشكال الملكية السائدة واقامة مجموع من علاقات الانتاج الجديدة. وفي التشكيلات السابقة للاشتراكية، كان هذا الانقلاب يتم دائما بصورة عفوية ولهذا لم يكن يتطابق ابدا من حيث الزمن مع الانقلاب السياسي. والانقلاب الثوري في البناء الفوقي يتجلى في اقامة السلطة السياسية للطبقة الثورية الجديدة تاريخيا، في توطيد سيادتها السياسية والايديولوجية، التي يرافقها تحويل المؤسسات والتنظيمات السياسية

والحقوقية والثقافية التنويرية والاجتماعية. وتلك هي القوانين العامة للتفاعل بين البناء التحتي والبناء الفوقي، التي تميز العمليات الطبيعية التاريخية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية والتي يؤكد صحتها كل مجرى التاريخ العالمي الماضي.

ان هذه القوانين العامة تغير كثيرا اشكال تجليها في ظروف العهد الثوري الانتقالي المعاصر. فان خصائص نشوء وتفاعل البناء التحتي والبناء الفوقي في المجتمع الاشتراكي ذا دلالة واسعة جدا بالنسبة لممثلي جميع فصائل العملية الثورية العالمية. ان الفهم العلمي لهذه الخصائص يرتبط بعرى لا انفصام لها بدراسة القضايا الفلسفية الناجمة عن العلاقة بين الضرورة التاريخية وحرية الفرد، بدراسة القوانين الموضوعية للتاريخ وللنشاط الثوري التحويلي.

قوانين التاريخ
وحرية العمل الثوري

ان دراسة العناصر البنيوية الاساسية للتشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، وصلتها الموضوعية، ونظام تفاعلها الالزامي ونتائجه، تعطي فكرة عامة عن الضرورة التاريخية، والضرورة تعني على العموم ما يجب الزاما ان يحدث وما يحدث فعلا في الطبيعة او في المجتمع في ظروف ملموسة معينة. والضرورة تعبر عنها دائما قوانين الطبيعة والمجتمع. والضرورة التاريخية تعني النتيجة الالزامية لفعل القوانين الاجتماعية الموضوعية لحركة الحوادث التاريخية في اتجاه معين. ومن وجهة النظر هذه، تبرز العملية الطبيعية التاريخية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية كتحقيق للضرورة التاريخية، كنتيجة اجمالية لفعل قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية.

في الطبيعة (قبل تدخل الانسان)، تتجلى الضرورة دائما كقوة عفوية

عمياء. والضرورة التـاريخية تولد (وتحل) قضية حرية الانسان، والعلاقات بين نشاطه والقوانين الموضوعية. ولئن كانت الانسانية في مستهل تاريخها عبدة للضرورة الـطبيعية والتـاريخية المجهولة، اخذ نشاطها يزداد وعيا وحرية بقدر التقـدم التاريخي ومعرفة واستعمال القوانين الموضوعية. وهذه الموضوعة تصح مبدئيا على الضرورة الطبيعية وعلى الضرورة التاريخية، ولكن مع التحفظ الهام التـالي، وهـو ان الحد من الحرية البشرية (بما فيها مستوى المعرفة) مشروط باسبـاب اجتماعية واقتصـادية وسياسية. وفي المجتمعـات التنـاحـرية تبرز العلاقات الاجتماعية كقوة سائدة على الناس ومعادية لهم. وفي هذه الاحوال، لم يكن الناس احرارا من العوامل الموضوعية، رغم انهم كانوا يصنعون التاريخ بانفسهم، بل كانوا تابعين كليا لهذه العوامل، ولذا كانت الضرورة التاريخية تتحقق بصورة عفوية.

وتجدر الاشارة الى ان وجود الوعي، والعالم الروحي الغني نسبيا، وكذلك الاختيار المستقـل للاهـداف الشخصية لا يعنيان البتـة الحرية الحقيقة. فلا يوجد البتة للحرية المطلقة لأن وعي الانسان، واهدافه، واعماله تخضع في آخر المطاف للضرورة بنحو او آخر.

واحيانـا يفسرون مفهـوم الحـرية شتى التفسـيرات المتبـاينـة : بالمعنى الإقتصـادي (فينحصر في الكفـاية المـادية)، وبـالمعنى السياسي والحقـوقي (ابداء الارادة بصورة مستقلة والاعمال المستقلة في الحياة السياسية، المساواة، ومـا الى ذلـك)، بالمعنى العمـلي الشخصي (حرية الابـداع، وما اليها)، بالمعنى العـرفـاني. ان تجاهـل الضرورة التاريخية واضفاء صفة الاطلاق على الحرية البشرية (حرية الارادة) يلازمان مختلف اشكال الاتجاهات الارادية في الفلسفة المثالية، وهما يشكلان اساسا فلسفيا للارادية السياسية (الفوضوية، المغـامـرة اليسـارية، الفاشية، وسائر اشكال التطرف). والمحدودية المضادة تنعكس في مختلف المفاهيم الفلسفية عن الجبرية (الايمان بالقضاء والقدر)، المنطلقة من التحديد المسبق لوعي الانسان وارادته وحياته وللاحداث التاريخية

من قبل ارادة عليا خرافية، من قبل القدر، وفي بعض الصور الاخرى، من قبل ظروف خارجية عفوية وحتى من قبل قوانين اقتصادية كلية الجبروت.

وعلى نقيض هذه المفاهيم المثالية والميتافيزيائية، صاغت الفلسفة الماركسية ـ اللينينية المفهوم المادي الدياليكتيكي عن الحرية. ان الحرية تعني قدرة الناس على اتخاذ القرارات على اساس الضرورة المدركة، وعلى معرفة بالامر، وتعني سيادة الانسان على الطبيعة وعلى العلاقات الاجتماعية وعلى نفسه بالذات. ان هذا المفهوم يشمل الجانب العرفاني، والاجتماعي العملي، والسياسي من الحرية البشرية. ان الحرية البشرية لا تنفي الضرورة التاريخية، وليس هذا وحسب، بل هي كذلك، بمعنى معين، تجليها. فان معرفة القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع تجعل من الممكن الاستفادة من هذه القوانين بصورة منهاجية (وبهذا المعنى، بصورة حرة) لأجل بلوغ الاهداف التي يبتغيها الناس. ان الاستفادة الواعية من قوانين التطور الاجتماعي، وبلوغ النتائج المنشودة انما يعني الحرية الحقيقية. وهذه القفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية تتحقق بقدر ما تتطور التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية الشيوعية.

وهذا ما تدل عليه، فيما يدل عليه، خصائص تكوين وانشاء البناء التحتي والبناء الفوقي في التشكيلة الشيوعية. ان البناء التحتي والبناء الفوقي في طوري التشكيلة الشيوعية الاساسيين (الاشتراكية والشيوعية) يبرزان كتحقيق منظور سلفا، واع للضرورة التاريخية التي اكتشفتها النظرية الماركسية ـ اللينينية. ان نشوء وتطور البناء التحتي والبناء الفوقي هما نتيجة لنشاط الجماهير الشعبية الواعي، ولابداعها الثوري. ان البناء التحتي للاشتراكية والشيوعية هو عبارة عن درجتين مختلفتين من تطور علاقات التعاون والتعاضد بين اناس احرار من الاستثمار. وهذه الخاصة تؤدي الى نشوء ظروف موضوعية جديدة ولا حد لها لتطور الاقتصاد والعلم والثقافة مع توفير امكانيات واسعة لأجل الجماهير الشعبية لكي تعي القوانين الموضوعية واسمى منجزات العلوم الطبيعية

والاجتماعية وتحول نفسها بالذات في مجرى نشاط خلاق وفعال ونافع اجتماعيا .

وهذه الامكانيات تتعزز وتتسع وتتزايد بفضل خاصة نشوء البناء الفوقي الاشتراكي ، ومفادها ان عنصره الرئيس ، اي الدولة الاشتراكية تتطور بعد تحويل آلة الدولة الاستثمارية تحويلا جذريا ، بعد تحطيمها ، لأجل الدفاع عن مصالح الكادحين وتربية ناس المجتمع الشيوعي المتطورين من جميع النواحي .

ان الاشكال العصرية لتجلي الضرورة التاريخية ، الاشكال المعبر عنها في خصائص نشوء وتطور البناء التحتي والبناء الفوقي في ظل الاشتراكية ، تكتسب اهمية خاصة لأجل الممارسة الثورية . ففي ستراتيجية وتكتيك الاحزاب الثورية في مختلف البلدان ، يجب ان تؤخذ بالحسبان الدقيق القوانين التاريخية العامة والاشكال الخاصة (بما فيها الاشكال الوطنية) لتجليها وتطبيقها ، وقد سبق وقلنا ان التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية هي انظمة اجتماعية خاصة ، عضويات اجتماعية مع ما يلازمها من قوانين عامة وخاصة للنشوء والعمل والتطور . وفي عداد القوانين الاجتماعية (السوسيولوجية) العامة ، نذكر قانون التفاعل بين الوجود الاجتماعي والادراك الاجتماعي ، وقانون التطابق بين علاقات الانتاج وبين طابع القوى المنتجة ومستوى تطورها ، وقانون الدور الحاسم للانتاج المادي في تطور المجتمع ، وقانون النضال الطبقي بوصفه القوة المحركة في التشكيلات التناحرية القائمة على الملكية الخاصة . وقانون الثورة الاجتماعية الذي يشترط تعاقب هذه التشكيلات .

ان القانونين الاجتماعيين العامين ، قانون النضال الطبقي وقانون الثورة الاجتماعية ، يتسمان بمضمون تاريخي ملموس تبعا للضرورة الاقتصادية ، ولقوام القوى الطبقية والنسبة بينها ، ولاجتماع المقدمات الموضوعية والذاتية . ان كل طراز تاريخي من الثورات الاجتماعية (مثلا ، الثورة البرجوازية ، الثورة البرجوازية ـ الديمقراطية ، الثورة الاشتراكية) تلازمه قوانينها العامة التي من شأن اهمالها الحاق ضرر جسيم بالممارسة الثورية . ولنلاحظ هنا انه من المهم

بخاصة في العهد التاريخي المعاصر ان لا يغيب عن البال وجود قوانين عامة للثورة الاشتراكية، وكذلك وجود قوانين معينة للثورات الديمقراطية المعادية للامبريالية اي ثورات التحرر الاجتماعي والوطني.

ان استراتيجية الاحزاب الثورية لا تتركز على القوانين الاجتماعية العامة لعمل هذه التشكيلة او تلك وحسب، بل ترتكز ايضا على قوانينها الخاصة. فبدون تحليل القوانين الخاصة لعمل التشكيلة المعنية، لا يمكن فهم النسبة بين ميول استقرار وتوازن النظام الاجتماعي المعني وبين الميل الموضوعي الى ضرورة الاستعاضة عنه. ان قوانين العمل، التى تفصح عن العلاقة المتبادلة بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، بين مختلف جوانب نشاط العفوية الاجتماعية، تتضمن دائما عامل التطور. تلك هي، مثلا، قوانين عمل التشكيلة الرأسمالية (قانون المزاحمة وفوضى الانتاج، قانون القيمة الزائدة، الخ..). وخلافا لها، تفصح القوانين الاجتماعية العامة او المشتركة بين عدد من التشكيلات، بصورة رئيسية، عن الميول الموضوعية لتلك التغيرات التي تحتم الانتقال الى طور آخر داخل التشكيلة او من تشكيلة الى اخرى.

ومن المهم بخاصة ان تؤخذ بالحسبان العلاقة والنسبة بين القوانين الاجتماعية والقوانين الخاصة لعمل وتطور التشكيلات، وكذلك المقدمات والظروف التاريخية الطبيعية، في خصائص تاريخ وآفاق كل شعب من الشعوب. ففي تاريخ الاغلبية من الشعوب المعاصرة، وقعت انحرافات معينة عن المنطق الموضوعي للعملية التاريخية الطبيعية لنشوء وتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية.

فان شعوب امريكا اللاتينية، مثلا، قد انتقلت باغلبيتها من النظام المشاعي البدائي والنظام الباكر الى الاقطاعية التي كان الغزاة الاسبانيون والبرتغاليون ناقليها وحامليها. وسلاف اوروبا الشرقية والشعوب الرحل في آسيا وافريقيا لم تعرف العبودية الكلاسيكية، وشعوب الولايات المتحدة الامريكية وكندا واوستراليا لم تعرف الاقطاعية المتطورة.

ان اسباب وطرائق وعواقب تشوه العملية التاريخة لكل شعب بعينه انها يجب ان تكون موضع تحليل علمي دقيق ومفصل. وهذا هام بخاصة لأن التشوهات الماضية كانت، على العموم، عاقبة للطابع التناحري للتقدم التاريخي، وانعكست بصورة معينة في ثقافة الشعوب وادراكها وذاكرتها. ومن جهة اخرى انبثق في العهد التاريخي المعاصر واخذ يتطور ولا يزال يتطور قانون موضوعي جديد، هو قانون الانتهاك الواعي للعملية التاريخية الطبيعية عن طريق الانتقال الى الاشتراكية بدون المرور بالتشكيلات التناحرية التي ولى زمانها تاريخيا والقائمة على الملكية الخاصة (الاقطاعية، ولاسيما الرأسمالية).

ان هذا التسريع للتقدم التاريخي ليس الذاتية والعنف بحق التاريخ، بل نتيجة لابداع الجماهير الثوري الواعي، نتيجة للعمل المرتكز على معرفة بالقضية وعلى استيعاب قوانين التطور الاجتماعي الموضوعية وتطبيقها بمهارة. وفي هذا العمل الثوري، يتجلى، فيما يتجلى، القانون الاجتماعي العام القائل بتعاظم دور العامل الذاتي في التاريخ. ومن هذا القانون، ينجم، فيما ينجم، استنتاج من اجل الثوريين يقول بضرورة تفهم نظرية التطور الاجتماعي العلمية تفهما عميقا، واستيعاب التجربة الثورية في النضال الطبقي والاعداد النظري والسياسي والتنظيمي للتحويلات الثورية واجرائها، وتطبيق هذه التجربة في بلدانها بمهارة. والمهمة الاولى في هذا السبيل هي مهمة امتلاك ناصية الديالكتيك المادي - اي نظرية التطور العلمية وطريق معرفة الواقع وتحويله تحويلا ثوريا.



الفصل الخامس

الطبقات والنضال الطبقي

ان نظرية الطبقات، والنضال الطبقي، ذات أهمية فائقة من أجل فهم التاريخ كعملية تاريخية ـ طبيعية، ومن أجل فهمه كنتيجة لنشاط الناس.

وبصرف النظر عن أهمية مفهوم التشكيلة الاقتصادية ـ الاجتماعية كعامل مهم من أجل دراسة العملية التاريخية، فانه لايكفي، وحده، من أجل دراسة التاريخ كله، منذ النظام البدائي، بدون مفهوم الطبقات والنضال الطبقي. فبدون هذين المفهومين لايمكن تحديد القوى المحركة لتطور التشكيلات الطبقية المتناقضة. وبالاضافة الى هذا، فنحن عندما ندرس مفهوم التشكيلة الرأسمالية، مثلا، نبرز تلك الخصائص العامة المميزة لانكلترا الرأسمالية ولألمانيا الرأسمالية، ولفرنسا الرأسمالية و... الخ. لكننا نتساءل: لماذا تختلف النظم السياسية الاجتماعية والأفكار المنتشرة في المجتمع...، وغير ذلك من الأمور الأخرى، من بلد الى آخر؟ اننا لانستطيع الجواب عن هذا السؤال باعتمادنا على مفهوم التشكيلة العام، بيد أننا نجيب عندما ندرس أصول تلك الطبقات وخصائص علاقاتها المتبادلة فيما بينها، في زمن ما، وفي بلد معين. ولهذا، فان مفهومي الطبقات والنضال الطبقي يسمحان بتجسيد مفهوم التشكيلة، لا عن طريق ابراز الفوارق بين التشكيلة الاقطاعية والتشكيلة الرأسمالية، مثلا، من وجهة البنية الطبقية فحسب، بل وبكشف كل ما يشرط تلك الفوارق بين البلدان الموجودة على درجة واحدة من التطور الاجتماعي. لقد أكد لينين أن « النظام الاجتماعي » و« التشكيلة الاجتماعية » لايمكن تجسيدها تجسيداً كافياً بدون مفهوم الطبقات والمجتمع الطبقي .

ان نظرية الطبقات والتناقض الطبقي ذات أهمية خاصة من أجل فهم التاريخ كنتيجة لنشاط الناس. وبالفعل، اذا كان التاريخ هو تاريخ الناس، وفيه يعمل ملايين وملايين من البشر الذين تتضارب أعمالهم ورغباتهم فان من الطبيعي أن نسأل: كيف تتسنى دراسة هذه الأعمال الفردية في خضم هذه الفوضى؟، وكيف نربط بين تصرف فردي وتصرف ذي شأن اجتماعي؟ في هذا تتجلى أهمية نظرية الطبقات اذ هي تسمح لنا بربط عمل أشخاص معينين في حدود تشكيلة اجتماعية ما مع أعمال طبقات وفئات اجتماعية كبيرة يحدد نضالها تطور المجتمع.

ان نظرية الطبقات والنضال الطبقي تعطينا الخيط الرئيسي لبحث تاريخ المجتمع، ولمعرفة العصر الحديث، وتحديد طرق ووسائل التحويل الثوري من الرأسمالية الى الاشتراكية.

فبدون مفهوم «الطبقة» لا يمكن فهم فترة كبيرة من تاريخ الانسانية، ولهذا فان هذا المفهوم هو من أهم المفاهيم المادية التاريخية.

فما هو المحتوى الموضوعي لمفهوم الطبقات، وما هي أهميته المنهجية؟

١ - جوهر الطبقات ونشوؤها

نظريات الطبقات قبل ماركس

ثمة كثير من الفوارق بين الناس في المجتمع: من حيث تنوع النشاط، والثقافة والدخل، والعمل.. الخ. لكن انقسام الناس الى طبقات اجتماعية يؤلف الفارق العظيم، من بين تلك الفوارق جمعاء، ذا الاهمية الجوهرية من أجل التطور التاريخي. بهذا تشهد تجربة التاريخ ذاتها.

لقد كان التقسيم الاجتماعي لهذا المجتمع أو ذاك ملحوظاً من قبل الجميع. ففي عهد الرق كانت تفصل الأحرار عن الارقاء حدود كبيرة صارمة. وفي

المجتمع الاقطاعي كان يحددُ وضع الانسان حسب انتمائه الى هذه الفئة من الناس أو تلك. لكن الناس كانوا يتصورون هذه الفوارق من صنع الطبيعة أو من وضع الاله. والمجتمع البورجوازي الذي أكد على المساواة الشكلية بين الناس أمام القوانين أوجد أساساً اقتصادياً للفوارق بينهم. ولهذا، فلم تكن من قبيل الصدفة، في فترة سيطرة الرأسمالية، الاشارة الى أن الاقتصاد يحدد انقسام المجتمع الى مجموعات اجتماعية كبيرة - الى طبقات. ولقد اكتشف العلماء البورجوازيون وجود الطبقات قبل ماركس. وكان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي «أ. سميث»، و«د. ريكاردو»، يعتبران أن المجتمع يحتوي على ثلاث طبقات: طبقة البرجوازية، وطبقة ملاكي الاراضي، وطبقة العمال، وأن الفارق بينهم مشروط بمصادر دخلهم. فالبورجوازيون يبتزون الربح، وملاكو الأراضي - الريع، والعمال - أجور عملهم.

ان تحليل سميث وريكاردو لوضع الطبقات بربطه باقتصاد المجتمع هو أحد منجزات الفكر الاجتماعي. لكنهما كانا عالمين بورجوازيين، وهذا ماجعل تفكيرهما محدوداً. فقد كان التمايز الاجتماعي، وانقسام المجتمع الى طبقات، بالنسبة اليهما ظاهرة ضرورية وقانونية. فهما لم يتمكنا من رؤية التناقض الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية. وكانا عاجزين عن اظهار أساس هذا التناقض. وعلاوة على ذلك، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار، أن توزيع سلع الانتاج هو نتيجة لتوزيع وسائل الانتاج، ولهذا ينبغي أن نبحث عن أسباب انقسام المجتمع الى طبقات في الانتاج ذاته لا في ميدان التوزيع كما فعل الاقتصاديان الانكليزيان. لقد كانا مؤسسين لما يسمّى «بنظرية التوزيع» الى طبقات، التي أضحت في وقتنا هذا «مودة» بالنسبة للايديولوجيين والاصلاحيين البورجوازيين.

فاذا كان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي قد انتبها الى وجود الطبقات، فان المؤرخين الفرنسيين - تيري، غيزو، مينيه - قد حاولوا دراسة التاريخ، ولا سيما، تاريخ الثورة الفرنسية، من وجهة نظر نضال الطبقات

فقد انطلقا من أن نضال الطبقات من أجل ملكية الأراضي هو الذي حدد سير الثورة الفرنسية. وهم، اذ قدموا وصفاً تاريخياً لنضال الطبقات، لم يتمكنوا من تفسير منشأ الطبقات ولا النتيجة الواقعية لنضالها. لقد اعتبروا أن الطبقات نتيجة للمكتسبات القائمة على الجهد، وأعلنوا أن نضال الطبقات صالح للمجتمعات السابقة فقط لا للمجتمع الرأسمالي. واعتبروا النضال الطبقي، في المجتمع الحديث، أي نضال العمال ضد البورجوازية، نضالا غير نضال غير قانوني ولا يمكن السماح به.

هكذا تم اكتشاف وجود الطبقات والنضال الطبقي قبل ماركس. وقد استند مؤسسا الماركسية الى منجزات العلم الاجتماعي البورجوازي في دراسة البنية الطبقية للمجتمع ونضال الطبقات. لكن هذا لايعني أن العلم الماركسي عن الطبقات هو استمرار وتطور بسيط للنظريات السابقة.

الفرق الجذري بين النظرية الماركسية للطبقات والنظريات السابقة

ان النظرية العلمية للطبقات والنضال الطبقي وضعت، لأول مرة، من قبل الماركسية. لقد حدد ماركس جوهر النظرية الماركسية للطبقات والنضال الطبقي واختلافها المبدئي عن النظريات البورجوازية في رسالته الشهيرة الى فيديجير، في ٥ آذار ١٨٥٣، حيث كتب متناولا قضية الطبقات: «فالجديد عندي يتجلى في الأشياء التالية: ١) ان وجود الطبقات مرتبط فقط بالمراحل التاريخية المعينة لتطور الانتاج، ٢) وأن النضال الطبقي يؤدي حتما الى دكتاتورية البروليتاريا، ٣) وأن هذه الديكتاتورية ذاتها عبارة فقط عن الانتقال الى تحطيم الطبقية، وتؤدي الى مجتمع لاطبقي...»[1].

وهذا يعني، أولا، أن ماركس، اذ أرجع ظهور الطبقات ونشوءها الى

---

(١) ماركس وانجلس. مؤلفات مختارة. الجزء ٢ ص٤٣٣.

متطلبات الانتاج المتطور، أعطى، لأول مرة، تفسيراً مادياً علمياً للطبقات، ويعني ثانياً، أنه توصل، عن طريق تبيانه أن الطبقات ظاهرة مؤقتة وليست خالدة، وأنها نشأت بالضرورة، وبالضرورة ستختفي بعد تحقيق دكتاتورية البروليتاريا، توصل الى معالجة قضية الطبقات، انطلاقاً من مواقع الوجهة التاريخية، أي بصورة ديالكتيكية.

وبهذا، كوّن ماركس نظرية مادية ديالكتيكية علمية حول الطبقات والنضال الطبقي تختلف، من حيث المبدأ، عن النظريات البورجوازية التي كانت تعتمد على المثالية والميتافيزيك.

ان النظرية الماركسية للطبقات هي جزء عضوي من المادية التاريخية والاشتراكية العلمية.

تعريف لينين للطبقات الاجتماعية

لابد لنظرية الطبقات، قبل كل شيء، من وضع مقياس علمي لتقسيم المجتمع الى طبقات، وتحديد السمات الجوهرية للفوارق الطبقية وفقاً له. ولقد أبرز لينين هذه السمات وصاغها بدقة في مؤلفة « المبادرة العظمى ».

يقول لينين: « ان الطبقات هي تسمية لفئات كبيرة من الناس تختلف بالمكان الذي تحتله تاريخياً في نظام معين للانتاج الاجتماعي وبعلاقتها (التي تتعزز في أغلب الأحيان وتتشكل في القوانين) بوسائل الانتاج، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، بطرق الحصول على حصصها من الثروة الاجتماعية وبمقدار هذه الحصص. والطبقات هي فئات من الناس يستولي بعضها على عمل البعض الأخر وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله في قطاع معين من الاقتصاد الاجتماعي ». فلندرس هذا التعريف.

ان المجتمع لايمكن ان يتكون من طبقة واحدة فقط، فهو اما مجتمع طبقي واما مجتمع لاطبقي. فالمجتمع الطبقي موزع الى فئات كبيرة من الناس يناقض

بعضهـا البعض. وان الفـوارق بين الـطبقـات تنفـذ الى جميع مادين الحياة الاجتماعية من الاقتصاد الى الايديولوجية، ولكنها تنشأ في الانتاج.

ان الـطبقـات هي ظاهـرة تاريخية ملازمة للتشكيلات الطبقية المتناقضة. وتكـون الـطبقـات في كل منهـا أصيلة ومختلفة من حيث مكانها في الانتاج: فبعض الـطبقـات تكون مسيطرة وأخرى مضطهدة. ان وضع الطبقات هذا مشروط بعلاقتها المختلفة بوسائل الانتاج. هذه هي أهم سمة محددة للفوارق الـطبقية. فليس ثمة طبقات في المجتمع الذي يكون الناس فيه ذوي علاقة واحـدة بوسـائـل الانتـاج. ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الأساس الاقتصـادي لانقسـام المجتمع الى طبقات، أساس استغلال مالكي وسائل الانتـاج للطبقـات الكادحة المنتجة للخيرات المادية. وهكذا، فان السمتين الأوليين للفوارق الطبقية اللتين أشار اليهما لينين تعبران عن جوهر وخصائص النظرية الماركسية للطبقات. إنهما تكشفان عن الرابطة بين وجود الطبقات وبين التشكيلات الاجتـماعية المعينـة، وتـبرزان المقياس الـرئيسي لتحديد الفوارق الطبقية، ذلك المقياس هو العلاقة بوسائل الانتاج. أما السمات الأخرى فهي سمات فرعية.

ان العلاقة بوسائل الانتاج تحدد دور الطبقة في التنظيم الاجتماعي للعمل. ان البـورجوازية في العهد الرأسمالي هي منظمة الانتاج، بينما العمال يكونون مضطرين للخضوع الى نظام العمل الرأسمالي. وينبغي القول بأن الرأسماليين ليسوا رأسماليين لأنهم ينظمون الانتاج. وانما الأمر على العكس من ذلك، فهم يقومون بتنظيم الانتاج لأنهم رأسماليون ـ مالكون لوسائل الانتاج الرئيسية.

ويتسـع استخـدام الـرأسـماليين للنـاس الاختصـاصيين من أجل تنظيم الانتـاج. فيقـدمـون لهم الرواتب الباهظة والمراكز العالية كرؤساء للشركات ومدراء ومراقبين... الخ.

أما الانتهازيون في الرأسمالية المعاصرة، وكذلك الاصلاحيون والتحريفيون فهم يصورون حقيقة عدم قيام مالكي وسائل الانتاج بالادارة المباشرة للانتاج

على أنها، أولا، تغيير لشكل الرأسمالية الى مايدعى بـ« مجتمع المديرين »، كما لو كان الاختصاصيون التكنيكيون هم أصحاب الحل والربط وليس الرأسماليون. ويفسرون هذه الحقيقة، ثانياً، على أنها تصفية للاستغلال. ويعتبر هذا الرأي نموذجيا بالنسبة للنظريين البورجوازيين، وذا انتشار واسع بينهم.

صحيح، ان الرأسمالية المعاصرة تختلف عن رأسمالية القرن الماضي، لكنها لاتتعدى كونها رأسمالية. ان « المديرين » ينفذون ارادة الرأسماليين المالكين، ويبقى الربح هدف الانتاج، كما وان الاستغلال يبقى بكليته. لكنه ثمة نتيجة مهمة لتحليل هذه العملية - فهي تبرهن على التطفل المتزايد لطبقة البورجوازية وعدم لزومها مطلقاً للانتاج. وكما تدل تجربة الاتحاد السوفييتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى، فان الكادحين، وفي طليعتهم الطبقة العاملة، ينظمون، بعد سيطرتهم على وسائل الانتاج، الانتاج الاجتماعي بنجاح وبدون الرأسماليين.

والسمة الأخيرة التي أشار اليها لينين هي - أشكال ومقدار الدخل. هذه السمة تنبغي دراستها بربطها مع كل السمات الأخرى. ثم لاينبغي نسيان أن هذه العلاقة بوسائل الانتاج تحدد طريقة تحصيل الدخل ومقداره لهذه الطبقة أو تلك. وهكذا، فان البورجوازي والبروليتاري يختلفان بشكل الدخل، اذ هو الربح عند الأول، وأجور العمل عند الثاني. وان حفنة الرأسماليين ينفردون بحصة الأسد من الثروة الاجتماعية وذلك على شكل أرباح، بينما لاتتعدى اجرة العمل لملايين العمال قيمة قوة عملهم، وكثيراً مايعجزون عن نوال هذا أيضاً.

ان مسألة التوزيع تلعب دوراً مهمًا في حياة المجتمع لأن طابع التوزيع يحث على الانتاج مباشرة ويحدد مستوى حياة الفئات المختلفة من السكان.

ان الايديولوجيين البورجوازيين يصورون الرأسمالية المعاصرة كلوحة شاعرية. إنهم يذهبون الى أن التوازن في البلدان الرأسمالية المتطورة يتحقق بين

الدَّخل وبين مستوى المعيشة: فيتقلص دخل الأغنياء، ويزداد دخل الفقراء، وتتسع « الطبقة الوسطى » التي تبتلع الفئات العلوية والسفلية. ومن هنا ينتهون الى القول « باختفاء » الفوارق الطبقية والنضال الطبقي في المجتمع الرأسمالي، وبالطبع، بعدم ملاءمة الماركسية للنظام الرأسمالي.

لكن هذه اللوحة تشوِّه الواقع. لنأخذ، على سبيل المثال، الولايات المتحدة الأمريكية أغنى بلد رأسمالي في العالم، حيث تمكنت الطبقة العاملة في نضالها ضد الرأسمالية الأخرى. فهل هناك ثمة تساو في الدخل؟ هاكم بعض الأرقام: في عام ١٩٥٧ كان متوسط الدخل لـ٢٠٪ من الأسر الامريكية ذات الدخل المنخفض يؤلف حوالي ١٥٠٠ دولار في العام، ومتوسط الدخل لـ٥٪ من الأسر الأوفر سعة كان يؤلف ٢٥,٠٠٠ دولار في العام - أي ان الفرق ١٧ ضعفاً تقريباً. فأي توازن هذا؟ لكن متوسط الأرقام لايكفي دائماً. ففي ذلك العام كانت أجور الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية أقل بـ٣٦,٦٪ والزنجيات بـ٤٠٪ من أجور البيض. وان ٣٣٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون في الأكواخ. ان الرأسماليين يضعون أيديهم على الكمية الرئيسية من الدخل القومي. فلو أخذنا العالم الرأسمالي ككل لوجدنا أن الهوة بين الغني والفقير أشد عمقاً.

وهنا ينبغي التأكيد على ان الطبقات المستغلة كلها تملك دخلا ناتجاً لا عن عملها وانما عن ابتزاز عمل الغير. وان النشاط الانتاجي المادي للكادحين هو ينبوع غنى الطبقات المستغلة. وتحيط الطبقة المسيطرة الشكل المعين للملكية الخاصة التي تشرط سيطرة طبقة على أخرى، باطار قدسي، وتعززه بطريقة سن القوانين، وتحميه بكل مالدى الدولة من قوة.

نشوء الطبقات

في مرحلة معينة من تطور الانتاج تنشأ امكانية بل حتمية ظهور الطبقات.

ان لامكانية ظهور الطبقات جذورها العميقة في مستوى معين لانتاجية العمل حيث يظهر العمل الفائض ويصير استغلال قوى الانسان العاملة أمراً مربحاً اقتصادياً. ولقد أشار ماركس، لدى توضيحه هذه الفكرة في « رأس المال » الى أنه طالما لم تبلغ انتاجية العمل الحد الأدنى المطلوب بعد، فلن يكون عند العامل وفر زمني لابد منه لتوفير العمل الفائض، وبالتالي لن يكون هناك رأسماليون أو اقطاعيون أو مالكو عبيد، وبكلمة أخرى، لن توجد تلك الطبقة من الملاكين الكبار الذين يعيشون على حساب عمل الغير.

ان لحتمية ظهور الطبقات جذورها في مستوى معين لتطور الانتاج حيث يكون تطوره مستحيلا بدون تقسيم العمل. ولقد أشار انجلس، عند توضيح هذه الفكرة في كتابه « أنتي دهرينغ »، الى أنه طالما أن العمل الاجتماعي يعطي انتاجاً عاماً يفوق حد الوسائل الضرورية لوجوده، وطالما ان العمل يستهلك معظم وقت غالبية أفراد المجتمع او كل هذا الوقت، فان المجتمع لابد وأن يقسم الى طبقات. والى جانب هذه الغالبية العظمى - المنهمكة في العمل الاكراهي تنشأ طبقة متحررة من العمل الانتاجي وتقوم ببعض الاعمال الاجتماعية كادارة العمل أو الحكم أو القضاء أو في مجالي العلم والفن الخ . . . وعن هذا ينتج أن قانون تقسيم العمل كامن في أساس نشوء الطبقات.

ان ظهور الطبقات يعني تقسيم المجتمع الواحد. كيف تتكون الطبقات نتيجة لتطور الجماعية القبلية البدائية؟

ان تطور قوى الانتاج، ونمو انتاجية العمل، وتقسيمه، تخلق المنطلقات الاقتصادية من أجل ظهور الطبقات. فهي تتكون بادىء ذي بدء عن طريق تقسيم الجماعية البدائية الى فئات طبقية. فتتشكل الطبقة المسيطرة من تلك الأسر التي كانت تقوم بالوظائف الاجتماعية وتستخدمها من أجل تجميع الثروات الضخمة بين ايديها.

ان الناس المختارين من أجل ادارة وظائف اجتماعية معينة في ظروف تقسيم

العمل والملكية الخاصة لا يفتؤون يسيئون استخدام الوظائف الاجتماعية ليجعلوها وقفاً عليهم مدى الحياة ثم يتوارثها أحفادهم من بعدهم .

وهكذا يتحول خدم المجتمع الى سادته .

ان كثيراً من نظريي البورجوازية والبورجوازية الصغيرة كانوا يؤكدون أن المصدر الأول لتقسيم المجتمع الى طبقات هو العنف ، كالفتح ، مثلاً . صحيح لقد لعب العنف دوراً كبيراً في عملية نشوء الطبقات ، لكنه لايستطيع لوحده أن يولد الطبقات . فعندما كان الناس يستخدمون الفأس الحجرية لم يكن أي عنف قادراً على خلق الانتاج الفائض ، وبالتالي : على خلق الشروط لموجود علاقات استغلالية . إن العنف ليس سبباً ولكنه نتيجة ! وان الأسباب الاقتصادية هي التي مهدت السبيل لنشوء الطبقات .

ان أول تقسيم طبقي للمجتمع كان الى فئتين : فئة الأرقاء ، وفئة ملاكي الأرقاء .

ولكن قضية نشوء الطبقات لاتفسر بهذا فقط ، فالانتقال من مجتمع عهد الرق الى المجتمع الاقطاعي ، ومن المجتمع الاقطاعي الى الرأسمالي لايعني تحولاً بسيطاً ، لتلك الطبقات التي نشأت من قبل ، الى طبقات التشكيلة الجديدة ، أي تحول الأرقاء الى فلاحين أقنان ، وأسياد الرقيق الى اقطاعيين . لقد كان تغير تشكيلة عهد الرق الى تشكيلة اقطاعية مرتبطاً بعملية جد معقدة .

وعندما درس ماركس عملية التكديس الرأسمالي الأول في « رأس المال » أعطى وصفاً لظهور الطبقتين الرئيسيتين في التشكيلة الرأسمالية : البورجوازية والبروليتاريا .

ولقد بلغ المجتمع في وقتنا هذا مستوى من التطور نضجت فيه مسألة القضاء على الطبقية . وان البلدان الاشتراكية تقوم بحل هذه المسألة حلا عملياً .

* * *

٢ ـ تحليل البنية الطبقية للمجتمع

طريقة التحليل الطبقي: ان النظرية الماركسية اللينينية للطبقات تمكننا من فهم دوافع الناس الكثيرة والمتنوعة، وربطها بالمصالح المادية المعينة للفئات الاجتماعية الكبيرة ـ الطبقات، ربط الفردي بالاجتماعي العام. ويسمح لنا تحليل الجذور الاجتماعية لتلك الدوافع بكشف الأسباب المادية التي تحدد أفكار الطبقات وعلاقاتها السياسية، وحركة الجماهير الواسعة وتصادمها. فمثلا يمكن أن يكون الرأسمالي رب أسرة صالحاً، يحب أولاده، ويهوى جمع التحف والأشياء الصغيرة الجميلة الأخرى، بينما الآخر يكون شريراً حقوداً شيطانياً لايهمه أمر أسرته أوماعداها. . . بيد أن الأمر الرئيسي الذي يجمع بينهما هو أن لكل منهما ملكية، وكلاهما رجل أعمال يبتز الأرباح ويقوم بتمثيل طبقته الاجتماعية. فلكي تشخص طبقة الرأسماليين لاتهم الجدارة الشخصية، وعيوب ممثلي هذه الطبقة، بل المهم هو أن نشاطها يحفزه الركض وراء الربح وأنها تعيش على استثمار البروليتاريا، وتهتم في حفظ وتمتين علاقات السيد والمسود. وبالطبع، ان هذه العلاقات والمصالح الطبقية تنفذ الى العلاقات الشخصية في المجتمع البورجوازي وتترك أثرها الواضح على الصفات الخاصة بممثلي الطبقات البورجوازية. ان تأثير هذه المصالح الضار، وعدم انسجامها مع العلاقات الانسانية الصحيحة تنعكس في مؤلفات كثير من الكتاب الواقعيين. والحقيقة أن تلك المصالح بالذات هي الدافع المحرك الأساسي لنشاط البورجوازية كطبقة، وينبغي ألا ننسى هذا لدى تحليلنا للمجتمع الرأسمالي.

وهكذا فنحن، اد نحدد المصالح الرئيسية للطبقات، المشروطة بمكانها التاريخي في نظام معين للانتاج، نستطيع أن نبين بجلاء إليم تهدف كل طبقة بالنسبة لشروط حياتها، وماذا تحقق من تلك الأهداف، وأن نفهم كذلك العمليات العميقة التي تحدث في المجتمع. وعند تحليلنا للبنية الطبقية لمجتمع

أو لبلد ما ونحـدد مصـالـح كل طبقة فيه، فاننا نحصل على لوحة موضوعية للعـلاقـات بين قوى ذلـك المجتمـع، ونبـين الجـانب الجـوهري لتناقضاته ومنازعاته. ان طريقة الدراسة الطبقية والتحليل الطبقي التي وضعتها النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الطبقات والنضال الطبقي، هي المرشد الضروري في دراسـة التاريخ، والوسيلة الكفيلة لاهتدائنا في شبكة النضال المعقدة. ولقد استخدمت هذه الطريقة عملياً في أعمال ماركس وانجلس ولينين. وتسير على هديها الأحزاب الشيوعية في العالم كله عند تحديد سياستها في ظروف النضال الحسية المختلفة.

البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي

ان البنية الـطبقية لأي مجتمـع كان هي لوحة شديدة التعقيد. ومن أجل تحليلها تحليلا صحيحاً ينبغي، قبل كل شيء، تحديد الطبقات الرئيسية التي تعبر العلاقات فيما بينها عن الخط الرئيسي لتطورها، منطلقة من قاعدة ذلك المجتمع. وينبغي أيضاً أن نعترف بوجود طبقات ثانوية غير أساسية في المجتمع مرتبطة بوجود قطاعات الاقتصاد، وفئات اجتماعية متوسطة تختلف بتركيبها عن الـطبقـات. فلنـأخـذ، على سبيل المثال، البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي المعاصر. ان الطبقتين الرئيسيتين فيه هما البورجوازية والبروليتاريا. وان وجود هاتين الطبقتين في المجتمع مشروط بعلاقات الانتاج الرأسمالية. وخلال التأثير المتبـادل بين هاتـين الـطبقتـين تتم حركة الانتاج الرأسمالي. ان البورجوازية والـبروليتاريا هما قطبا المجتمع الرأسمالي المتباعدان، ومصالحهما تقف مباشرة على طرفي نقيض، فبينـما ينحصر اهتـمام الـبروليتـاريا في القضاء على النظام الرأسمالي، نرى البورجوازية تجهد للحفاظ عليه. ان الأحزاب الشيوعية تعبر عن مصالح البروليتاريا الطبقية كقوة ثورية رئيسية للمجتمع الرأسمالي المعاصر.

ان القطاع السلعي الصغير يمثل الحرفين والتجار الصغار والفلاحين. إن الفلاحين هم طبقة وسطية لا أساسية في المجتمع الرأسمالي، موجودة، تقريباً، في جميع البلدان الرأسمالية.. وتحت تأثير العلاقات الرأسمالية ينقسم الفلاحين الى بورجوازية ريفية وبروليتاريا. ان ملكية الفلاحين الخاصة تختلف عن الملكية الرأسمالية الخاصة بكونها قائمة على أساس العمل الشخصي. فالفلاحون لايستثمرون عمل الآخرين بل هم أنفسهم يخضعون للاستغلال الرأسمالي.

وبالاضافة الى الرأسماليين والعمال والبورجوازيه الصغيرة في المجتمع الرأسمالي ثمة فئة كبيرة من المثقفين والمستخدمين. وهذه الفئة ليست مالكة لوسائل الانتاج، ولا منتجة للخيرات المادية، ولهذا فهي تمثل فئة اجتماعية، لاطبقة اجتماعية. فالمستخدمون هم عمال مأجورون في قطاع الانتاج الاجتماعي اللامادي، أي في مؤسسات الدولة، والأجهزة الادارية للشركات، والتجارة.. وغيرها. والمثقفون هم العاملون الفكريون: المهندسون والأطباء والمعلمون ورجال الأدب والفن... وهم من حيث عملهم يؤلفون حداً وسطاً بين الطبقات، ويخدمون أغراض الانتاج والمجتمع والطبقة المسيطرة.

وهكذا فبالاضافة الى الطبقات الرئيسية والثانوية في المجتمع ثمة فئات اجتماعية ومختلفة قائمة بين الطبقات.

وينبغي علينا، اذ نواصل تحليلنا للبنية الطبقية في المجتمع الرأسمالي، أن نتبن أن تلك الطبقات والفئات الاجتماعية جميعاً مختلفة في أصولها. ففيها ثمة فئات ومجموعات ذات مصالح متباينة. ان تحديد الفروق بين البورجوازية الصغيرة، والكومبرادور، في البلدان المتخلفة، وبين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الاحتكارية الكبيرة، في البلدان الرأسمالية المتطورة، ذو أهمية جوهرية. ففي وقتنا الحاضر نجد أن القوة الاقتصادية والسياسية للعالم الرأسمالي تنحصر في أيدي البورجوازية الاحتكارية ـ في أيدي حفنة صغيرة من أساطين رأس المال الذين ينفردون بالكمية الأساسية من الربح. ان مصالحهم

تتناقض مع مصالح أغلبية الناس المطلقة. إنهم يعلنون العداء للشيوعية، ويؤثرون نار الحرب الباردة، ويركضون وراء التسلح. ان البورجوازية الاحتكارية هي القوة الرجعية الرئيسية في زمننا المعاصر، المعادية لقضية السلم، والديمقراطية، والتقدم الاجتماعي.

أما فيما يتعلق بالبورجوازية المتوسطة فهي لاتهتم دائماً بالركض وراء التسلح، وان البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة أو التي كانت مستعمرة يمكن أن تكون، في مراحل معينة، قوة تقدمية وحليفة للطبقة العاملة في نضالها ضد الاستعمار.

وتنقسم البورجوازية الصغيرة الى بورجوازية المدينة الصغيرة وبورجوازية الريف، وتنقسم هذه الأخيرة الى ريفية متوسطة وفقيرة... وهكذا.

وفي الطبقة العاملة ثمة فئات العمال الصناعيين والعمال الزراعيين، فئات العمال المهرة، والعمال العاديين... الخ. وهناك فئة الارستقراطية العمالية التي تعتبر الأساس الاجتماعي للانتهازية، ومن الملاحظ تضاؤل عددها وانحسار تأثيرها، في وقتنا الحاضر، نتيجة انهيار النظام الاستعماري. فقد أدى هذا الى استغناء البورجوازية الاحتكارية في الدول الاستعمراية عن العدد الضخم الذي كانت تشكله الارستقراطية العمالية. وبالاضافة الى هذا، فان من نتائج التقدم التكنيكي المرتبط بأتمتة الانتاج في النظام الرأسمالي تقلص الحاجة الى العمال ذوي الكفاءات العالية والاختصاصات القديمة. وبنتيجة ذلك تفقد الوظائف المرتفعة الاجور، التي كانت تتمثل في الاريستقراطية العمالية، تفقد أهميتها.

وثمة فئات أخرى مختلفة من المثقفين والمستخدمين يتميز من بينهم مديرو المؤسسات، وكبار الموظفين، والاختصاصيون التكنيكيون... وغيرهم. وهذه الفئات تندمج في الواقع مع البورجوازية، أو تلتقي معها بنمط وطريقة التفكير. وإن الفئات الدنيا من المثقفين والمستخدمين يستغلهم الرأسماليون. ان معدل الاجور الوسطي لتلك الفئات من المثقفين هو أدنى من الحد

الـوسطي لأجور العمال ذوي الكفاءات. وبموجب مكننة الحسابات وأعمال المحاسبة وأشكال النشاط الأخرى في القطاع اللاانتاجي تتقارب شروط عمل العمال والمستخدمين. ويزداد الآن بسرعة عدد واهمية المستخدمين والمهندسين التكنيكيين في المؤسسـات الرأسمالية. ولهذا فقد اعتبر الماركسيون في كثير من البلدان أن أهمية هذه الفئة من الكـادحـين يمكن أن تعد صفاً من صفوف الطبقة العاملة في وقتنا الحاضر. فهم يقولون ان المستخدمين هم أيضاً عمال لكنهم لايرتـدون بدلات زرقـاء وانـما ذوو ياقات بيضاء، وان الوظائف التي يقـومـون بها تؤلف جزءاً هاماً في بنية الانتاج بموجب مهمات الأتمتة الجديدة للتكنيك. وثمة فريق آخر يعتبر أن هذه النظرة غير صحيحة ألبتة. صحيح انه يلاحظ، في البـدان الـرأسمالية، عملية «ازالة الحدود» بين العمال وقسم من المستخـدمـين، وتحـول المستخـدمـين الى بروليتـاريين، واقترابهم من الطبقة العاملة، ولكنه، مع هذا، يبقى بين العمال والمستخدمين حد مبدئي لايسمح بادخـال المستخـدمـين ضمن الطبقة العاملة. ان الطبقة العاملة تنتج فضل القيمـة أمـا نشاط المستخدمين فمرتبط بحسابات فضل القيمة المنتج وتبادله وتوزيعه... الخ. أما ما يتعلق بالمهندسين والتكنيكيين الذين يعملون مباشرة في ميدان الانتـاج المـادي فانهم يقـومون بوظيفة المراقبة رغم توفر أمور كثيرة تقربهم من الطبقة العاملة.

هذه القضية ما تزال اذن موضـع نقـاش. لكن الجميع يتفقـون على أن البروليتاري الصناعي هو نواة الطبقة العاملة، والقوة الرئيسية للحركة الثورية.

ان الحدود التي تفصل بين الطبقات والفئات الاجتماعية هي، في الغالب، حدود نسبية وغير ثابتة، ويكون الانتقال تدريجياً، ولكن هذه الفوارق موجودة فعلا، ويتمتع ابراز الكتل الاجتماعية الاساسية بأهمية فائقة من أجل التطبيق ومن اجـل العلم الاجتـماعي. ان البنية الاجتـماعية للمجتمع الرأسمالي جد معقـدة، لكننـا نستـطيع أن نبرز منها ثلاث فئـات رئيسية : البورجوازية، والـبروليتـاريا، و « الفئـات المتـوسـطة » التي تضم جميع الفئات الاجتماعية

المتوسطة والطبقات الثانوية.

إن تحليلنا للبنية الاجتماعية ولمصالح الفئات الاجتماعية المختلفة ووزنها في المجتمع، ودرجة وطابع تأثيرها على الحياة الاجتماعية، نستطيع متابعته، وتجسيده في بلد ما وفي فئات بلد ما، آخذين، بعين الاعتبار، تأثير الخصائص القومية على الطبقات والعلاقة المتبادلة فيما بينها... الخ. وستكون لدينا، في النهاية، لوحة موضوعية لوضع نسبة القوى في المجتمع تنبغي معرفتها لدى تفسير سير الأحداث التاريخية، ولدى تحديد الخط السياسي لحزب البروليتاريا في هذه الشروط المشخصة أو تلك.

نقد النظريات البورجوازية «التنضيد الاجتماعي»

ان علماء الاجتماع البورجوازيين، اذ يستغلون تعقد البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي الحديث يحالون نفي وجود طبقتين رئيسيتين في المجتمع، وتغطية التناقض القائم بينب البورجوازية والبروليتاريا، ويقابلون الماركسية بمايسمى بنظرية «التنضيد الاجتماعي»، التي ينقسم المجتمع بموجبها الى فئات. ومهمة عالم الاجتماع، في نظرهم، هي تقصي تقسيم المجتمع الى هذه الفئات ـ تنضيد المجتمع وحركة الناس ضمن الفئات وفيما بينها ـ أي الحركة الاجتماعية.

هنا نتساءل: ما هو المقياس المستخدم لتبيان الفوارق بين هذه الفئات؟ ولدى الاجابة على هذا السؤال ليس ثمة رأي واحد بين علماء الاجتماع البورجوازيين. لكنهم جميعاً يتفقون على نفي القول بأن «العلاقة بوسائل الانتاج هي الدليل الحاسم في تقسيم المجتمع الى طبقات. وعندما يأتون بمقياس اقتصادي فانهم لا يتعدون مجال التوزيع (مقدار الدخل) أو الشروط الحياتية المادية (المعيشة)، أي تلك الجوانب من الحياة التي ترتبط بالانتاج. وكمثال على ذلك يمكن أخذ نظرية «التنضيد ذي المقاييس

الكثيرة » الصادرة عن عالم الاجتماع الألماني « م. فيبر» (توفي عام ١٩٢٠). كان هذا العالم يعتبر أن المجالات الاقتصادية الاجتماعية (« نمط الحياة ») والسياسة هي « مقاييس » مختلفة وقائمة بذاتها للحياة الاجتماعية، ويفترض أنه من الممكن دراسة الفوارق الاجتماعية في كل من هذه المقاييس على حدة. وبهذه الطريقة يحصل على عدة « تنضيدات » : ففي المقياس الاقتصادي ينقسم الناس الى طبقات، وفي المقياس الاجتماعي ـ يتكون النظام الـ « ستاتوس »[1]، وفي المقياس السياسي ـ يظهر الانقسام الى أحزاب. ان عيب هذه النظرية هو في نفيها الإتباط مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة بالاقتصاد، وفي استبدالها النظرة الموحدة العميقة للحياة الاجتماعية بنظرة شكلية ظاهرية، وهذا ما يتسم به علم الاجتماع البورجوازي المعاصر بوجه عام. وليس من قبيل الصدفة جعلهم مبدأ « التنضيد الاجتماعي » كأحد منجزات العلم الاجتماعي. وعلى أساس هذا المبدأ قام كثير من النظريات التي تختلف عن نظرية فيبر، والواحدة منها عن الاخرى، بعدد المقاييس وطابع السمات الموضوعة في أساس التنضيد وقد قال عالم الاجتماع البورجوازي الانكليزي « ت. مارشال » بصدد هذا المبدأ، في المؤتمر الدولي الثالث لعلم الاجتماع، عام ١٩٥٦، : « لم يعد ثمة ريب الآن أن في كل مجتمع تقدمي، حيث النشاط الاجتماعي والثقافي على مستوى جيد من التطور تعمل بعض مقاييس التنضيد ».

ان نظريات «التنضيد الاجتماعي» ليست علمية اجمالا. ان مايميزها جميعا، هو نبذها الاعتماد على مقياس اقتصادي موحد من أجل تحديد بنية المجتمع الطبقية؛ وخلطها مابين التقسيم الطبقي الرئيسي للمجتمع وبين الحواجز الانتاجية الثانوية بين الناس؛ وأنها تفضي بنا حتمًا الى الذاتية في فهم التاريخ؛ كما يميزها أيضاً تغطيتها للتناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في

---

(١) قواعد موضوعة من أجل تحديد سلوك جماعة ما.

المجتمع الرأسمالي، وهي أمور ترفضها المادية التاريخية. وفي هذا تتجلى الطبيعة الطبقية لنظرية «التنضيد الاجتماعي»، ودورها المفيد بالنسبة لمصالح البورجوازية.

إن حماة الرأسمالية المعاصرة لن يفلحوا، مهما حاولوا، التهرب من الحقيقة القائلة بأن علاقات الانتاج الرأسمالية تحمل طابعاً تناقضياً، ذلك لأن علاقات الاستغلال والسيطرة والاخضاع، لابد لها وأن تولد النضال الطبقي.

•

٣ ـ النضال الطبقي، ودوره في التاريخ خصائص النضال الطبقي للبروليتاريا

النضال الطبقي ـ قوة محركة لتطور التشكيلات المتناقضة

مع انقسام المجتمع الى طبقات ينشأ النضال الطبقي الذي يؤلف ـ كما رأينا ـ خاصة التطور لكل التشكيلات الاجتماعية المتناقضة. ان النضال الطبقي، اذ ينشأ عن علاقات الملكية الخاصة، يصبح وسيلة في يد الطبقة المستغِلة من أجل تعزيز سيطرتها، والطريقة الوحيدة للتحرر من يد الطبقة المظلومة المضطهدة. وثمة قطبان دائمان في النضال الطبقي : محافظ رجعي ـ من جهة، وثوري من جهة أخرى. الأول يسعى للمحافظة على القديم، والثاني لتحطيم هذا القديم، وانشاء علاقات اجتماعية جديدة.

ان الطبقات تعمل حسب مصالحها المتبطة بالعلاقات الانتاجية. فمصلحة الطبقات المظلومة تدفعها الى النضال ضد المستغِلين. وطالما أن الشروط المادية لقيام النظام الاجتماعي الجديد لم تنضج بعد، فان التشكيلة القديمة لا تستنفذ كل امكانياتها بعد، ويتسنى لها، بذلك، الابقاء على القديم في نضالها ضد الطبقات المظلومة.

ان القوى الثورية تنتصر عندما تنضج المنطلقات المادية اللازمة لهذا النصر، عندما يحتدم النزاع بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة في قلب المجتمع. وفي هذه الظروف يكون النضال القوى الشعبية الطبقي الثوري، التي يهمها تحطيم العلاقات الاقتصادية المهترئة هو وحده القادر على حل هذا النزاع، وفتح الطريق أمام تطور قوى الانتاج. ان النضال الطبقي الثوري هو الوسيلة الوحيدة التي، بواسطتها، تحل القضايا الناضجة للتطور الاجتماعي في التشكيلات الطبقية المتناقضة، ويكفل انتصار الجديد على القديم. ولهذا فهو القوة المحركة لتطور التشكيلات الطبقية، وشكل حل التناقضات الاجتماعية في ذلك المجتمع.

ان خاصة كل تشكيلة اجتماعية قائمة على الملكية الخاصة هي في أن تناقضاتها لا يمكن أن تحل في نطاق هذا الشكل من الملكية. ومع تطور التشكيلة تتعمق هذه التناقضات وتحتدم وتنعكس في النضال الطبقي، وتُحَلّ بالثورة التي تحطم النظام القديم وتفتح الطريق امام تطور اسلوب الانتاج الجديد. ان الثورة ذاتها هي أعلى نقطة في قمة النضال الطبقي. وعلى هذا، فان نضال الطبقات الثورية هو ذلك الشكل الضروري، تاريخياً، من أجل النشاط العملي الاجتماعي، الشكل الذي يؤدي الى الخروج عن نطاق التشكيلة الاجتماعية المتفسخة فيحرك بهذا المجتمع قدماً الى الأمام، ويرفعه الى درجة جديدة أعلى تكون شروطها المادية مهيأة لتطور الانتاج.

لقد قوض النضال ضد ملاكي الأرقاء بنيان مجتمع عهد الرق؛ وأدى نضال الفلاحين وحرفيي المدينة الصغار قيادة البورجوازية، الى سقوط النظام الاقطاعي وفتح الطريق للتطور الرأسمالي. وفي عهد الرأسمالية يتطور نضال البروليتاريا ضد البورجوازية.

ويؤثر النضال الطبقي كذلك على تطور قوى الانتاج. فكما أوضح ماركس، ان نضال العمال من أجل تقليص يوم العمل جعل الرأسماليين مضطرين للبحث عن وسائل مضاعفة الأرباح بطرق أخرى ـ كادخال الآلات مثلا.

كما يؤثر النضال الطبقي أيضاً على الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية. فالتغيرات في البنيان الفوقي القانوني ـ السياسي، والظواهر الكثيرة في مجال الأدب والفن، وكل النضال الايديولوجي في المجتمع، يحددها جميعا النضال الطبقي.

جوهر النضال الطبقي للبروليتاريا ومهماته

ان مأثرة الماركسية اللينينية التاريخية هي في تحليلها العملي لنضال البروليتاريا الطبقي وأسباب نشوئه ومجالات تطوره. وان منطلقات المادية التاريخية بالنسبة لهذا الموضوع هي كما يلي:

ان التناقضات العنيفة الحادة بين البروليتاريا والبورجوازية تنشأ حتماً عن العلاقات الانتاجية الرأسمالية، علاقات استغلال رأس المال للعمل المأجور. وان ظروف الحياة، نفسها، تدفع البروليتاريا الى النضال ضد البورجوازية من أجل تحسين معيشتها. ومع تطور الرأسمالية لا تخفا حدة هذه التناقضات بل تزداد احتداماً.

والى جانب هذا فالرأسمالية تطور الشروط المادية التي تحدد اتجاه نضال البروليتاريا الطبقي ونتائجه الحتمية. والرأسمالية، اذ تطور القوى الانتاجية الجبارة، وتضفي على عملية الانتاج الطابع الاجتماعي، تخلق المنطلقات المادية للقضاء على استغلال واستبدال الملكية الخاصة بملكية اجتماعية ملائمة لطابع قوى الانتاج. ان وجود الطبقات، الذي كان ضرورة في احدى مراحل تطور الانتاج الاجتماعي، يتحول الى عائق للتقدم التاريخي. وفي مثل هذه الشروط لايقدر البروليتاري أن يحرر نفسه الا بتحرير المجتمع، ككل، من الملكية الخاصة ومن الاستغلال. وان حل هذه المسألة الاجتماعية يؤلف المهمة العالمية التاريخية العظيمة للبروليتاريا ـ أكثر الطبقات ثورية في التاريخ.

هناك من يتهم الماركسيين بأنهم يجعلون من البروليتاريا صانعة المعجزات،

ويعتبرونها الطبقة « المختارة ». كلن هذه الاتهامات لا أساس لها، ذلك أن لكل طبقة خصائصها، وليس ثمة مستحيل في هذا. ان لطبقة البروليتاريا خصائصها اذن. فهي طبقة لا تمل شيئاً، وليست ملزمة بالدفاع عن أية ملكية خاصة حتى الملكية الصغيرة، وهي لا تفقد شيئاً غير قيودها. وليس من ريب اذن في أنها المناضل الذي لا يكل ضد كل ملكية خاصة. ثم ان البروليتاريا مرتبطة بأكثر أشكال الانتاج تقدمية ـ بالصناعة الضخمة؛ ولهذا فهي تتطور مع تطور الرأسمالية. وجماهير البروليتاريا تتجمع بحشود ضخمة في المعامل والمصانع، وفي المدن والمراكز الصناعية. وان شروط العمل الجماعي تعلمها على النظام والتنظيم. وأن وضع الطبقة في المجتمع الرأسمالي يحفزها الى النضال الحاسم من أجل الاشتراكية. وهكذا، فالأمر ليس دعاية لطبقة البروليتاريا وانما هو تقديم للواقع الموضوعي للأشياء. بيد أن البروليتاريا لاتخوض النضال لوحدها، فالرأسمالية، ولاسيما الاحتكارات الرأسمالية تظلم وتستغل الفلاحين وبورجوازية المدينة الصغيرة والقائمين بالعمل الفكري وكل شعوب المستعمرات والبلدان الدائرة في فلك الاستعمار. ولهذا فان مصالح البروليتاريا تلتقي مع مصالح الجذرية لكل الجماهير الكادحة، مع مصالح غالبية المجتمع، ويؤهلها وضعها هذا لأن تقود كل الجماهير المستغلة الى النضال من أجل الديمقراطية والاشتراكية. ثم إن مبادىء الماركسية ـ اللينينية هذه مؤيدة بالتطبيق العملي. ان المجتمع الرأسمالي المعاصر هو ميدان للنضال الطبقي الحاد. وتختلف خصائص هذا النضال من بلد الى آخر، فهو يتخذ أشكالا حادة في بعض البلدان حسب ظروفها الموضوعية، ويكون أقل حدة في بعضها الآخر، لكنه قائم في كل مكان. وهو ينتج عن استغلال الكادحين وعن الضغط المستمر الذي قوم به رأس المال على مستوى المعيشة، وعن التهديد باسترداد المكتسبات الاجتماعية أو الحد منها، وعن هجوم الاحتكارات على الحقوق الديمقراطية والحريات، وعن السياسة العدوانية الخطرة التي تنتهجها البلدان الرأسمالية الكبرى، هذه السياسة القائمة على الركض وراء

التسلح واشعال نار حرب جديدة . . الخ . لقد جاء في البيان الصادر عن مؤتمر ممثلي الأحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٠ : « أنه ، في النتيجة ، ومع احتدام التناقض الطبقي الرئيسي في المجتمع البرجوازي بين العمل ورأس المال ، يزداد التناقض عمقاً بين حفنة الاحتكاريين وجميع فئات الشعب . . .

ان الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وبورجوازية المدينة ، المتسوطة والصغيرة ، جميعاً ، تلتقي في اهتمامها بالقضاء على سيطرة الاحتكارات وتصفيتها ، وتنشأ الشروط الملائمة لتراص ووحدة هذه القوى جميعاً »[1] .

وعلى هذا ، فان ديالكتيك التاريخ يتبدى في أن الرأسمالية ذاتها تخلق عناصر فنائها ، وتهيء المقدمات المادية لموتها . الا أن انهيار الرأسمالية لا يتم بصورة آلية تلقائية ، ان القوة المحركة لهذه العملية هي النضال الطبقي الثوري الذي تخوضه البروليتاريا والجماهير الكادحة المنضوية تحت قيادتها ، لاسيما اتحاد الطبقة العاملة مع الافلاحين .

المفهوم الماركسي والمفهوم الليبرالي في النضال الطبقي

ان نضال البروليتاريا الطبقي موجه ضد النظام البورجوازي بكليته . لكنه من أجل تحطيم الرأسمالية لابد للبروليتاريا من أن تنتزع السلطة من الرأسماليين . ولهذا فان مسألة السلطة هي المسألة الأساسية والرئيسية في

(١) وثائق النضال من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٧١ ـ ٧٢

النضال الطبقي. ان هدف نضال البروليتاريا الطبقي هو اقامة دكتاتورية البروليتاريا التي تستعملها هذه الطبقة كأداة لتحويل المجتمع، أي للقضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية. وليس هذا الهدف تصوراً وخيالاً، وانما هو رؤية علمية صحيحة لاتجاه التطور التاريخي. ولما كانت مصالح البروليتاريا والبورجوازية متناقضة، وكان تطور الرأسمالية يهيء المنطلقات المادية للقضاء على الملكية الخاصة واستبدالها بملكية اجتماعية، ولما كان لابد من مقاومة البورجوازية لقيام البناء الاجتماعي الجديد، وكانت البروليتاريا هي أكثر الطبقات تنظيمًا وثورية في المجتمع الرأسمالي، لذا فان الطريق الى الاشتراكية لا يمكن الا بقيام ديكتاتورية البروليتاريا. وهذا يعني أنه يجب على الطبقة العاملة تحقيق دكتاتورية البروليتاريا لا من أجل مصلحتها الخاصة وحسب، بل ومن أجل مصالح جميع الكادحين، من أجل مصلحة التقدم التاريخي. ولا يمكن أن تؤدي البروليتاريا هذه المهمة الا عن طريق النضال الطبقي العنيف ضد البورجوازية. ولهذا فان الماركسية تقر ديكتاتورية البروليتاريا كنتيجة للنضال الطبقي الذي تشنه البروليتاريا في المجتمع البورجوازي. ان النضال الطبقي يؤدي حتمًا الى ديكتاتورية البروليتاريا، وان النظرية الماركسية تعبر عن هذه الضرورة الموضوعية. « فالماركسي هو فقط ذلك الذي يوسع الاعتراف بالنضال الطبقي حتى يبلغ الاعتراف بديكتاتورية البروليتاريا »[1]. هذا هو المفهوم الماركسي حول النضال الطبقي.

وتسعى البورجوازية، وفقاً لمصالحها الطبقية، الى سحق الحركة الثورية التي تقوم بها الطبقة العاملة، وتستخدم من أجل ذلك، شتى أنواع العنف وطرق التأثير الايديولوجي على طبقة البروليتاريا من أجل حرمانها من وعيها الطبقي وربطها بايديولوجية ملائمة للبروجوازية. ويساعد الرأسماليين في هذا عملاؤهم المندسون في الحركة العمالية ـ الاصلاحيون والتحريفيون. ان

---

(١) لينين المؤلفات. الجزء ٢٥. ص ٣٨٤.

البورجوازية وعملاءها تسعى لاقناع البروليتاريا بأن التناقضات الطبقية يمكن حلها بسهولة في نطاق النظام البورجوازي ذاته، وبأنه اذا ما قام النضال كان عليه أن يؤدي لا الى القضاء على الرأسمالية، وانما الى المصالحة بين الطبقات. وتعترف البورجوازية أحياناً بالنضال الطبقي، لكنها لا تقدر أبداً على الاعتراف بأن النضال الطبقي يؤدي الى ديكتاتورية البروليتاريا. فقد كتب لينين فاضحا هذا التشويه الليبرالي ـ البورجوازي قائلاً: «ان الليبرالية، عندما يشتد ساعد الحركة العمالية، لا تعزم على نفي النضال الطبقي، وانما تسعى الى تضييقه وحصره وتشديد الخناق عليه وتشويه مفهومه»[1]. وينحصر هذا «التضييق»، كما بين لينين، في انتزاع كل ما هو رئيسي في النضال الطبقي ـ مسألة انتزاع سلطة البروليتاريا. ان البورجوازية تعترف بالنضال من أجل المطالب الاقتصادية والاصلاحات الاجتماعية شريطة ألا يوجه ضد نظام الرأسمالية بالذات. وان السياسيين والايديولوجيين البورجوازيين يقابلون النضال الطبقي بالسلم الطبقي، بتعاون الطبقات، بالصداقة بين العمل ورأس المال. لكنه خلف هذه الكلمات «السلمية» تكمن المطالبة باستسلام البروليتاريا لوضعها القاسي، وبتخليها طوعاً عن أهدافها وبخضوعها للايديولوجية البورجوازية وبتحولها الى أداة طيعة في يد السياسة البورجوازية. ويقوم الاشتراكيون الديموقراطية اليمينيون والانتهازيون الذين هم عملاء للبورجوازية في الحركة العمالية بترويج شعارات التعاون الكاذبة المنافقة هذه. ان الاشتراكيين اليمينيين المعاصرين يرغبون عن ذكر النضال الطبقي في برامجهم ويرغبون عن الطريق الطبقي في حل كل القضايا السياسية والاجتماعية.

ومن أجل نفي النضال الطبقي في علم الاجتماع البورجوازي في وقتنا هذا تستخدم نظريات شتى حول الطبقات، معادية للماركسية، مثل «التنضيد

---

(١) لينين المؤلفات. الجزء ١٩. ص ٩٨.

الاجتماعي » و « الحركة الاجتماعية » وسواهما. ويؤكد علماء الاجتماع البورجوازيون، بعد أن ينكروا التناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي، ان التقدم ليس مرتبطاً بانتصار القوى الثورية، وانما بنمو « الحركة الاجتماعية »، أي، بانتقال الناس من طبقة اجتماعية دنيا الى طبقة أعلى. وبقدر ما يقدم هذا المجتمع من الامكانيات لهذه الحركة يكون أكثر تقدمية. وما فتئت الدعاية الاميركية تردد وفقاً لنظرية « الحركة الاجتماعية » بأن كل أمريكي يستطيع أن يصبح مليونيراً. وهي اذ تخدع الناس بمثل هذه البدعة الكاذبة، تحاول صرف الجماهير عن النضال من أجل حقوقها.

الواقع ان « الحركة الاجتماعية » في الرأسمالية ليست هي التي تفتح المجال واسعاً أما الجماهير الكادحين من أجل تأمين حياة راغدة فعلا وتحصيل العلم والثقافة والخيرات المادية الأخرى، وانما القضاء على الرأسمالية ذاتها هو الذي يؤمن ذلك كله.

ولذا، ففي فهم النضال الطبقي ثمة وجهتان متناقضتان : وجهة النظر الماركسية التي تبين طريق تحرر البروليتاريا، ووجهة النظر البورجوازية. وتنفي هذه الأخيرة القول بأن النضال الطبقي يؤدي حتماً الى ديكتاتورية البروليتاريا، وهي لا تسمح للحركة العمالية أن تتعدى الحدود التي ترضى بها البورجوازية.

أشكال النضال الطبقي

يعتبر نضال البروليتاريا الطبقي لدى مقارنته بنضال الطبقات في التشكلات السابقة، أكثر تنظيماً وتطوراً. ان تناقض الطبقات يتجلى في جميع ميادين الحياة الاجتماعية، لكنه يختلف من ميدان الى آخر. وان الشكل الاقتصادي والسياسي والايديولوجي هي الأشكال الأساسية للنضال الطبقي. فلندرس خصائص هذه الأشكال والعلاقة المتبادلة فيما بينها بالنسبة لنضال البروليتاريا الطبقي. ان النضال الاقتصادي هو النضال الهادف الى تأمين الحاجات

المعيشية اليومية للعمال، وتحسين شروط عملهم (رفع الأجور، تحسين شروط العمل وغيرهما) فقط، لا إلى القضاء على هذا الاستغلال. هذا النضال الاقتصادي هو الشكل الأول المبكر للنضال والذي يظهر عفوياً كنتيجة مباشرة لظروف حياة العمال القاسية. وفي سير النضال الاقتصادي تنشأ المنظمات المهنية للعمال من أجل قيادته. ولهذا النضال أهمية بالغة باعتباره عملاً ضد الفقر، ويساعد على نمو التضامن الطبقي . . . ولابد لنا من فهم محدودية هذا النضال لتناوله اهدافاً جزئية معينة ولأنه لا يجعل القضاء على الرأسمالية مهمته الأساسية. ولقد بين لينين في نضاله ضد « الاقتصاديين » أن حصر نضال البروليتاريا في النطاق الاقتصادي يحكم على العمال بالعبودية الأبدية. وهذا هو الخط الذي ينتهجه قادة النقابات الرجعيون في الولايات المتحدة الاميركية (ميني، رايتر وغيرهما). ان هؤلاء العملاء المخلصين لرأس المال يوجهون الحركة العمالية في طريق المطالب الاقتصادية، ويسعون الى المصالحة بين بالعمال والرأسماليين، والى اقامة « السلم الطبقي ». وقد قام في البلدان الرأسمالية نموذج خاص من رجال النقابات الرجعيين - البيروقراطيين الذين جعلوا من خيانة المصالح الرئيسية للطبقة العاملة مهمتهم الأولى، ويسعون لبث التفرقة في الحركة العمالية لصالح الاحتكاريين. لكنه مع نمو وعي البروليتاريا في البلدان الرأسمالية يزداد تصميمها على توحيد صفوف الطبقة العاملة في النضال ضد هجوم الاحتكارات على مستوى حياة الشغيلة، في النضال من أجل الديمقراطية والاشتراكية.

ورغم أقوال وافعال الاصلاحيين والنقابيين البيروقراطيين وكل حماة الرأسمالية الآخرين فان النضال الطبقي في العالم الرأسمالي قائم على قدم وساق ويزداد احتداماً من حين لآخر، وهو أمر جلي في حقل النضال الاقتصادي. إن الوقائع تثبت زيادة عدد الاضرابات في الأعوام الأخيرة وزيادة عدد القائمين بها زيادة كبيرة، وأن الاضرابات غالباً ما تكون ذات طابع عنيد وطويل المدى.

وهكذا، ففي البلدان الرأسمالية الرئيسية الست (الولايات المتحدة،

انكلترا، فرنسا، ألمانيا، ايطاليا، اليابان) كان متوسط عدد الاضرابات لكل خمس سنوات كما يلي : كان بين عامي (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠)، ٥٧٩١؛ وبين عامي (١٩٤٧ ـ ١٩٥١)، ١٠٦٤٣؛ وبين عامي (١٩٥٢ ـ ١٩٥٦)، ١٢٣٩٠ . واذا ما قورنت هذه الزيادة بالنسبة الى فترة ما قبل الحرب عادلت مثلين ونصف المثل. وفي قلعة الرأسمالية ـ الولايات المتحدة الأميركية ـ قام أكثر من ٦٦ ألف إضراب خلال ١٦ عاماً من ١٩٤٥ حتى ١٩٦٠، اشترك فيها زهاء ٣٨,٥ مليون انسان.

ان الماركسية ـ اللينينية لا تعتبر النضال الاقتصادي هو النضال الممكن الوحيد، بل تعتبره كأحد أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا وينبغي أن يبقى مرتبطاً بالنضال السياسي وخاضعاً لقضاياه.

أما النضال السياسي فهو الشكل الحاسم الرئيسي بين أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا. يقول ماركس أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي وهذا يعني أن نضال العمال ضد الرأسماليين بقدر ما يكون نضال طبقة ضد طبقة، يصبح نضالا سياسياً ويتسع حتى يعم حقل السياسة. وفي النضال السياسي لا تبرز مصالح هذه الفئة من العمال أو هذه المهنة أو تلك بل لتبرز المصالح الطبقية العامة للبروليتاريا. ان النضال السياسي هو نضال طبقة العمال جميعاً ضد كل طبقة الرأسماليين أجمع.

ان الطبقة العاملة، اذ تقوم بنضالها السياسي، تهب ضد الظلم الاقتصادي والسياسي الذي تمارسه البورجوازية مع كل الكادحين. وفي النضال السياسي بالذات تظهر الطبقة العاملة كمناضل حازم من أجل مصالح كل الشغيلة وتصبح قائدة لهم في النضال ضد الرأسمالية.

وفي سير هذا النضال تبرز مطالب مختلفة : تحسين القوانين الاجتماعية، ضمان وتوسيع الحريات الديمقراطية، والاحتجاجات على التدابير الرجعية المختلفة للحكومات البورجوازية... الخ. هذه المطالب تتمتع بأهمية فائقة من أجل تأمين مصالح الطبقة العاملة. لكن مسألة السلطة هي أهم مسائل

النضال السياسي. ان أهمية الشكل السياسي للنضال تنحصر في كونه الوسيلة الوحيدة التي تتمكن بها الطبقة العاملة من انتزاع السلطة من يد البورجوازية واقامة دكتاتوريتها. وعندما تقوم الشروط المناسبة تبرز هذه المسألة لتكون أكثر مسائل العصر أهمية.

ثم إن نضال الجماهير الكادحة ضد هجوم الرجعية السياسية وانبعاث الفاشية في هذه الاشكال أو تلك، ومن أجل الحقوق والحريات الديمقراطية وضد الروح العسكرية والحرب، ومن أجل السلام يشغل مدى واسعاً في الوقت الحاضر. إن هذه القضايا كلها ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً وتؤلف مجموعة المطالب الديمقراطية التي تنادي بها الحركة العمالية في كل مكان. ولابد، من أجل حلها، توفر وحدة الطبقة العاملة محلياً ودولياً. ان النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة، وتصفية الانشقاقات في صفوفها، هو أعظم المسائل السياسية والايديولوجية شأناً. وهكذا، فبالرغم من أن النضال السياسي يأتي نتيجة لأسباب اقتصادية ويؤدي أخيراً الى تغيير ظروف الحياة المادية، فهو يبقى الشكل الحاسم والرئيسي من بين أشكال النضال الطبقي ويلعب النضال الاقتصادي دور التابع بالنسبة له.

والشكل الثالث الأساسي للنضال الطبقي هو النضال الايديولوجي الذي يخضع كذلك لحاجات النضال السياسي. ومهمته نقد الايديولوجية البورجوازية، والتشويهات التحريفية للنظرية الماركسية ـ اللينينية. وهو نضال من أجل التأثير على الجماهير وحمل الوعي الاشتراكي اليها. ولهذا فهو لا ينفصل عن النضال السياسي وحاجاته ومتطلباته.

دور الحزب في نضال البروليتاريا الطبقي

ان الحزب السياسي هو ظاهرة اجتماعية أصيلة، تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع الحديث. وتختلف الأحزاب عن الدولة، كشكل للتنظيم السياسي في المجتمع الطبقي، بكونها اتحادات اختيارية بين عناصر الطبقة التي تتحد تحت

راية ايديولوجيتها لمصلحة النضال المشترك.

ان حزب البروليتاريا السياسي هو صاحب الدور القائد والموجه في نضالها الطبقي. وبدون الحزب المسلح بالنظرية العلمية والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجماهير لا يمكن للبروليتاريا أن تحقق النجاح في نضالها ضد أعدائها الطبقيين. ومع الانتقال الى الامبريالية، عندما احتدمت تناقضات الرأسمالية، أثبتت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية أنها أعجز من أن تقود البروليتاريا في نضالها الطبقي. لقد ولد الانتهازيون في حزب الاصلاحات الاجتماعية ثم انتصروا في تلك الاحزاب جميعاً بعد أن صاروا وسائط للتأثير البورجوازي على الطبقة العاملة. وقد وضع التاريخ مهمة خلق حزب جديد، حزب الثورة الاجتماعية القادر على أن يكون طليعة نضال البروليتاريات الثوري. فأنشأ لينين هذا الحزب في روسيا، فكان حزب البلشفيك. ثم ظهرت أحزاب شيوعية أخرى مماثلة حتى صارت تعد في وقتنا الحاضر ٨٧ حزباً شيوعياً تضم زهاء ٤٠ مليون شيوعي. هذه هي القوة الجبارة الحقيقية الي تنظم النضال الطبقي للبروليتاريا المعاصرة في البلدان الرأسمالية، وبناء المجتمع الجديد في بلدان المعسكر الرأسمالي.

لقد صاغ لينين نظرية الحزب ووضع مبادئه التنظيمية. ان الحزب هو جزء من الطبقة، وطليعتها التقدمية الواعية المنظمة الذي يحتضن أفضل عناصر الطبقة العاملة. وقد اعتبره لينين أعلى شكل للتنظيم الطبقي الذي يعبر عن المصالح الطبقية العاملة للبروليتاريا وينبغي أن يتسلم قيادة كل تنظيماتها الأخرى.

يقوم الحزب الشيوعي على أساس الديمقراطية المركزية التي اذ تعترف بأهمية الاجهزة القيادية والزام المنظمات السفلى بقراراتها، تؤمن، في الوقت ذاته، حرية الانتخابات، ومحاسبة الأجهزة القيادية، وحرية النقاش واصدار القرارات الجماعية. ان الحزب الشيوعي، بطبيعته، منظمة ثورية للطبقة العاملة من شأنها أن تعيش وتفعل وتخلق الجديد وتحطم القديم. ان ادخال

المبادىء التنظيمية اللينينية الى حياة الحزب يخلصه من القرارات الجانبية السريعة، ويضمن للقيادة الحوبية صحة منطلقاتها والتطور الواسع للمبادرة الخلاقة ولفعالية أعضاء الحزب والجماهير الكادحة.

إن الحزب قوي بوحدته وبتراص صفوفه، وهو اتحاد بين الشيوعيين الذين يجمعهم تفكير واحد. وتتعزز الوحدة الفكرية للحزب بقوة التنظيم والنظام الحديدي الذي يلزم الأعضاء جميعاً. وهو لا يحتمل وجود العناصر الانتهازية بين صفوفه، ولذا فقوته رهن أيضاً بتنقيته من هؤلاء.

إن الاحزاب الماركسية ـ اللينينية جميعاً هي أحزاب مستقلة ومتساوية في الحقوق. وهي تضع سياستها بتطبيق الماركسية ـ اللينينية على الظروف الحسية الموضوعية لبلدانها. والى جانب ذلك، وكما ورد في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد عام ١٩٦٠، « فان مصالح النضال من أجل قضية الطبقة العاملة تتطلب رص الصفوف داخل كل حزب شيوعي على حدة، وبين جحافل الشيوعيين في البلدان قاطبة، ووحدة ارادتها وأفعالها. ان العناية بتوطيد وحدة الحركة الشيوعية العالمية هي أسمى واجب أممي لكل حزب ماركسي لينيني »[1]. وقد أصبح البيان أيضاً أنه من أجل تأمين هذه الوحدة ينبغي على كل حزب شيوعي أن يحافظ على تأييده للقرارات المتخذة من قبل الأحزاب بصورة جماعية، والتي تتعلق بمهمات النضال العامة ضد الامبريالية، ومن أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية.

ان قوة الحزب هي في ارتباطه بالجماهير. وهو يعتمد على ثقة ومساندة الجماهير التي يقودها. والحزب يعلّم كوادره أن تكون على صلة دائمة بالجماهير، ويربيها على الاخلاص لمصالح الطبقة العاملة وجماهير الكادحين. والحزب لا يقوم بتعليم الجماهير وحسب، وانما هو أيضاً يتعلم منها ويعمم تجربتها وينشرها بعد أن يسمع الى صوتها عن كثب.

---

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ص ٨٢.

والحزب يربي الجماهير ويحدد تكتيك الحركة العمالية وخطها الستراتيجي ويهتم بالجمع الملائم بين مختلف اشكال النضال، وباختيار الوسائل الملائمة له.

إن الحزب يحافظ على نقاوة النظرية ويدفعها الى الأمام بشكل خلاق بما يتلاءم مع التجربة الجديدة والظروف التاريخية، وذلك في نضاله ضد التحريفيين والديماغوجيين. إنه يربط النضال من أجل الأهداف الأساسية للطبقة العاملة بالنضال من أجل متطلباتها اليومية الملحة.

وقد وضع التاريخ على عاتق الأحزاب الشيوعية مهمات تاريخية جساماً.

الفصل الأول:

الفصل الثاني

الفصَل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس



Mouyn